المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي

٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠م - ١٥١٧م

رسالة لنيل درجة الماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية

إعداد
خالد محسن حسَّان الجابري

إشراف
الأستاذ الدكتور/ مريزن سعيد مريزن عسيري

١٤١٣هـ / ١٩٩٣ م

الجـــزء الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة ماجستير بعنوان

الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ،

وبعـــــد :

حظيت الدولة المملوكية في العصر الحديث بدراسات عدة لأحوالها من قبل الكثير من الباحثين ، إلا أن أغلبها اقتصر على بلاد الشام ومصر لكونها مسيطرة عليها بصورة مباشرة ، أما بلاد الحجاز فقد ندرت الدراسات حولها في هذا العصر خاصة في المجال الحضاري رغم مكانتها السامية في قلوب المسلمين عامـــة .

ومن هنا تولدت لدى الباحث الدراسة لهذا المجال لتكون موضوعاً لنيل درجة الماجستير وهي بعنوان « الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي من الفترة ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م » .

أما البحث فقد اشتمل على مقـــدمة ودراسة تحليلية لأهم مصادر البحث ، وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .

أما المقدمة فتشتمل على أهمية الموضوع والسبب في إختياره ، ثم دراسة تحليلية لأهم المصادر المخطوطة والمطبوعة التي اعتمد عليها البحث ، أما التمهيد فقد اشتمل على مايلي :

أولاً : الحجاز تحديده وأهميته .

ثانياً : الحياة العامة في الحجاز من النواحي السياسيه والإقتصاديه والإجتماعيه .

ثم الفصل الأول الذي تناول مظاهر الإهتمام بالحركة العلمية في الحجاز خلال هذه الفترة والتي تمثلت فيما يلي :

أولاً : اهتمام أمراء الحجاز بالحركة العلمية :

ثانياً : اهتمام بعض سلاطين المماليك وأمراء الدولة الإسلامية بالحركة العلمية في الحجاز .

ثالثاً : دور العلماء والعالمات والأعيان في تنشيط الحركة العلمية والتي اشتملت على المجاورين ، الأسر العلمية ، دور العلماء في المدن الحجازية ، دور المرأة في الحركة العلمية بالحجاز .

رابعاً : العلاقات العلمية بين الحجاز والأطراف الأخرى « الرحلات العلمية »

خامساً : الوراقة والوراقون ودورهم في تنشيط الحركة العلمية .

سادساً : الكتب والمكتبات .

بينما الفصل الثاني تناول مراكز التعليم في الحجاز والتي اشتملت على مايلي :

أولاً : الكتاتيب . ثانياً : المساجد. ثالثاً : دور المدارس . رابعاً : دور الأربطة

ثم الفصل الثالث الذي تناول العلماء وإنتاجهم العلمي حيث إشتمل على الآتي :

أولاً : الدراسات الشرعية . ثانياً : الدراسات الأدبية واللغوية .

ثالثاً : الدراسات الإجتماعية . رابعاً : الدراسات العقلية والتطبيقية .

أما الخاتمة : فقد تناولت الدراسة أهم النتائج التي توصل إليها الباحث ومن أهمها :

١ - ظهور الأسر العلمية المكيه والمدنيه التي توارثت الوظائف الدينية والعلمية خلال فترة البحث .

٢ - تطور الدراسات التاريخية في تلك الفترة ومكانتها عند المؤرخين .

٣ - أظهرت الدراسة أن العصر المملوكي لم يكن عصر ظلام وضآله علمية كما يتوهم الكثير من المؤرخين.

٤ - أوضحت الدراسة جانباً معيناً لم يتطرق إليه الباحثون ، وهو المدن الحجازية الأخرى ، وقراها مثل الطائف وجده وينبع وقرى مكة المكرمة .

فأرجو من الله تعالى التوفيق والقبول إنه ولي ذلك وهو القادر عليه والحمد لله رب العالمين .

الباحث	المشرف على الرسالة	عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
خالد محسن حسان الجابري	د / مريزن سعيد عسيري	د. محمد بن صامل السلمي

١٢/ ٧ / ١٤١٥هـ

شكر وتقدير

أتوجه بالشكر أولاً وقبل كل شيء لله عزّ وجَلّ الذي وفقني ويسر لي مهمتي وأعانني على إنجازها على خير وجه إن شاء الله، كما يسعدني أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى جامعة أم القرى، ولكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، وقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية على ماقدموه لي من تسهيلات خدمة للعلم والباحثين.

كما أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ الدكتور ضيف الله يحيى الزهراني الذي لم يبخل علي بمشورته وتوجيهه ونصحه أثناء إشرافه السابق على هذا البحث.

وأما من كان الشكر أقل ما يمكن أن يقال له فلأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور مريزن سعيد مريزن عسيري ا لذي ما أن تحمل مسئولية الإشراف على هذا البحث حتى تلقاني بالرعاية وقدم لي النصح والإرشاد اللذان كانا خير منار لي في سبيل إخراج هذا البحث بهذه الصورة.

كما يسرني أن أتقدم بالشكر والتقدير لكل من مد لي يد العون والمساعدة في إنجاز بحثي هذا.

وجزى الله الجميع عني كل خير ،،،



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعى بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين. أما بعد،

فمعروف أن منطقة الحرمين الشريفين كانت منذ فجر الإسلام ولاتزال منطقة جذب للمسلمين تهوي إليها قلوبهم للحج والعمرة وزيارة مسجد الرسول الكريم ﷺ، وكان هذا تحقيقاً لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام حينما دعى ربه قائلاً: ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم * ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1]. وجاءت استجابة الحق تبارك وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فما لبثت هذه البقاع الطاهرة إلا يسيراً حتى امتلأت أرجاؤها بالمسلمين الذين باتوا يأتون إليها من كل حدب وصوب.

تلك القدسية الدينية كانت سبباً مباشراً في ازدهار الحركة العلمية، فهذا موسم الحج مكان للقاء العلماء من كافة أقطار العالم الإسلامي يتدارسون فيه جوانب المعرفة وما يعرض من أمور الواقع ويأخذ بعضهم عن البعض الحديث والتفسير والفقه وشتى أنواع المعرفة، وأهم من ذلك كله هجرة الكثير من المسلمين من شتى بقاع الأرض إلى المدينتين المقدستين نتيجة ظروف اقتصادية أو دينية أو سياسية، فهؤلاء المهاجرين كانوا أصحاب ثقافات وعلوم في بلدانهم وأصبحوا بعد ذلك جزءاً من مجتمع الحجاز، فكان لهم باع طويل في تنشيط الحركة العلمية فيه، ونتيجة لذلك نشأت المدارس وكثر طلاب العلم والمعرفة.

وقد قدم سلاطين المماليك وغيرهم من سلاطين وأمراء البلدان الأخرى المساعدات والصدقات لهؤلاء العلماء والمجاورين ورواد الأربطة والزوايا والمدرسين، والقضاة والخطباء، وكان ذلك سبباً مهماً من أسباب ازدهار الحركة العلمية.

---

(١) سورة إبراهيم، آية ٣٥، آية ٣٦، آية ٣٧.

واستتبع وجود العلماء وجود المدارس وتطورها، وكان كثير من تلاميذ تلك المدارس شباناً قادمين في موسم الحج، وقلما خلا عام من أعوام القرون الثلاثة، السابع، والثامن، والتاسع من الهجرة من عالم شهير في الحرمين الشريفين يأخذ عنه كل راغب في العلم والمعرفة ويحذون حذوه في الدراسة والإطلاع.

أما أسباب اختياري لهذا الموضوع:

فمنذ السنة المنهجية وأنا أفكر في دراسة موضوع في الحضارة والنظم الإسلامية، وبعد الإطلاع والدراسة توصلت إلى أن الجانب العلمي في الحجاز خلال العصر المملوكي لم ينل الدراسة الكافية، فعقدت العزم واستخرت الله في ذلك، وكان هناك عدة عوامل دفعتني للكتابة في هذا الموضوع منها:

١ ـ مكانة الحجاز الدينية، فهي تحتل مكانة سامية في قلوب المسلمين جميعاً لما تضمه أرضه الطيبة من مقدسات إسلامية.

٢ ـ لايجد الباحث بحثاً تاريخياً مفصلاً عن الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، وإنما نجد مؤلفات على كثرتها يعتورها النقص ويعوزها العمق والاستقصاء.

٣ ـ كما شجعني على اختيار هذا الموضوع، توفر المصادر الأصلية لهذا البحث ولعلماء عاصروا تلك الفترة، أمثال الفاسي، وبنو فهد، وابن حجر، والسخاوي.

٤ ـ أن كل موضوع محدد غير متشعب يستطيع الباحث أن يتمكن من دراسته وحصر موضوعاته حصراً يقرب من الإجادة والشمول والإحاطة وإيفاء الموضوع حقه، سيما وأن الأبحاث في الحضارة والنظم الإسلامية خاصة أحوج ما تكون إلى الحصر والتخصص.

٥ ـ نشأة الحركة العلمية في هذا العصر، ونقصد من هذا ازدهار علوم ومعارف متنوعة، كالحديث، والفقه، والتفسير، واللغة، والأدب، والتاريخ إلى جانب الكثير من العلوم، وهذا ما ستكشف عنه الدراسة إن شاء الله.

٦ ـ رغبتي الكامنة لإثبات أن العصر المملوكي لم يكن عصر ظلام أو ضآلة علمية، كما يتوهم البعض، بل هو عصر زاخر بأمهات الكتب ويحلو لبعض المؤرخين

المعاصرين أن يسميه عصر الموسوعات العلمية لما قدمه العصر المملوكي لنا من تراث علمي في مختلف التخصصات، على أن هذا العمل الجليل الذي قام به علماء مصر ليس خدمة لتراثها فحسب، بل للعالم الإسلامي كله.

٧ ـ حظيت الدولة ا لمملوكية في العصر الحديث بدراسات عدة لأحوالها من قبل الكثير من الباحثين، وألفت كتب عديدة في بيان مظاهر حياتها التاريخية والسياسية، والاجتماعية، والعلمية، إلا أن جُلّ هذه الأبحاث لم تتعد حدود بلاد الشام ومصر، حيث كانت لتلك الدولة آثار بارزة وأعمال جليلة بها، وكانت لهم سلطة مباشرة عليها.

أما بالنسبة لبلاد الحجاز عامة، ومكة والمدينة على وجه الخصوص، فقد ندرت الدراسات حولها في هذا العصر، وقلت العناية بالتعريف بأحوالها وأوضاعها في عصر المماليك رغم مكانتها التي لاتساميها مكانة في قلوب جميع المسلمين، وبقيت هذه المنطقة مجهولة من كافة نواحيها لدى كثير من المثقفين، ومن أجل ذلك كان لزاماً على الباحثين وطلاب العلم أن يوجهوا عنايتهم لمعرفة النشاط العلمي وغير العلمي الذي مرت بهما أحب البلدان إلى قلوبهم.

ومن بين الصعوبات التي واجهت هذا البحث، فقدان كثير من مصنفات أهل مكة والمدينة وضياعها، فهناك كتب تاريخية فقدت منذ زمن طويل، لو وجدت لذللت الكثير من الصعاب، مثل مؤلفات ابن فهد في الأسر المكية.

كما أن الكثرة الهائلة لأسماء العلماء والمفكرين في هذا العصر، والمثبتة في كثير من مصادر التراجم، ومشاركاتهم في كثير من العلوم بحكم موسوعية أغلبهم، فكان من الصعوبة بمكان تبيان نشاط كل واحد منهم في الفنون المعرفية التي شاركوا فيها، وذلك استنفذ من الباحث جهداً كبيراً.

وقد اشتمل هذا البحث على مقدمة ودراسة تحليلية لأهم مصادر البحث وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

أما المقدمة فتشتمل على أهمية الموضوع والسبب الباعث على اختياره، ثم دراسة تحليلية لأهم المصادر المخطوطة والمطبوعة التي اعتمد عليها البحث، ثم التمهيد ويشتمل على :

أولاً: الحجاز ـ تحديده وأهميته:

تناولت فيه موقع الحجاز وحدوده وأهميته منذ القدم بشكل عام، ثم أهميته بشكل خاص بالنسبة للمماليك، حيث أعطيت دراسة وافية لجميع المدن المهمة في الحجاز وأهميتها الدينية والسياسية والاقتصادية.

ثانياً: الحياة العامة في الحجاز من النواحي:

أ ـ السياسية: حيث تعرضت في هذه المبحث للحالة السياسية في الحجاز، والصراع القائم بين الأشراف، ومنافسة آل رسول لسلاطين المماليك، وما وقع في تلك الفترة من نزاعات في جميع مدن الحجاز.

ب ـ الاجتماعية: وتحدثت فيه عن المجتمع الحجازي في تلك الفترة، وقدمت وصفاً عاماً للحياة الإجتماعية في كافة مدن الحجاز، وأهم المنشآت التي قام بتعميرها سلاطين المماليك وغيرهم من أسبلة وعيون وآبار.

جـ ـ الإقتصادية: وبيّنت فيه موارد مكة المكرمة والمدينة المنورة وعلاقتهما التجارية الداخلية والخارجية، والأسواق المنتظمة في الحرمين الشريفين، والمعاملات المالية لأهل الحجاز، كما تعرضت فيه لأوقاف السلاطين والأمراء وغيرهم من المحسنين، وحالات الرخاء والشدة، والمجاعات التي أصابت الحرمين الشريفين في فترة البحث، كما تعرضت كذلك للحياة الإقتصادية في مدن الحجاز الأخرى، مثل: جدة، الطائف، وينبع.

وفي الفصل الأول تناولت «مظاهر الإهتمام بالحركة العلمية في الحجاز خلال هذه الفترة» ويشتمل على:

أولاً: اهتمام أمراء الحجاز بالحركة العلمية:

وبينت فيه اهتمام أمراء مكة بشكل خاص بالحركة العلمية في الحجاز ومشاركتهم فيها، وإنشاءاتهم العلمية، ورحلاتهم لطلب العلم، وبعض العلماء الكبار الذين تلقوا عنهم العلم، وثناء العلماء عليهم، ومشاركة الأمراء للعلماء في أفراحهم واتراحهم، كما أشرنا إلى بعض الأمراء الذين كانت لهم مواقف سلبية وغير مشرفة مع العلماء.

ثانياً: اهتمام بعض سلاطين المماليك وأمراء الدولة الإسلامية بالحركة العلمية في الحجاز:

وتحدثت فيه عن مشاركة سلاطين المماليك في العلم وتشجيعهم للعلماء، وانشاءاتهم التعليمية في الحجاز، ومشاركة أمراء المماليك في هذه الإنشاءات وتفوقهم فيها، كما تعرضت كذلك لسلاطين بني رسول ومؤلفاتهم ومشاركاتهم العلمية، ومنافستهم للمماليك في إنشاء كثير من المدارس في مكة، واهتمام بعض بنو طاهر بالحركة العلمية في الحجاز، إضافة إلى إنشاءات السلاطين والأمراء الهنود في الحرمين الشريفين المتمثلة في المدارس والأربطة في مكة والمدينة.

ثالثاً: دور العلماء والعالمات والأعيان و العامة في تنشيط الحركة العلمية :

ويشتمل على:

أ - **المجاورون:** وأوردت فيه بعض النماذج لهؤلاء العلماء المجاورين، ومشاركتهم في كافة فنون المعرفة، وتصنيفهم لكثير من الكتب في ظلال الحرمين الشريفين، ومشاركة بعض أهل الحرف في الحركة العلمية في الحجاز، ودور بعض المجاورين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقدير العلماء بعضهم للبعض في حل بعض المسائل الفقهية، كما تعرضت فيه لبعض إنشاءات التجار والأعيان في الحرمين الشريفين.

ب- **الأسر العلمية:** وتناولت فيها الأسر المكية أولاً، ثم الأسر المدنية، حيث أشرت إلى أصول هذه الأسر وأنسابهم ودورهم في الحركة العلمية.

جـ- **دور العلماء في المدن الحجازية:** وذكرت في هذا المبحث: دور العلماء في مدن الحجاز مثل: جدة، الطائف، بلاد بجيلة، قرى مكة المكرمة، وينبع، وما كان في هذه المدن من حركة علمية.

د- **دور المرأة ومكانتها في الحركة العلمية بالحجاز:** في هذا المبحث القصير، أوردت نماذج من نساء الحرمين، ومشاركتهن في العلم وإنشاءاتهن للأربطة والكتاتيب، وبعض من شاركت منهن في التأليف، والإجازات التي حصلن عليها من كبار العلماء في العالم الإسلامي.

رابعاً: العلاقات العلمية بين الحجاز والأطراف الأخرى «الرحلات العلمية»:

وتقصيت في هذا المبحث الرحلات التي قام بها علماء الحجاز، وأهمية الرحلة في طلب العلم، ورحلات العلماء إلى الحرمين الشريفين، ودور بعض العلماء في البلدان البعيدة مثل بلاد التكرور والسودان وغيرهما، ومشاركة بعض العلماء في التدريس في مدارس مصر واليمن، ورحلات البعض إلى بلاد الهند وتكريم السلاطين لهم.

خامساً: الوراقة والوراقون ودورهم في تنشيط الحركة العلمية:

وقد أفردت هذا المبحث لدراسة هذه الحرفة الرائجة ومن خدم فيها من المتكسبين بالنسخ، والذين كانوا ينسخون لأنفسهم ولغيرهم من العلماء خدمة لهم وطلباً للرزق وأماكن النساخة في الحرمين، كما تعرضت لتجارة الكتب وسوقها الرائجة في ذلك العصر.

سادساً: الكتب والمكتبات:

وتحدثت فيه عن أهمية الكتب والمكتبات الخاصة بالحرمين الشريفين، والإعارة ووقف الكتب، وخزائن الكتب في المساجد والأربطة والمدارس.

أما الفصل الثاني فكان الحديث فيه عن مراكز التعليم في الحجاز ويشتمل على:

أولاً: الكتاتيب:

وقمت بتقسيمها إلى كتاتيب خاصة، وكتاتيب عامة، و تعرضت إلى دور المؤدبين في الحرمين الشريفين، وما كان يتلقاه المكتبيين والتلامذة من فكر وعلوم بالحرمين الشريفين.

ثانياً: المساجد:

تحدثت فيه عن الحرمين الشريفين باعتبارهما مركز الثقل في الحركة العلمية، ولعدم وجود مساجد أخرى غير المسجد الحرام والمسجد النبوي كانت تقام فيها حلقات العلم، حيث قمت بتقسيم النشاط العلمي بهما إلى قسمين:

الأول: حلقات العلم في الحرمين الشريفين، وتشمل هذه الحلقات علوم الشريعة واللغة والعلوم العقلية.

الثاني: الدروس المقررة المخصصة التي قررها السلاطين والأمراء وغيرهم في الحرمين الشريفين.

ثالثاً: دور المدارس في الحرمين الشريفين:

وقد تطرقت في هذا المبحث لكثير من مدارس مكة والمدينة، موضحاً ماكان لها من أثر في تنشيط الحركة العلمية ، ومبيناً الشروط والمسائل المالية والإدارية والتنظيمية لهذه المدارس، وكيف كانت تتم فيها العملية التعليمية، ومناهج الدراسة، والمفردات العلمية، والأساتذة، والتلامذة.

رابعاً: دور الأربطة:

وذكرت في هذا المبحث كثيراً من الأربطة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وما تقدمه هذه الأربطة من خدمات ومعونات جليلة لساكنيها ، والدور الذي قامت به في تنشيط الحركة العلمية.

أما الفصل الثالث: العلماء والإنتاج العلمي: فإنه يشتمل على:

أولاً: الدراسات الشرعية:

ثانياً: الدراسات الأدبية واللغوية:

ثالثاً: الدراسات الإجتماعية:

رابعاً: الدراسات العقلية و التطبيقية :

وهذا الفصل يعتبر من أهم فصول هذا البحث، إذ أنه يمثل المحصلة النهائية والصورة الواقعية لنشاط الحركة العلمية في الحجاز، فقد تم فيه استعراض ثمرة الإنتاج العلمي المتمثل في بروز ا لكثير من علماء الفترة في العالم الإسلامي، لما قدموه من فكر جليل ودراسات رائعة لاسيما في العلوم الشرعية، وعلوم العربية والأدب، والتاريخ والتراجم، متقصياً في ذلك ذكر مصنفاتهم ورسائلهم العلمية، وما كان لها من أثر بالغ في تنشيط الحركة العلمية في الحجاز خاصة والعالم الإسلامي عامة.

دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث

لاشك أن لكل عمل علمي طبيعته، التي تفرضها وجهته الدراسية وميدان العمل، وبالتالي فإن لكل موضوع مصادر ومنابع معيّنة ومحددة تمليها طبيعة ذلك الموضوع، وموضوع دراسة الحركة العلمية في الدولة الإسلامية عامة تفرض على الباحث أن يلتقي بالعديد من المصادر المتخصصة في التاريخ والسياسة والإقتصاد والإجتماع والفكر بكافة فروعها المعرفية.

ومن فضل الله تعالى أن الفترة التي أتت على دراسة الحركة العلمية في الحجاز كانت فترة نماء وازدهار للحركة العلمية لاسيما في جانبها التاريخي، فقد أبرزت الكثير من المؤرخين الأفاضل، الذين تركوا لنا صورة رائعة لمظاهر الحركة الفكرية والنشاط العلمي في الحجاز إبان العصر المملوكي، مابين تراجم للعلماء والمفكرين وماخلفوه من علم وفكر، ودراسات سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية، سلطت أضواء جيدة على مدى تفاعل الحركة العلمية في الحجاز بكافة جوانب الحياة المختلفة.

والمؤرخون - سجل التراث - في هذا العصر كانت أكثر مؤلفاتهم حولية، تبدأ بسنة معيّنة وتنتهي عادة بوفاة المؤلف، وهذا مانجده في الموسوعات التاريخية في العصر المملوكي، فقد ظهرت مؤلفات عظيمة كانت تختص دائماً بمصر ودورها السياسي والريادي في العالم العربي والإسلامي في ذلك الوقت، ولكن هؤلاء المؤرخين لم ينسوا في خضم الأحداث المعاصرة لتلك الفترة أن يشيروا ويتطرقوا لكافة الجوانب السياسية والإقتصادية والإجتماعية والعلمية لبلاد الحجاز، وذلك لأن كثيراً من هؤلاء العلماء المؤرخين كانوا من ضمن الذين قاموا بزيارة الحرمين الشريفين، أو جاوروا بهما.

هذا بالإضافة إلى كتب التاريخ العام أو المحلي للحرمين الشريفين، وكتب التراجم وطبقات الرجال والوفيات في مجالاتها وتخصصاتها المختلفة لعلماء الشريعة، ورجال اللغة والأدب، أو تراجم المؤرخين والجغرافيين، ورجال التربية والعلوم العقلية وغيرها من العلوم.

كما أن تعدد المواضيع المختلفة التي تطرقت لها هذه الدراسة أدت إلى تنوع مصادر البحث وتعددها وهيأ إمكانية الإستفادة منها جميعاً، مما يجعل من الصعوبة بمكان أمر تناولها جميعاً بالتفصيل، إنما نحاول هنا الإشارة إلى أهمها والتي تعتبر الركائز الأساسية التي اعتمد عليها البحث، لاسيما تلك المصادر المعاصرة لفترة البحث، والتي أفادت في دراسة الحياة العلمية في الحجاز في العصر المملوكي.

بالإضافة إلى بعض المصادر التي لاغنى للباحث عنها، حيث إنها زودت البحث بمعلومات نادرة أفادت في جوانب معيّنة منه، وكانت تمثل نماذج للإنتاج العلمي في الكتب والمصنفات المتخصصة لعلماء العصر في ميادين العلوم المختلفة.

أولاً: المخطوطات:

يعد كتاب «الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» للنجم عمر بن فهد (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)*، أحد المخطوطات المهمة التي استفدت منها في فصول البحث، لما حوته من معلومات عن الحياة الثقافية والحركة العلمية في مكة المكرمة، وتكمن أهميته في أنه مكمل لكتاب «العقد الثمين» للفاسي، وقد أورد فيه كثيراً من الكتب التي ألفها العلماء في ذلك العصر، كما تناول فيه دور المرأة العلمي في مكة المكرمة، وتطرق لكثير من المدارس والأربطة التي كان لها دور في الحركة العلمية بمكة.

أما كتاب «نصيحة المشاور وتسلية المجاور» لعبدالله بن أبي عبدالله بن فرحون (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، فيعتبر أحد أهم المصادر المخطوطة التي أفادت البحث، وقدمت لنا مادة علمية عن العلماء في الحرمين الشريفين، خاصة المدينة المنورة، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن مؤلفها من أبناء أسرة ابن فرحون الشهيرة بالمدينة المنورة، وقد تحدث فيه عن

* إن جميع المصادر التي سنوردها هنا تعتبر من أهم كتب الإنتاج العلمي لفترة البحث، ولقد فصلنا هناك بالكامل عن كل واحد منها، ومما تجدر الإشارة إليه أن الغالبية العظمى من الباحثين لم يتنبهوا إلى أهمية عدد من المخطوطات التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة ومالها من دور بالغ في تكوين هيكل البحث سواء أكان ذلك من الناحية العلمية أو ما يتصل بها، أو من الناحية التاريخية أو السياسية أو الإقتصادية بالنسبة للحجاز في هذه الفترة، بل إن بعض المخطوطات على أهميتها القصوى، فإنني لم أجد أحد منهم تنبه إليها .

المكانة التي تمتع بها العلماء في عصره، كما أشار كذلك إلى كثير من مؤلفاتهم ومشاركاتهم في حلقات العلم بالمسجد النبوي.

وكتاب «بلوغ القرى في ذيل اتحاف الورى بأخبار أم القرى» لعزالدين بن عمر بن فهد (٩٢٢هـ/١٥١٦م)، وهو كتاب مخطوط ذيل به على كتاب والده النجم عمر بن فهد، ورتب الكتاب على حوادث السنين، مع إطالة في ذكر بعض الحوادث، وهذا الكتاب مهم جداً، وذلك لأن العز بن فهد كان يعتمد على مشاهداته للأحداث وتدوينه للمعلومات عن مكة، وما طرأ عليها من إنشاءات، واستفدت منه في معرفة المدارس والأربطة التي استمرت إلى زمنه، كما وضح بعض الأحداث السياسية والإقتصادية لمدينة جدة وما وقع فيها من حروب.

كذلك أستفاد البحث من كتاب «الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة» ولايزال مخطوطاً لتقي الدين الفاسي (٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، الذي وثقت منه كثيراً من المعلومات الخاصة بإنشاءات المدارس والأربطة في الحرمين الشريفين.

كما استفدت كثيراً من مخطوط «الغرف العلية في تراجم متأخري الحنفية» لمحمد بن علي بن أحمد بن طولون الدمشقي (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، والذي ضم كثيراً من أتباع المذهب الحنفي، من أمراء وعلماء وأعيان وغيرهم،

وهناك أيضاً كتاب «معجم ابن فهد» للنجم عمر بن فهد (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، أحد المخطوطات المهمة التي ترجمت لعلماء الحرمين الشريفين وبعض البلدان الأخرى، لأنها حوت شيوخ النجم بن فهد ومؤلفاتهم العلمية في الحرمين الشريفين.

بالإضافة إلى كتاب «تاريخ المحمدين» لمؤلف مجهول، ربما يعود إلى أحد علماء القرن التاسع الهجري، وذلك لأنه أورد أسماء كثير من العلماء ومؤلفاتهم في ذلك القرن، والجدير بالذكر أن هذه المصادر الثلاثة الأخيرة لم يستفد منها أحد من الباحثين على الرغم من أهميتها البالغة كمصادر لتلك الفترة التي لاغنى للباحثين عنها.

أما الأول فقد بيّنت مدى أهميته، وأما الثاني فإن كثيراً من الباحثين لم يعيروه ذلك الإهتمام اعتقاداً منهم بأنه المعجم الذي حققه الأستاذ محمد الزاهي، وهو خلاف ذلك، وأما الثالث فلأن مؤلفه مجهول فقد تركه الكثير من الباحثين.

وهناك أيضاً كتاب «تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام» لمحمد بن سالم الصباغ (ت١٣٢١هـ/١٩٠٣م)، وعلى الرغم من تأخر هذا المخطوط من الناحية الزمنية، إلا أن البحث إستقى منه معلومات تخص المدارس والأربطة، وإن كان معظمها منقول عن الفاسي، ولكنه بيّن بعض هذه الآثار التي بقيت بعد الفاسي بمدة قصيرة.

- المصادر المطبوعة:

ثانياً: المصادر المكية والمدنية:

ومنها كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» لمؤلفه تقي الدين الفاسي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، ويقع في ثمانية أجزاء، سار فيه المؤلف على الترتيب الهجائي للأسماء، عدا من إسمه محمد أو أحمد، فإنهما تصدرا أجزاءه ويعد هذا الكتاب موسوعة كبرى لتاريخ مكة وعلمائها ومن سكنها أو جاور بها، ولقد خدمني هذا الكتاب خدمة كبيرة، فقد استقيت منه جانباً كبيراً من المعلومات المتعلقة بموضوع بحثي، فكان مصدري الأساسي لاسيما فيما يتعلق بالنواحي السياسية والحياة العلمية والإجتماعية، وأحوال المجاورين بمكة، كما أنه أفرد جزءاً خاصاً لنساء مكة، استفدت منه كثيراً في معرفة دور ا لمرأة العلمي في الحرمين الشريفين، كما أنه أورد كثيراً من التراجم في بحوث قصيرة جرت الإستفادة منها، خاصة أثناء ذكره لأمراء مكة وسلاطين بني رسول وإنشاءاتهم في الحرمين الشريفين، لذا فإن هذا الكتاب يعد من أهم المصادر التي أفادت البحث كثيراً، فالفاسي أورد كثيراً من أسماء طبقات المجتمع في عصور مختلفة انتهت بعصره الذي عاش فيه.

أما كتاب «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» وهو للتقي الفاسي أيضاً، ويقع في جزأين فقد استفدت منه كثيراً في توضيح المعلومات التي لم يوردها في كتابه «العقد الثمين» خاصة المؤسسات التعليمية من مدارس وأربطة وغيرها، إضافة إلى ذكره للكوارث الطبيعية والأحداث المختلفة التي تعرضت لها مكة، كالأمطار والسيول والأوبئة، والإنشاءات والعمائر التي قام بها السلاطين والأمراء وغيرهم في مكة المكرمة، وجرت الإفادة منه في الناحية الإقتصادية والإجتماعية من التمهيد لهذا البحث، وكذلك المدارس والأربطة في الفصل الثاني من هذا البحث.

وللفاسي أيضاً «ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد»، ويتضمن أسماء المحمدين من رواة السنن أو المسانيد والمعاجم وبعض المشيخات، والكتب الشرعية المؤلفة التي ألفها العلماء في ذلك العصر، وتناول كذلك في تراجم العلماء ماكان يقرأ في الحرم المكي الشريف من كتب الحديث والأجزاء.

ويعد كتاب «إتحاف الورى بأخبار أم القرى» للنجم عمر بن فهد (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) ويقع فى أربعة أجزاء موسوعة تاريخية للأحداث التي مرت بها مكة المكرمة منذ عهد الرسول ﷺ حتى عصر المؤلف، مرتبة ترتيباً زمنياً، وقد أورد فيه كثيراً من المعلومات مع التركيز على أخبار الحج، ومن قدم مكة حاجاً من الأعيان والعلماء وأخبار أمراء الحج، والنفقات التي أنفقت في مكة، واستفدت منه في استيفاء أخبار أهل مكة، وأحوالهم الإجتماعية، والكوارث الطبيعية والمبادلات التجارية والمراكب، وأخبار الأسعار، وأخبار جدة وما حصل فيها من تعيين لنوابها والحياة الإقتصادية بها، إضافة إلى إشارات بسيطة عن تواريخ إنشاءات المدارس والأربطة بمكة، وعن خزائن الكتب بالمسجد الحرام.

وله أيضاً كتاب «معجم الشيوخ» الذي رتبه على حروف المعجم، وقد أفادني هذا الكتاب بشكل كبير فيما يتعلق بالعلوم التي راجت في مكة وحركة التأليف فيها، وتكمن أهميته في التراجم الوافية لبعض علماء المدن الإسلامية، كما يعتبر سجلاً مهماً للمدارس ونظامها الداخلي في عهده ، وأورد لنا كثيراً من المؤلفات والكتب التي ألفها علماء الحجاز وقاموا بتدريسها في الحرمين الشريفين.

أما كتاب «التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة» تصنيف محمد بن عبدالرحمن السخاوي (٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، فيعد أحد المصادر المهمة لتاريخ المدينة المنورة، وقد قصر السخاوي تراجمه في هذا الكتاب على أهل المدينة المنورة فقط، ومن سكنها من الغرباء ولو لسنة واحدة، بشرط أن يكون قد درّس فيها، أو حدث أو أفتى، سالكاً في ذلك طريقة سابقه الفاسي في كتابه «العقد الثمين» وهدف من وراء ذلك سد الفراغ الموجود في تاريخ هذه المدينة، إذ كان كما يقول لم يجد مؤلفاً يشفي الغليل في تاريخ هذه المدينة.

ولما كان السخاوي نفسه ممن جاور فترات عديدة، فقد التقى خلالها بالعديد من العلماء الأفاضل، الأمر الذي مكنه من تقديم صورة حقيقية عن الحياة العلمية في المدينة المنورة ومعلومات موثقة عن علمائها، وتكمن أهمية هذا الكتاب، في أنه ألف في المدينة المنورة أثناء مجاورة صاحبه، وقد جرت الإفادة منه بشكل رئيسي في جميع فصول البحث الرئيسية، حيث تعرض لإنشاءات السلاطين والأمراء في المدينة المنورة .. كما تعرض لأول مرة من خلال كتابه للأسر المشهورة في المدينة المنورة، ودور العلماء في المسجد النبوي، بالإضافة إلى الإنتاج العلمي لكافة فروعه في تلك المدينة المقدسة.

وكتاب «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» لمؤلفه علي بن أحمد السمهودي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، مؤرخ المدينة المنورة المشهور وأحد العلماء المدرسين بها، وقد أفاد هذا الكتاب في المبحث الخاص بالمدارس التي أنشأها السلطان قايتباي في الحرمين الشريفين، وخزائن الكتب في المسجد النبوي.

وهناك أيضاً كتاب «التعريف بما آنست من معالم دار الهجرة» لمحمد بن أحمد المطري (٧٤١هـ/١٣٤٠م)، وكتاب «تحقيق ا لنصرة بتلخيص معالم دار الهجرة» لزين الدين أبي بكر بن حسين المراغي (ت٨١٦هـ/١٤١٣م)، وكلاهما أشارا إلى المدارس التي أنشئت في المدينة المنورة، والتي لم يتعرض لها مؤرخوا ذلك العصر.

وكتاب «المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة» لعبدالله مرداد أبوالخير (ت١٣٤٣هـ/١٩٢٤م)، وإن كان هذا المصدر من المصادر المتأخرة زمنياً، إلا أنه ضمّن معلومات جيدة عن بعض الأسر المكية وإنتاجهم العلمي.

ثالثاً: المصادر المملوكية:

ومنها كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، فقد أعطانا وصفاً تفصيلياً للحياة السياسية والأعمال والإنشاءات التي قام بها سلاطين المماليك في الحجاز، وانتفعت به في استقاء المعلومات التي تخص العلاقات السياسية بين السلاطين وأمراء الحجاز، كما أوضح أهمية مدينة جدة الإقتصادية بالنسبة للمماليك، وترجم فيه لسلاطين المماليك تراجم وافية، ويعتبر المقريزي شاهد عيان لبعض فترات تاريخ الدولة المملوكية، ولذلك فمعلوماته تتسم بالأهمية.

أما «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لجمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، فهو كتاب ضخم، يعد من أهم المصادر الموسوعية التاريخية، فهو دائرة معارف كبرى مرتبة على السنين، وذلك ابتداءً من فتح عمرو بن العاص لمصر سنة ٢٠هـ/٦٤٠م، حتى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، تحدث فيه المؤلف عمن ولي مصر من الملوك والسلاطين والنواب مع ذكر ملوك الأطراف والأمراء، ومنهم أمراء الحجاز، وقد استفدت منه عما وقع من الحوادث المهمة، ومن توفي من علماء الحجاز والمجاورين، كما أنه كان العمدة في توثيق الكثير من المعلومات الخاصة بالحرمين الشريفين.

وله كذلك كتاب «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، استقيت منه معلومات مهمة عن بعض علماء الأسر المكية والمدنية ومؤلفاتهم، إضافة إلى انشاءات أمراء المماليك، وسلاطين الهند في الحرمين الشريفين.

وكتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» لأحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، وهو يمثل دائرة معارف عربية في هذا العصر من حيث المضمون والمنهج، وقد أفاد هذا البحث في تعريف بعض الإصطلاحات المملوكية التي سادت في هذا العصر، كما بيّن لنا المكاتبات والمراسلات بين أمراء الحجاز وسلاطين المماليك، إضافة إلى إعطائنا وصفاً للحجاز وأهميته الإقتصادية والإجتماعية.

وهناك أيضاً كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لابن إياس (ت.٩٣٠هـ/١٥٢٣م) وهو من معاصري السلطان قايتباي والسلطان قانصوه الغوري، وقد شاهد أحداث دولتهم، وكتب عنهم وخاصة فيما يتعلق بأحداث جدة والمنشآت التعليمية في الحرمين الشريفين.

وكتاب «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» لغرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨)، الذي اشتمل على معلومات قيّمة عن الحركة التجارية في مدينتي جدة وينبع.

رابعاً: المصادر اليمنية:

يعتبر كتاب «العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية» تصنيف علي ابن حسن

الخزرجي (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م)، من المصادر المهمة التي استقيت منها بعض المعلومات التي تخص سلاطين بني رسول وما كانوا يتمتعون به من ثقافة وعلم، وماكان لهم من أيادي على المنشآت العلمية بمكة، وكذلك العلاقات العلمية الوثيقة التي كانت بين علماء الحجاز وبين هؤلاء السلاطين.

وكتاب «الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد» لعبدالرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن الديبع الشيباني (ت٩٤٤هـ/١٥٣٧م)، سواء بتحقيق يوسف شلحد أو بتحقيق محمد عيسى صالحية، وهو كتاب أفادني في بعض أخبار الدولتين الرسولية والطاهرية وعلاقتهما العلمية بالحجاز.

وهناك أيضاً كتاب «تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر» لمؤلفه محي الدين عبدالقادر بن شيخ بن عبدالله العيدروسي (١٠٣٨هـ/١٦٢٨م) المؤرخ اليمني المشهور، وعلى الرغم من تأريخه لعلماء اليمن، إلا أنه تحدث فيه عن علماء الحجاز وإنشاءات السلاطين عامة في الحرمين الشريفين.

خامساً: كتب التراجم:

ويتصدرها كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» لمحمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، ويقع في إثنى عشر جزءاً، ويشمل هذا الكتاب أهل المائة جميعاً أياً كانوا سواء كانوا من المسلمين أم من غيرهم، وهذا يدلنا على أهمية المنحنى الإنساني الذي ظهر عند العرب في هذه المصنفات المئوية العامة دون أن يفرقوا بين أحد من الناس بسبب إختلاف العقيدة أو غير ذلك.

وقد أرخ في كتابه هذا لجميع فئات المجتمع، كما أنه ترجم لكثير من معاصريه، وكانت تراجمهم أكثر دقة ووضوحاً من التراجم التي أوردها في كتابه «التحفة اللطيفة»، خاصة علماء المدينة، وقد ذكر أنه جعل كتابه مرتباً على حروف المعجم الترتيب المعهود في الأسماء والآباء والأنساب والجدود، مبتدئاً من الرجال بالأسماء، ثم بالكنى، ثم بالأنساب والألقاب، وجعل الجزء الأخير منه في تراجم النساء.

وقد استفدت منه كثيراً في كافة فصول البحث، لأن الفترة التي أرخ لها تعتبر قمة

الإزدهار العلمي في الحرمين الشريفين.

وكتاب «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» من تصنيف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، ويقع في أربعة أجزاء، ويعد من الكتب المهمة، فهو يتضمن تراجم القرن الثامن الهجري من علماء ومحدثين وفقهاء ومؤرخين وسلاطين ووزراء وغيرهم، مرتبة أسماؤهم ترتيباً أبجدياً، وقد أخذ العسقلاني شطراً كبيراً من التراجم من مؤلفات المؤرخين الذين كانوا قبله، وقد أتى بتراجم كثير من النساء العالمات واشتغالهن بالتدريس والتحديث والتأليف، ولقد وجدت في هذا الكتاب معلومات مفيدة عن المدرسين المجاورين بالحرمين الشريفين ومعلومات أخرى عن العلوم والمؤلفات والإجازات العلمية.

ولابن حجر أيضاً كتاب «أنباء الغمر بأبناء العمر»، وقد خصصه للحوادث والوفيات التي وقعت في عصره منذ ولادته في سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م حتى سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م ، أي قبل وفاته بسنتين، ولقد ذكر مؤلف هذا الكتاب كل ما وقع خلال تلك الفترة من الحوادث المهمة في العالم الإسلامي مع التوسع في أخبار مصر والشام وما يجري فيها من شؤون ومحاكمات ومناقشات سياسية وإدارية وفقهية، وأخبار سائر الدول الإسلامية.

وله أيضاً كتاب «المجمع المؤسس للمعجم المفهرس» وهذا الكتاب حقق منه الجزء الأول، أما الجزء الثاني فلايزال مخطوطاً، وقد جعله ابن حجر لشيوخه الذين أخذ عنهم علم الحديث، وقد نقلت معظم المعلومات الخاصة بعلماء الحجاز ومجاوروه من الجزء المخطوط.

وهناك أيضاً كتاب «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» تصنيف عبدالحي ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، ويقع في ثمانية أجزاء، وقد رتبه على السنين من هجرة الرسول ﷺ حتى سنة ألف هجرية، وذكر فيه ما وقع من الحوادث، وتضمن تراجم الملوك والعلماء والأعيان والشخصيات البارزة من أهل الدين والسياسة والعلم والأدب، وقد أفادني هذا الكتاب في المعلومات المتعلقة بالعلماء والسلاطين وغيرهم، وكذلك دور

المرأة العلمي في الحجاز.

وكتاب «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» لمحمد بن علي الشوكاني (ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م)، فقد وجدت فيه معلومات نادرة عن مؤلفات علماء الحجاز ومجاوروه. وكتاب «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» لعبدالملك بن حسين العصامي (ت١١١١هـ/١٦٩٩م)، وكتاب «نظم العقيان في أعيان الأعيان» للسيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، وقد أورد كل منهما معلومات قيّمة عن الحركة العلمية في الحجاز بواسطة التراجم التي وردت في كتابيهما.

وكتاب «مرآة الجنان وعبرة اليقضان» لعبدالله بن أسعد بن علي اليافعي اليمني المكي (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، أرّخ فيها للأحداث والأعيان، وقد بدأه بالسنة الأولى للهجرة وختمه بنهاية سنة خمسين وسبعمائة من الهجرة، واستقينا منه المعلومات الخاصة بعلماء الحجاز وإنتاجهم العلمي.

سادساً: المصادر المتخصصة في فنون العلم:

يتصدرها كتاب «غاية النهاية في طبقات القراء» لمحمد بن محمد ابن الجزري (ت٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، العالم المشهور في علم القراءات، وهو أحد العلماء المجاورين في الحرم المكي، والذي مكنته حصيلته العلمية واجتماعه مع كثير من علماء القراءات في الحرمين الشريفين إلى إبرازهم في كتابه، حيث استفدنا بشكل كبير من التراجم التي أوردها لعلماء القراءات وحلقاتهم، وإنتاجهم العلمي في الحرمين الشريفين.

وكذلك كتاب «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، الذي ترجم فيه لعلماء اللغة والأدب بكافة فنونها، واستفدت منه في المبحث الخاص بالدراسات الأدبية واللغوية. وكتاب «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» للسخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)،وقد مدّ البحث بدراسات قيّمة للعلماء الذين شاركوا في التاليف في حقل العلوم الإجتماعية في هذا العصر، كما بيّن لنا بعض الكتب الموجودة في المكتبات في الحجاز في ذلك العصر.

وهناك أيضاً كتب الطبقات، خاصة «طبقات الشافعية» التي ألف فيها كل من السبكي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)، والأسنوي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م)، وابن قاضي شهبة

(٨٥١هـ/١٤٤٧م)، حيث أوردت هذه الكتب اتباع المذهب الشافعي ومؤلفاتهم ودورهم في الحرمين الشريفين.

وكتاب «تذكرة الحفاظ» للذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، وذيول تذكرة الحفاظ، خاصة «لحظ الالحاظ» للتقي بن فهد (ت٨٧١هـ/١٤٦٦م)، أحد أفراد أسرة ابن فهد المكية المشهورة والذي تضمن كتابه بعض علماء الحجاز ومؤلفاتهم في فنون المعرفة، خاصة علم الحديث.

سابعاً: كتب الرحلات:

ومن أهم هذه الكتب ، رحلة محمد بن أحمد بن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، المسماة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» ورحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» لمؤلفها أبي عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، وهذان الكتابان يعدان من المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها في دراسة الحياة الإقتصادية والإجتماعية والعلمية بمكة المكرمة، كما استفدت منهما في استقاء المعلومات عن المجاورين، وخزائن الكتب بالمسجد الحرام، والأربطة التي كانت معروفة في عصرهما.

كما تعتبر رحلة أبي القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، المسماة «مستفاد الرحلة والإغتراب» من المصادر المهمة لدراسة الحياة العلمية والعادات الإجتماعية بمكة المكرمة، وأورد لنا كثيراً من الشخصيات العلمية الذين قابلهم أثناء رحلته واعطانا معلومات عن الكتب التي تدرس في الحرم المكي الشريف.

وهناك أيضاً كتاب «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة» لأبي عبدالله محمد بن عمر بن رشيد (ت٧٢١هـ/١٣٢١م)، و «الرحلة المغربية» لأبي عبدالله محمد بن محمد العبدري، وقد استقينا منها معلومات قيّمة عن العادات الإجتماعية في المدينة المنورة، والحياة العلمية في الحرمين الشريفين.

وكتاب «صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ا لمسماه تأريخ المستبصر» لابن المجاور جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب الشيباني الدمشقي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م). وعلى الرغم من تقدم كتابه عن الفترة الزمنية لعصرنا، إلا أن

المعلومات التي ذكرها في الحياة الإقتصادية والإجتماعية لمكة ذكرها غيره من الرحالة الذين أتوا من بعده مما يعني أن الواقع الإجتماعي لم يتغير كثيراً، إضافة إلى وصف الحياة الإجتماعية في الطائف التي لم نجدها في أي مصدر من المصادر المعاصرة لتلك الفترة.

هذا بالإضافة إلى كثير من المعاجم الجغرافية ، مثل «معجم البلدان» لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، و «تقويم البلدان» لأبى الفدا (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، و «الروض المعطار» للحميري (ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، وغيرها من المصادر الجغرافية التي أفادت البحث في توضيح بعض الأماكن والمواقع الحجازية، وغيرها من البلدان الأخرى التي ينتسب إليها العلماء المجاورين في الحرمين الشريفين، والكتب الجغرافية الحجازية الحديثة التي ألفها عاتق بن غيث البلادي، وأعطانا معلومات معاصرة لتعريفات هذه الأماكن والآثار الحجازية.

أضف إلى ذلك المعاجم اللغوية، مثل «لسان العرب» لابن منظور (ت٧١١هـ/١٣١١م)، و «القاموس المحيط» للفيروز أبادي (ت٨١٧هـ/١٤١٤م)، و«المعجم الوسيط» الذي أنتجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وقد استقينا منها تعريفات عامة للمدارس، والأربطة وغيرها في ثنايا البحث.

كما أفاد البحث من كتب «مفتاح السعادة» لطاش كبرى زادة (ت٩٦٢هـ/١٥٥٤م)، و«المقدمة» لابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)، و«هدية العارفين» و«إيضاح المكنون» للبغدادي (ت١٣٣٩هـ/١٩٢٠م)، وهذه الكتب جميعها أفادتنا في دراسة الإنتاج العلمي بوجه عام.

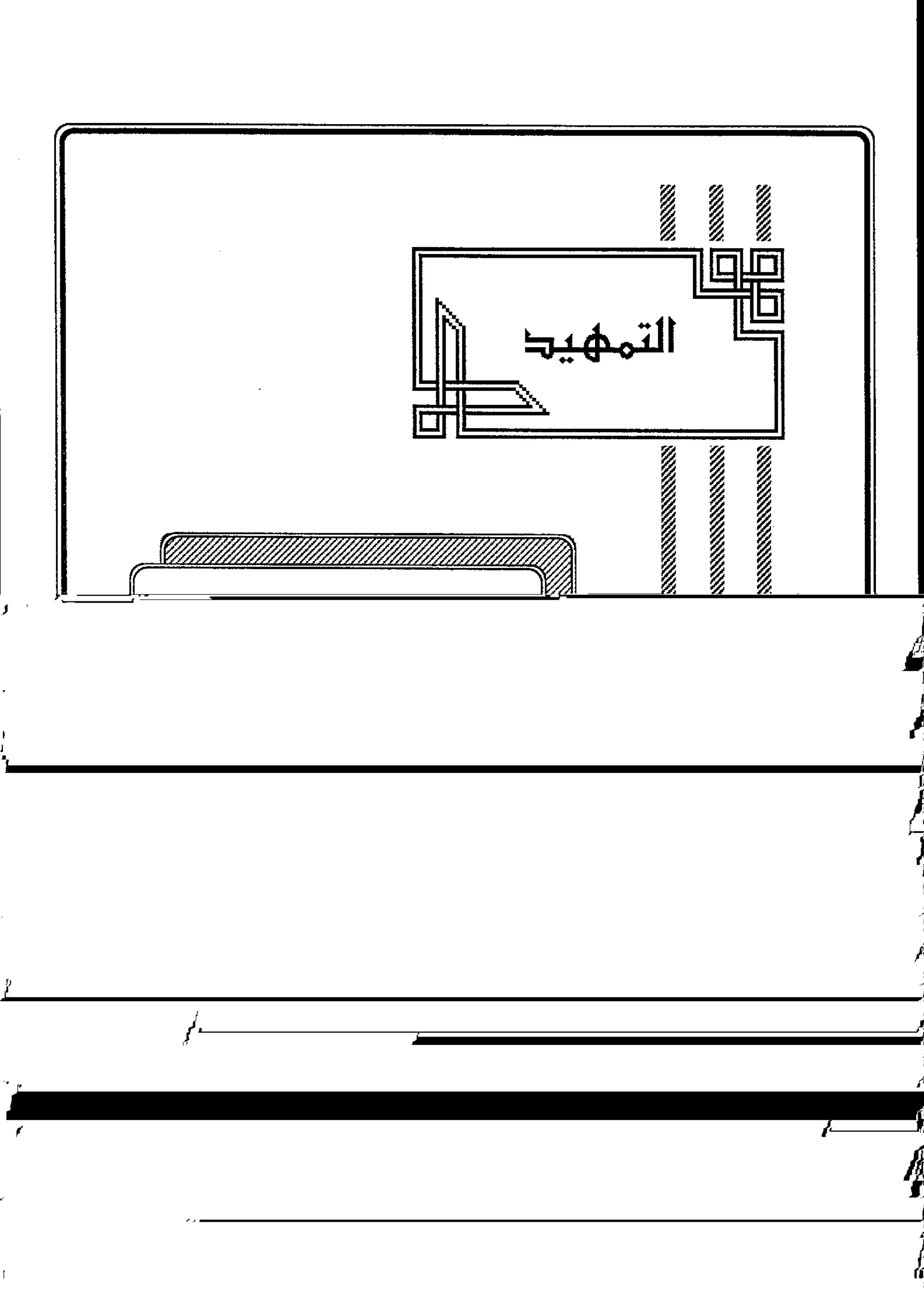
إضافة إلى فهارس المخطوطات، سواء ا لمطبوعة والمتداولة في المكتبات، أو الفهارس التي تضمها المكتبة المركزية، أو مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، والتي بيّنت لنا كثيراً مصير كتب علماء تلك الفترة في كافة فنون المعرفة.

كما لا أغفل في نهاية تحليلي لهذه المصادر أن أذكر مرجع هام، وهو كتاب

«العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك» لعلي بن حسين السليمان الذي كان بمثابة بوابة العبور والمفتاح الأول لمعرفة مصادر العصر المملوكي والحجازي لتلك الفترة، حيث يعتبر من أوائل من كتب عن الحياة العلمية في الحرمين الشريفين من خلال كتابه القيّم.

وبجانب ذلك اعتمد البحث على عدد كبير من المصادر والمراجع التي اسهمت مجتمعة في بناء البحث بالشكل الذي ظهر فيه، وجميع هذه المصادر جرى حصرها في الملحق الخاص بالمصادر والمراجع في آخر هذه الرسالة.

والله ولي التوفيق ،،،


التمهيد

أولاً : الحجاز ـ تحديده وأهميته:

أ - تحديد الحجاز:

الحجاز: بكسر الحاء في اللغة مأخوذ من (الحَجْز) وهو اسم للحاجز لغة وللبلد المعروف اصطلاحاً وسمي بذلك من الحجز. أي الفصل بين الشيئين.[(١)]

ويضيف البكري نقلاً عن الخليل بن أحمد[(٢)] أنه سمي حجازاً لأنه فصل بين

---

(١) البكري، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقاء، الطبعة الأولى (القاهرة، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م)، ج١/ص١٢، ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري: لسان العرب، الطبعة الأولى، (بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ج٥/ص ٣٣١.

(٢) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي: نحوي، لغوي، وهو أول من استخرج العروض، وحصن بها أشعار العرب توفي بالبصرة سنة ١٧٠هـ، وصنف كتباً منها: «العروض والشواهد»، «الإيقاع»، «الجمل»، «العين»، أنظر ترجمته في (ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست، (بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، بدون. ت)، ص٦٣ ـ ص٦٤، ياقوت، شهاب الدين أبي عبدالله الرومي الحموي: معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، الطبعة الأولى: (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ج٣/ص٣٠٠ ـ ص ٣٠٢، اليماني، عبدالباقي بن عبدالمجيد: إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق الدكتور عبدالمجيد دياب، الطبعة الأولى (الرياض، شركة الطباعة العربية السعودية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص١١٤، ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، (القاهرة، توزيع مكتبة ابن تيمية مصور عن طبعة دار الكتب المصرية، بدون. ت)، ج١/ص٣١١ ـ ص ٣١٢، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، بدون. ت)، ص٥٥٣ ـ ص ٥٥٩ .

الغَوْر[١] وبين الشام، وبين تهامة ونجد.[٢] والحجاز جبل ممتد حال بين الغَوْر: غور تهامة ونجد، فكأنه منع كل واحد منهما أن يختلط بالآخر، فهو حاجز بينهما.[٣]

ويتفق الأصمعي[٤] والقليوبي على هذه التسمية[٥]، بينما يرى الحميري: أنه سمي حجازاً لأنه حجز بين الغور والشام، وقيل لأنه حجز بين نجد والسراة[٦]، ويرى

---

(١) الغَوْر: بالفتح ثم السكون، المنخفض من الأرض، قال الأزهري: الغور تهامة وما يلي اليمن ـ ياقوت : معجم البلدان، (بيروت، دار صادر، بدون . ت) ج٤/ص٢١٧، والأصح أن تكون الغور «اليمن» فيكون الحجاز قد سمي كذلك لأنه يفصل بين اليمن والشام ـ (السيف، عبدالله محمد: الحياة الإقتصادية والإجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الطبعة الثالثة، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣)، ص٣٣.) .

(٢) معجم ما استعجم، ج٢، ص١٢.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ص٢١٨.

(٤) عبدالملك بن قريب بن عبدالملك الأصمعي ـ من مشاهير علماء اللغة والأدب والنحو والتاريخ، واختلف في تاريخ وفاته، والأرجح سنة ٢١٠هـ بالبصرة، وله الكثير من الكتب منها: «نوادر الاعراب» و «كتاب اللغات» و «المذكر والمؤنث»، (ابن النديم: الفهرست، ص٨٢، السيوطي: بغية الوعاة، ج٢/ص١١٢ ـ ص١١٤).

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ص٢١٩، القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه، محمد حسين شمس الدين، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ج٤/ص٢٥٢، القليوبي، أحمد بن أحمد بن سلامة: النبذة اللطيفة في بيان مقاصد الحجاز ومعالمه الشريفة، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ـ جامعة أم القرى، مكة، ميكروفيلم رقم ١٠٧٧ تاريخ عن دار الكتب المصرية برقم ٢٤٩٢، ورقة ٣أ.

(٦) الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق: إحسان عباس (بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٥م)، ص١٨٨، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٥٢.

الأزهري: أنه سمي حجازاً لأن الحرار[١] حالت بينه وبين عالية نجد.[٢]

ويكاد الجغرافيون يتفقون على أن الحجاز سمي حجازاً لأنه يفصل بين شيئين أو بين منطقتين ولكنهم يختلفون في التحديد الجغرافي للحجاز، وقد قدمت بحوث عديدة في محاولة لفهم التحديد الجغرافي للحجاز عند العرب من خلال ما كتبه الجغرافيون المسلمون في العصور المختلفة.[٣]

والناظر في هذه التعريفات يجد خلافاً شديداً بين مفهوم هؤلاء المؤلفين للحجاز، وفي تحديدهم لمناطقه، ويجد تناقضاً يصعب تفسيره، والسبب في ذلك يعود إلى اختلاف الحدود الإدارية لأقسام جزيرة العرب[٤]، وأن هؤلاء المؤلفين قد كتبوا في عصور مختلفة، فكان كل واحد منهم متأثراً بما يسود في عصره من تقسيمات إدارية تؤثر بالتالي على التعريف الجغرافي للمنطقة التي يكتب عنها.

---

(١) وهي الحرار الخمس : حرة بني سليم، حرة واقم، حرة النار، حرة شوران، وحرة ليلى (ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ص٢١٩، الفيروز آبادي، مجدالدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص٦٥٣.

(٢) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون وآخرين (القاهرة، ١٩٦٤م)، ج٤/ص١٢٢.

(٣) مثال ذلك ـ البحث الذي كتبه الدكتور صالح أحمد العلي بعنوان (تحديد الحجاز عند المتقدمين) في الجزء الأول من السنة الثالثة من (مجلة العرب) التي تصدرها دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض، وقد صدر هذا العدد سنة ١٣٨٨هـ، كذلك البحث الذي كتبه الدكتور عبدالله ناصر الوهيبي بعنوان: (الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب)، من المجلد الأول من السنة الأولى من مجلة كلية الأداب ـ جامعة الرياض سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).

(٤) صالح العلي: تحديد الحجاز عند المتقدمين، ج١/ص٢ ـ ص٤، عبدالله الوهيبي: الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب ، المجلد الأول، ص٥٥، عبدالله السيف: الحياة الإقتصادية والإجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، ص٣١.

فمن هذه الأقوال من جعل الحجاز هو الحاجز بين اليمن والشام وبين نجد وتهامة.[1] ومنهم من جعله الحاجز بين نجد وتهامة فقط، واعتبر مكة تهامية، والمدينة حجازية، والطائف حجازية[2]، وقيل : المدينة نجدية وقيل تهامية، وقيل نصفها نجد ونصفها تهام.[3]

وتذكر المصادر نقلاً عن ابن الكلبي في موضع آخر: الحجاز ما حجز بين اليمامة والعروض[4]، وفيما بين اليمن ونجد، فصارت نجد ما بين الحجاز إلى الشام وإلى العذيب[5]، والطائف من نجد، والمدينة من نجد.[6] ويقول الحربي: «والطائف تدخل في

---

(١) البكري: معجم ما استعجم، ج١/ص١٢، الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي: الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى، مكة، ميكروفيلم رقم ٧٢٧ تاريخ عن مكتبة المتحف العراقي ببغداد برقم ١٣٨٥، ورقة ٤، القليوبي: النبذة اللطيفة، ورقة ٣أ - ورقة ٣ب.

(٢) الأصفهاني، الحسن بن عبدالله: بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي (الرياض، دار اليمامة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص١٤، ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ص٢١٩، العباسي، أحمد بن عبدالمجيد: عمدة الأخبار في مدينة المختار، تصحيح: محمد الطيب الأنصاري، وحمد الجاسر، (المدينة المنورة، المكتبة العلمية، بدون ت)، ص٢٩٧، ابن خميس، عبدالله بن محمد: المجاز بين اليمامة والحجاز، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، بدون ت)، ص٣٢٨.

(٣) القليوبي: النبذة اللطيفة، ورقة ٣ب.

(٤) العروض: قرى بين الحجاز واليمن (ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص١٠٣).

(٥) العذيب: بفتح العين المهمله وضم الدال المعجمه وسكون الياء ثم باء موحده و هو ماء بين القادسية والمغيثة، وبينه وبين القادسية أربعة أميال، وإلى المغيثة اثنان وثلاثون ميلاً، وهو وادي لبني تميم ومنزل من منازل الحج العراقي (ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ ص ٩٢).

(٦) الحربي، إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الثانية، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص٥٣٧، البكري: معجم ما استعجم، ج١/ص١٠.

نجـد، لأن حدها مـا بين فـيـد[١] إلى المدينة، إلى أعــالي أرض تميم[٢]، والطائف منها».[٣]

وقد اختلف الجغرافيون في حدود الحجاز الجغرافية، ولكن أقدم من حددها ما قاله الشافعي، بأن الحجاز «مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها»[٤]، وكـذلك مـا روي عن الأصمعي: «الحجاز من تخوم[٥] صنعاء إلى تخوم الشـام».[٦] وأقـرب الآراء إلى التحديد الجغرافي للحجاز ما رواه الهمذاني عن ابن ا لكلبي الذي حدد الحجاز جنوباً

---

(١) فَيد: بفتح الفاء، بليدة بنجد على منتصف طريق حجاج العراق من الكوفة إلى مكة قريب من سلمى أحد جبال طيء، وبها يودع الحجاج بعض أمتعتهم، وتبعد عن الكوفة بمائة وتسعة فراسخ (أبي الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر: تقويم البلدان، (باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م)، ص٩٧ ـ وموقعها جنوب حائل، أنظر، البلادي، عاتق بن غيث: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، الطبعة الأولى، (مكة، دار مكة للطباعة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص٢٣٩ ـ ص٢٤٠.

(٢) نسبة إلى قبيلة تميم أشهر القبائل التي تسكن أرض نجد (كحالة، عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، الطبعة الثانية، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ج١/ص١٢٦.

(٣) المناسك، ص٥٣٧.

(٤) الفيروز آبادي : المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الأولى، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، ص١٠٢، القاموس المحيط، ص٦٥٣، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٥٠، السمهودي، نور الدين علي بن أحمد: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبدالمجيد، الطبعة الرابعة، (بيروت، دار التراث العربي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ج٤/ص١١٨٢، العباسي: عمدة الأخبار، ص٢٩٦.

(٥) التخوم: بالضم، الفصل بين الأرضين من العالم والحدود، وارضنا تتاخم أرضكم: أي تحادها (الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص١٣٩٩).

(٦) ياقوت: معجم البلدان،ج٢/ ص ٢١٩.

بقعرة[1] اليمن حتى أطراف بوادي الشام، أي أنه اعتبر الحجاز سلسلة جبال السروات بأكملها[2]، التي تمتد من أقصى جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها، تاركاً سهول تهامة الضيقة في الغرب، وهضبة نجد في الشرق، ويجب أن نتنبه لرواية الهمذاني، لأن بعض أقسام جبال السروات، وخاصة في جنوبها وشمالها لاتسمى حجازاً، بل أن الحجاز يقع وسط السلسلة من هذه الجبال[3]، كما أن اسم الحجاز يشمل في العرف تهامة أيضاً[4]، وبذلك يكون الحجاز هو المنطقة الممتدة من خط عرض ٢٠ْ شمالاً إلى خط عرض ٢٩ْ شمالاً.[5]

أما تحديد الحجاز الإداري الحديث فإنه لايختلف كثيراً عن التحديد الجغرافي في الكتب القديمة عند العرب، فقد حدده بعض المؤلفين بقوله: (يحدُّ الحجاز من الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق البادية الكبرى[6]، ومن الجنوب بلاد قبيلة بني مالك الكائنة بجبال

---

(١) قعرة: من قَعْرُ كل شيء: أقصاه، والمقصود هنا أقصى بلاد اليمن، (الفيروز آبادي: القاموس، ص٥٩٧).

(٢) صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص٥٨، البكري: معجم ما استعجم، ج١/ص٩، الوهيبي: الحجاز كما حدده الجغرافيون العرب، المجلد الأول، ص٦٧.

(٣) العلي: تحديد الحجاز عند المتقدمين، ج١/ص٥

(٤) الدباغ، مصطفى مراد: الجزيرة العربية، (بيروت، دار الطليعة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م)، ج١/ص٦٥، الشريف، أحمد إبراهيم: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، (القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٨م)، ص٣.

(٥) الدباغ: الجزيرة العربية، ج١/ص٦٥.

(٦) يعني نجد (ياقوت: معجم البلدان، ج١/ص٣١٨).

السروات المتاخمين لبلاد زهران[1]، وشمالاً بادية الشام إلى تبوك من الداخل، ومن جهة البحر الأحمر العقبة).[2]

ب - أهميته:

اكتسبت بلاد الحجاز مكانة دينية وسياسية منذ ظهور الإسلام وتأسيس الدولة الإسلامية الأولى[3]، وظلت البلاد محتفظة بمكانتها الدينية حتى اليوم وستبقى إن شاء الله إلى قيام الساعة .

فقد ظهرت في الحجاز بعض المدن التي ادت دوراً مهماً في التاريخ الإسلامي، وذلك باعتبارها مراكز دينية مثل مكة والمدينة أو مراكز تجارية مهمة مثل جدة وينبع المنفذين المهمين لتجارة الحجاز على البحر الأحمر، ومدينة الطائف وضواحيها التي كانت تعد مورداً تجارياً مهماً لغذاء أهل مكة وقراها من حبوب وفواكه وأمثالها.

ومكة المكرمة هي العاصمة الإسلامية وأقدم المدن التاريخية، وهي التي اعتبرت على مرّ الزمن عند العرب القاعدة الرئيسية لبلاد الحجاز على مر العصور، وهي في واقعها الحضاري والسياسي والإجتماعي قاعدة الحجاز وأم القرى.[4]

---

(١) زَهْران: بفتح أوله، وإسكان ثانية، بعد راء مهملة: بلد بالسراة، وفيه الجبل المعروف بذي كشاء، البكري : معجم ما استعجم ، ج١/ ص ٧٠٤ ، ج٢/ص١١٢٩).وتقع بلاد زهران في الجنوب الغربي من المملكة العربية السعودية في أواسط بلاد الحجاز وتهامة ، وتبعد عن مدينة الطائف ١٨٠ كم ، ويوجد بها حوالي ٥٠٠ قرية منتشره في كافة انحاء بلاد زهران ، ويسكنها نحو ٣٥٠ ألف نسمه تقريباً جميعهم من الحضر ، (الزهراني ، محمد مسفر حسين : لمحات من بلاد زهران ، الطبعة الأولى ، (نشر الرئاسة العامة لرعاية الشباب ، ١٤٠٣هـ) ، ص ١١) .

(٢) كحال ، عمر رضا : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص١٣١.

(٣) خفاجي، أحمد عبدالحميد: موقف مصر من الحجاز في عصر المماليك الجراكسة، (رسالة ماجستير، آداب الإسكندرية، ١٩٦٨م)،ص٢.

(٤) الأصفهاني: بلاد العرب، ص١٤، ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ص٢١٩، الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسن المكي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حققه لجنة من كبار العلماء والأدباء، ج١/ص٢٦، الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، (بغداد، ١٣١٤هـ)، ج١/ص٩٤.

ومكة تقع في بطن وادي مقدس يسمى باسمها[1]، وتحيط بها الجبال من كل جانب[2]، وبها الكعبة المشرفة مهد الديانات ومقصد العرب في الجاهلية وقبلة المسلمين بعد ذلك، يقول الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾[4]، ويقول تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[5] مما جعلها ينبوعاً حضارياً بقدوم الناس من كل مكان، والقاعدة الروحية لكل مسلم في أصقاع الأرض، وكانت مكة ولاتزال من أهم المراكز التجارية بالحجاز، ويعزى انتعاشها وازدهارها إلى وجود البيت الحرام، فضلاً عن وقوعها في منتصف الطريق بين الشام واليمن، وقربها من ميناء جدة على البحر الأحمر[6]، مما جعلها مسلكاً للتجار وأكسب أهلها أهمية تجارية منذ أقدم العصور.

---

(١) ابن جبير، أبو الحسين محمد ابن أحمد الكناني: رحلة ابن جبير، (بيروت، ١٩٦٤م)، ص٨٧، الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٢٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٨٧، الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٢٣، السباعي، أحمد: تاريخ مكة ـ دراسات في السياسة والعلم والإجتماع والعمران، الطبعة السادسة، (مكة، مطبوعات نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ج١/ص١٥، عبدالله، عبدالرحمن صالح: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (جدة، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م)، ص٢١.

(٣) سورة الحج، آية ٢٧.

(٤) سورة آل عمران، آية ٩٦ ـ آية ٩٧.

(٥) سورة إبراهيم، آية ٣٧.

(٦) الشريف، أحمد إبراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، (القاهرة، ١٩٦٥م)، ص١٩، خفاجي: موقف مصر من الحجاز في عصر المماليك الجراكسة، ص٣ ـ ص٤.

أما المدينة المنورة فإنها تحتل المكانة الثانية في نفوس العالم الإسلامي بعد مكة المكرمة، لأنه مهجر الرسول وبها مسجده ﷺ، وقد اختارها الله له عندما أخرجته قريش من مكة.(١)

وتقع المدينة إلى الشمال من مكة في الطريق إلى الشام، وهي على العكس من مكة التي عرفت بأنها تقع في وادٍ غير ذي زرع، فإن المدينة تقع في سهل خصيب يمتاز بوفرة المياه وكثرة النخيل والثمار الحسنة.(٢) ومن أهم آثار المدينة، المسجد النبوي الشريف، وبه قبر الرسول ﷺ، حيث أصبحت عاصمة الإسلام الأولى بعد قيام دولته في المدينة، ثم في عهد الثلاثة الأوائل من الخلفاء الراشدين، ولقد ورد في فضل المدينة المنورة على البلدان وقداستها الكثير من الروايات الصحيحة في الأحاديث الشريفة والكلمات المأثورة، عدا ما جاء في القرآن الكريم من إستشهادات وبيان لكرامتها.(٣) فأصبحت المدينة مزار المسلمين من كل أقطار الدنيا، خاصة حين قدومهم لأداء فريضة الحج.

أما جدة فهي متنفس أهل الحجاز للتجارة والرحلة إلى العالم لموقعها الإستراتيجي المهم، حيث تقع على ساحل البحر الأحمر، وهي مفتاح البحر لمكة.(٤)

وأول من اهتم بها في الإسلام هو الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٦هـ/٦٤٦م بعد أن شاور الناس في ذلك، إذ كانت الشعيبة(٥) ساحل مكة

---

(١) السمهودي: وفاء الوفا، ج١/ص٢٢٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢/ص٢٩٢ ـ ص ٢٩٤.

(٣) حافظ، عبدالسلام هاشم: المدينة المنورة في التاريخ ـ دراسة شاملة ـ الطبعة الثالثة، (المدينة، منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص٣٤.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، ج٢/ص١١٤، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٦٣.

(٥) الشعيبة: تصغير شعبة، وهو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وقال ابن السكيت: الشعيبة قرية على شاطيء البحر على طريق اليمن، (ياقوت: معجم البلدان، ج٣/ص٣٥١) وهي على بعد ٦٨ كيلو متراً جنوب جدة، (رفعت، إبراهيم: مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، (القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ/١٩٤٥م)، ج١/ص٢٣، البلادي: معجم معالم الحجاز، ج ٥/ص ٧٤.

التجاري قبل الإسلام[١]، ومنذ ذلك التاريخ وجدة ميناء أم القرى، تنتهي إليها المراكب من مصر واليمن وغيرهما.[٢] واستمرت جدة في النمو شيئاً فشيئاً تبعاً لزيادة دخلها بزيادة عدد الحجاج وقوة الحركة التجارية التي تقوم فيها في مواسم الحج، ثم بدأ التجار يأتون إليها بعد نزولهم بعدن[٣]، فيمرون بها في طريقهم إلى مكة، ويقيمون في خاناتها[٤]، ويتجرون في أسواقها، ويتهيأون منها لدخول البيت الحرام، وسرعان ما أصبحت جدة ليست ميناء مكة فقط بل ميناء الحجاز كله.[٥]

---

(١) ابن المجاور، جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب الشيباني الدمشقي: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماه تأريخ المستبصر، تصحيح، أوسكر لوفقرين، الطبعة الثانية، (بيروت، شركة دار التنوير للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ص٤٢ - ص٤٣، ياقوت: معجم البلدان، ج٣/ص٣٥١، رفعت: مرآة الحرمين، ج١/ص٢٣ ـ ص٢٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/٢٦٣ .

(٣) عدن: بفتح العين والدال المهملتين ونون: وهي على ساحل البحر، بلدة حط وإقلاع لمراكب الهند وهي بلدة تجارية، (أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٩٣)، وأنظر كذلك ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص٨٩.

(٤) الخان: كلمة فارسية أصلها خانة وتعني البيت أو الدار ثم استعملت اللفظة بكثرة في مصر والشام ومعظم البلاد الإسلامية الشرقية، ذكرها المؤرخون في عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك، والخان عبارة عن مبنى ضخم يحتوي على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ومستودعات للبضائع، ويتوسط الخان فناء ضخم على هيئة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم ويجدون في الخان المأوى لهم ولدوابهم، (فهمي، نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها أواخر العصور الوسطى، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص٢٩٣، القوصي، عطية: تجارة مصر في البحر الأحمر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، (القاهرة، دار النهضة العربية، بدون ت)، ص١٩٧، حسنين، عبدالمنعم محمد، قاموس الفارسية، (الطبعة الأولى ، دار الكتب الإسلامية، ، ١٤٠٢هـ،) ص٢١٣.

(٥) الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راويس (باريس، المطبعة الجمهورية، ١٨٩٤م)، ص١٣، ربيع، حسنين محمد: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الإقتصادي، الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الرياض، كلية الآداب، قسم التاريخ، سنة ١٩٧٧م (الرياض، مطابع جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ج٢/ص١٣٥.

أما الطائف فهي من أقدم مدن الحجاز وأقربها إلى مكة، وتقع في جبال السروات فوق جبل غزوان.[1] وقد اشتهرت بطيب هوائها وبرد مائها[2]، لذلك اتخذها أهل مكة ملجأً ومصيفاً لهم يستمتعون به[3]. كما أمتازت الطائف بتنوع محاصيلها الزراعية ووفرة انتاجها التي تفيض عن حاجة السكان المحليين، ونتيجة لذلك، فقد أصبحت الطائف المورد الرئيسي لأسواق مكة بكل ما تحتاجه من فواكه وخضروات.[4]

لذلك كان الكثير من عرب البوادي يغبطون أهلها على ما هم فيه من نعيم.[5] ومن أشهر أودية الطائف وادي وَجّ [6] الذي ورد ذكره من خلال بعض الأحاديث في حصار

---

(١) غَزْوان: بالفتح ثم السكون، وهو الجبل الذي على ظهره مدينة الطائف، (ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص٢٠٢).

(٢) ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص٩، ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٥، الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ ص ٨٩، جار الله ابن فهد، محمد بن عبدالعزيز بن عمر: حسن القرى في أودية أم القرى، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة، ميكروفيلم رقم ١٠٧٠، تاريخ عن مكتبة الأحقاف باليمن برقم ٩٨ مجاميع، ورقة ١٩.

(٣) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله: المسالك والممالك، (بغداد، مكتبة المثنى، بدون ت)ص ١٣٤.

(٤)الاصطخري: إبراهيم بن محمد: المسالك والممالك، (القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦١م)، ص٢٧٤، ابن حوقل، أبو القاسم محمد: صورة الأرض، (بيروت، دار مكتبة الحياة، بدون ت)، ص٣٩، المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله بن أحمد بن بكر: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ليدن، ١٩٠٦م)، ص٧٩، ابن جبير: الرحلة، ص١٢٢، ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص١١.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص١١.

(٦) وَجّ: بالفتح ثم التشديد، والوج في اللغة: عيدان يتداوى بها، وله عدة معانٍ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: إن آخر وطأة لله يوم وج: وهو الطائف وأراد بالوطأة الغزاة هنا، وكانت غزاة الطائف آخر غزوات الرسول ﷺ، وقيل سميت وجاً بوج بن عبدالحق من العمالقة ... (ياقوت: معجم البلدان، ج٥/ص٣٦١ - ص٣٦٢)، وذكر البلادي: ووج وادي الطائف الرئيسي يسيل من شعاف السراة جنوب غرب الطائف (معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص٢٣١).

الرسول ﷺ للطائف[1]، ولم تكن جدة هي ميناء الحجاز الوحيد، بل كان هناك ميناء آخر وهو ينبع يقع على ساحل البحر الأحمر[2]، بين مكة والمدينة، وقد سميت بذلك لكثرة ينابيعها، وقد ذكرت وثائق الجنيزة[3] على أنها كانت من أهم الموانيء التجارية على البحر الأحمر[4]، بالإضافة إلى أنها كانت قريبة من طريق الحاج الشامي.[5]

وهكذا تتضح لنا أهمية الحجاز وموقعها الإستراتيجي المهم من خلال هذه المدن، وبالتالي أهميتها لدى الملوك والسلاطين الذين تعاقبوا على الإهتمام بهذه المنطقة والسيطرة عليها، إلى أن جاء عصر المماليك الذين اعتبروا أنفسهم بأن لهم الأحقية في أن

---

(١) ابن حنبل، أحمد: المسند، تحقيق أحمد شاكر، (مصر، دار المعارف، ١٣٧٤هـ)، ج١/ص١٦٥، أبو داود، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود مع حاشية عون المعبود، (بيروت، دار الكتاب العربي، بدون ت)، ص٩٣، ابن فهد: جار الله محمد بن عبدالعزيز: تحفة اللطائف في فضائل الحبر بن عباس والطائف، تحقيق محمد سعيد كمال، محمد منصور الشقحاء، الطبعة الأولى، (الطائف، نادي الطائف الأدبي، بدون ت)، ص٤١، العجيمي، حسن بن علي بن يحيى: إهداء اللطائف من أخبار الطائف، تحقيق يحيى محمود ساعاتي، الطبعة الثانية، (الطائف، دار ثقيف، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٤٤.

(٢) السليمان، علي بن حسين: «العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك»، (رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص١٨٩.

(٣) الجنيزة: كلمة عبرية *Geniza* ـ مثل الكلمة العربية جنازة ـ مشتقة من الكلمة الفارسية بمعنى (خزانة) ـ وفي العصور الوسطى اطلقت على تلك الحجرة التي كان اليهود يخزنون فيها أوراقهم الخاصة من خطابات وعقود وإيصالات وخلافه، وهي مجموعة من الوثائق المهمة لدراسة التاريخ الإقتصادي والإجتماعي والثقافي لمنطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى، (ربيع: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الإقتصادي لموانيء الحجاز واليمن في العصور الوسطى، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢/ص١٣١ ـ ص١٣٢.

(٤) ربيع: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الإقتصادي لموانيء الحجاز في العصور الوسطى، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج٢/ص١٣٥.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج٥/ص٤٥٠.

يكونوا حماة ورعاة لشئون الحرمين الشريفين، خاصة وأنهم هم الذين وقفوا في وجه الزحف المغولي، ولاشك أن السيطرة على هذه المنطقة تكسبهم الصفة الشرعية لإحياء الخلافة العباسية[١] ، وأن يظهروا أمام المسلمين في المشرق والمغرب بمظهر المدافعين والحماة عن الأراضي المقدسة.

ومن الأسباب المهمة التي دعت المماليك إلى السيطرة على هذه المنطقة، رغبتهم الجادة في السيطرة على طريق التجارة عبر موانيء البحر الأحمر، وخاصة موانيء الحجاز المجاورة لبلاد اليمن المتحكمة في مدخل البحر الأحمر حيث كان بها عدن أهم مركز تجاري، وذلك رغبة في دفع تجار الشرق إلى جلب بضاعتهم إلى هذه الموانيء فيجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة، ومن ثم استتباع الحجاز والإشراف على اليمن[٢] ، حيث كان بنو رسول[٣] يسيطرون على اليمن منذ عام (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) والإستيلاء على الحجاز

---

(١) وذلك حينما وصل الخليفة العباسي المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الظاهر محمد بن الناصر العباسي إلى مصر في سنة ٦٥٩هـ في عهد الظاهر بيبرس سلطان مصر واستقبله وبايعه بالخلافة، وانتقلت الخلافة العباسية من بغداد إلى مصر بعد اجتياح التتار بغداد سنة ٦٥٦هـ وقتل الخليفة المستعصم بالله، (ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، تحقيق، أحمد أبو ملحم وعلي نجيب عطوى وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين وعلي عبدالساتر، الطبعة الأولى، (القاهرة، دار البيان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج١٣/ص٢٤٤ ـ ص٢٤٥.

(٢) العمري، ابن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق، دوروتيا كرافولسكي، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ج٢/ص٤٢، عاشور، سعيد عبدالفتاح: العصر المماليكي في مصر والشام، (القاهرة، ١٩٦٥)،ص٢٨٧.

(٣) بنو رسول: يرجع نسبهم إلى جدهم الأكبر محمد بن هارون بن أبي الفتح، وأما سبب تكنيته برسول فترجع إلى أن الخليفة العباسي آنس فيه رشداً وعقلاً فاختصه لسفارته إلى السلاطين في مصر والشام لأنه كان يتمتع بصفات شخصية ممتازة، كالوقار وثبات العقل ... مما أكسبه ثقة الخليفة العباسي، فقد كان الخليفة يرسله برسالة شفهية ويتلقى الإجابة عنه مشافهة، وهذا يدل على الثقة فيه، وقد حكم بنو رسول اليمن من سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٠م حتى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م يحيى بن الحسين، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد: غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، محمد مصطفى زيادة، (القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ج١/ص٤١٩.

يعني السيطرة على طريق التجارة الدولية عبر البحر الأحمر عن طريق ميناء عدن، ومن هناك عبر البحر الأحمر إلى أفريقية، وفارس، والهند، وأندونسيا والصين.[١]

وقد ساعد على تثبيت دعائم المماليك في الحجاز عدة أمور ضمنت لهم السيطرة الفعلية على هذه المنطقة منها:

١ ـ إرسال الحاميات إلى الحجاز، لكي تضمن الإتصال السريع بين القاهرة والحجاز عندما كانت الأحوال تنذر بحركات معادية للمماليك في البلاد، أو عند الإحساس بانتفاض الأشراف على السلطة المملوكية.[٢]

٢ ـ جذب أمراء الأشراف إلى جانبهم لكونهم الحكام الفعليين للحجاز، واستغلال الخلافات المستمرة بينهم للتدخل.

٣ ـ إقامة الخطبة والدعاء لهم على المنابر في الحرمين الشريفين.

٤ ـ قيام كثير من سلاطين المماليك بالإصلاحات والعمائر في الحرمين الشريفين لتأكيد اهتمامهم بها.

٥ ـ إرسال كسوة الكعبة المشرفة سنوياً[٣]، وكسوة الحجرة النبوية الشريفة كل سبع سنوات تقريباً.[٤]

٦ ـ ضرب السكة باسمهم.[٥]

---

(١) العمري: مسالك الأبصار، ج٢/ص٤٢.

(٢) خفاجي: موقف مصر من الحجاز في عصر المماليك الجراكسة، ص١٧.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص١٢٣ ـ ص١٢٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٣٠٦، وفي سلطنة الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٣هـ ـ ٧٤٦هـ) كانت كسوة الحجرة النبوية كل خمس سنوات، (الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص١٢٣).

(٥) الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد الحسني، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق، محمد حامد الفقي، فؤاد سيد، محمود محمد الطناحي، الطبعة الثانية، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)،ج١/ص٤٦٢ ـ ص٤٦٣، العمري: مسالك الأبصار، ج٢/ص٤٢.

ثانياً: الحياة العامة في الحجاز من النواحي السياسية والإجتماعية والإقتصادية:

أ ـ الحياة السياسية:

لم يشهد الحجاز استقراراً سياسياً خلال القرنين السابع والثامن الهجري، حيث اشتعلت الفتن والنزاعات بين الأشراف بشكل كبير، والناظر إلى عدد الأمراء الذين تولوا إمارة الحجاز يدرك مدى تدهور الوضع السياسي في تلك الحقبة.(١)

وقد ساعدت هذه الظروف في التدخل المملوكي في الحجاز حينما قام السلطان المملوكي بيبرس(٢) بفض النزاع القائم بين الشريف أبي نمي(٣) وعمه إدريس بن

---

(١) أنظرأمثلة على الحروب بين الأشراف في حوادث سنوات (٦٥١هـ/١٢٥٣م)، (٦٥٢هـ/١٢٥٤م)، (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، (٦٦٧هـ/١٢٦٨م)، (٦٦٩هـ/١٢٧٠م)، (٦٧٠هـ/١٢٧١م)، (٧٠١هـ/١٣٠١م)، (٧٣١هـ/١٣٣٠م)، (٧٥١هـ/١٣٥٠م)، (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)، (٧٥٦هـ/١٣٥٥م)، (٧٦١هـ/١٣٥٩م)، وغيرها، النجم بن فهد، عمر بن محمد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى(جدة، دار المدني، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ج٣.

(٢) هو الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس بن عبدالله البندقداري الصالحي التركي، وهو الرابع من ملوك الترك، ونسبه هذا إلى الأمير علاء الدين ايدكين البندرقداري، الذي اشتراه، وكانت وظيفته حمل أكياس البندق الذي يرمي به، والسير به خلف السلطان أو الأمير، ثم انتقلت ملكيته إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاعتقه وقدمه على طائفة الجمدارية، وكان في جيش المظفر قطز حين هزم التتار بموقعة عين جالوت، وفي عودتهم منتصرين تآمر مع بعض الأمراء على قتل ا لمظفر قطز، فقتلوه، وأعلنوا سلطنة الظاهر بيبرس في سادس عشر ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ، التاسع من سبتمبر سنة ١٢٦٠م، واستمرت سلطنته حتى وفاته سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م بدمشق (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ص٩٤ ـ ص٢٠٠).

(٣) محمد بن الحسن بن علي بن قتادة ابن إدريس بن مطاعن الحسني، أبو نمي، من أشهر أمراء مكة، وتولى أمرها قرابة خمسين عاماً، وكانت فترة حكمه مليئة بالحروب والفتن، كما تخللها كذلك فترات أمن وهدوء واستقرار، وعرف بالشجاعة والحزم، توفي سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م)، (الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص٤٥٦ ـ ص٤٦٦، ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، (بيروت: دار الجيل، بدون ت)، ج٣/ص٤٢٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨/ص١٩٩، النجم ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٣٤.

قتادة[١] أميري مكة سنة (٦٦٧هـ/١٢٢٨م)، وقد تمكن أبو نمي من طرد عمه إدريس لأن الأخير كان يميل إلى الرسوليين في اليمن، فأنفرد أبو نمي بإمارة البلاد، وخطب للملك الظاهر بيبرس.[٢]

وبذلك ازداد نفوذ المماليك في مكة على حساب نفوذ بني رسول، وانفردوا بالدعاء لهم على منبر الحرم المكي الشريف، ومع ذلك فقد تخللها فترات عصيان من أشراف مكة، أعيد فيها الدعاء لملك اليمن المظفر شمس الدين يوسف[٣]، وذلك سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م[٤] على الرغم من أن سلطان مصر المنصور قلاوون[٥] قد استحلف أبا نمي سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م بأن يكون عدواً لمن عاداهم وصديقاً لمن صادقهم، ولايخرج عن طاعتهم وأن يفردهم بالخطبة والسكة، ويفعل في الخدمة فعل المخلص.[٦]

---

(١) إدريس بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني، اشترك مع ابن أخيه أبو نمى في حكم مكة وقامت بينهما عدة حروب، انتهت بمقتله سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م)، (الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٢٧٨ ـ ص٢٧٩، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٩٩).

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص٤٥٩، المقريزي، أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، سعيد عبدالفتاح عاشور، (القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٢م)، ج١/٢: ص٥٧٩، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٩٣.

(٣) يوسف بن عمر بن علي بن رسول الملك المظفر، صاحب اليمن، ولي السلطنة بعد أبيه، سيطر على مكة والطائف وغيرها سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م وأخرج منها سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م وكسى الكعبة، وله مآثر كثيرة بالحجاز، وكانت مدة سلطنته ستاً وأربعين سنة، وتوفي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م (الفاسي: العقد الثمين، ج٧/ ص٤٨٨ ـ ص٤٨٩).

(٤) المقريزي: السلوك، ج١/٣: ص٧٨٦.

(٥) الملك المنصور سيف الدين قلاوون بن عبدالله الألفي التركي الصالح النجمي، سابع ملوك الترك بالديار المصرية، تولى الملك في رجب سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وكان على يديه فتح معظم حصون الصليبيين في البلاد الشامية، وطبقت انتصاراته عليهم الآفاق، ومرض عند خروجه للغزو من القاهرة، ومات في مخيّمه عند مسجد التبن في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ص٢٩٢ ـ ص ٣٤٤).

(٦) أنظر نص اليمين التي أقسمها أبونمى (الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص٤٦٢ ـ ص ٤٦٣).

وكان لإبنه الناصر محمد بن قلاوون[١] من نفوذ الكلمة بمكة و استبداده بأمر الولاية فيما لم يكن لمن قبله من ملوك الترك بمصر[٢]، حيث كان يعمد إلى إصلاح الأمر بالمال والمداراة حيناً، وإلى فرض سيطرته بالقوة وإرسال الحملات حيناً آخر.

وفي عهده توفي أبو نمي وخلفه أربعة أبناء تنازعوا الأمر بعده، وهم أبو المغيث[٣]، وعطيفة[٤]، وحميضة[٥]، ورميثة.[٦] ودام نزاعهم ستة وثلاثين عاماً منـــــــذ

---

(١) السلطان الناصر محمد بن المنصور بن قلاوون، ولد بالقاهرة سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، وتولى السلطنة ثلاث مرات الأولى في سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م بعد قتل أخيه الأشرف خليل، ثم خلع في المحرم سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م وعمره نحو العشر سنين، والثانية في سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، ثم عزل نفسه واستقر بقلعة الكرك في شوال سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، وهزم إبان توليته هذه جحافل التتار هزيمة منكرة على تل شقحب بالشام، والثالثة سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م حينما قدم من دمشق واسترد ملكه من المظفر بيبرس الجاشنكير، وتوفي سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج٨/ص٤١ حتى نهاية الجزء، ثم الجزء التاسع كله).

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص١٩١.

(٣) أبو المغيث بن أبي نمي، يلقب عماد الدين، ولي أمر مكة في سنوات متفرقة، وانهزم أمام أخيه حميضة سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م (ن.م.س، ج٨/ص٧٩ ـ ص٨٠).

(٤) عطيفة بن أبي نمي، يلقب سيف الدين، ولي أمر مكة نحو خمس عشر سنة مستقلاً بها وفي بعضها، وشريكاً لأخيه رميثة في بعضها، وكان موصوفاً بالشجاعة المفرطة، قدم القاهرة، وألزم بالإقامة بها حتى توفي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م (الفاسي : العقد الثمين ، ج٦/ص٩٥ ـ ص١٠٠).

(٥) حميضة بن أبي نمي، يلقب عزالدين، ولي أمر مكة إحدى عشرة سنة ونصف سنة أو أزيد في أربع مرات، منهما مرتان شريكاً لأخيه رميثة، ومرتان مستقلاً بها، وقتل سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، (ن.م.س، ج٤/ص٢٣٢ ـ ص٢٤٥).

(٦) رميثة بن أبي نمي، يكنى أبا عرادة، ويلقب أسد الدين، ولي أمر مكة ثلاثين سنة أو أكثر في سبع مرات، مستقلاً بذلك أربع عشرة سنة ونصف، وشريكاً لأخيه حميضة مرتين منهما، مجمولها نحو عشر سنين، وشريكاً لعطيفة خمس سنين وأزيد، توفي سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص٤٠٣ ـ ص٤١٧، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢/ص١١١).

سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م[١] حتى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، حيث خلص الأمر إلى رميثة الذي اعتزل الحكم سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م[٢] وسلم الأمر لولديه عجلان[٣] وثقبة[٤] اللذين تبادلا الإمارة حتى سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م حيث دب الصراع والمنافسة بينهما[٥]، فاستعان عجلان بمصر[٦]، بينما استنجد ثقبة باليمن[٧]، وظل الصراع بينهما مستمراً حتى وفاة ثقبة في سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م[٨] فأنفرد عجلان وابنه أحمد[٩] بالأمر بعد موافقة سلطان

---

(١) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٣٢.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص٤١٦.

(٣) عجلان بن رميثة بن أبي نمى، ولي أمر مكة نحو ثلاثين سنة، مستقلاً بها مدة، وشريكاً لأخيه ثقبة مدة أخرى، وشريكاً لإبنه أحمد مدة، وكان مكرماً لأهل السنة ذا عقل مستنير ورأي ودهاء، وتوفي سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٥م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٦/ص٥٨ ـ ص٧١، العز بن فهد، عبدالعزيز بن عمر: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم شلتوت، مطبوعات مركزالبحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، الطبعة الأولى، (مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، ج٢، ص٥٨ ـ ص٧١.

(٤) ثقبة بن رميثة بن أبي نمى، يلقب أسد الدين، ولي أمر مكة عدة سنين، وكانت له عدة مواقف سيئة مع أمراء الحج والجلاب في جدة، وكان كثير الرعاية للزيدية، موصوفاً بالكرم والشجاعة، وتوفي سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م بالجديد (الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٣٩٥ ـ ص٣٩٩).

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٤١.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٣٩٦، ج٦/ص٦٢، المقريزي: السلوك، ج٢/٣:ص٨٢٠.

(٧) الخزرجي، علي بن الحسن: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق، محمد بسيوني عسل، (مصر، مطبعة الهلال، ١٣٢٩هـ/١٩١١م)، ج٢/ص٨٤، المقريزي، أحمد بن علي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق، جمال الدين الشيال، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥م)، ص١١٤، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠/ص٢٢٦.

(٨) الفاسي: العقد الثمين، ج٦/ص٦٧ ـ ص٦٨، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٩١.

(٩) أحمد بن عجلان بن رميثة، يلقب شهاب الدين، ولي أمر مكة شريكاً لأبيه ومستقلاً بها، ثم شريكاً لإبنه محمد، ستاً وعشرين سنة، وكان أعدل الأمراء وأحسنهم، مكرماً للتجار، محبوباً من السلاطين والأمراء من خارج الحجاز، توفي سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م وأسف الناس على وفاته، (الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٨٧ ـ ص ٩٧).

المماليك حتى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، وفي تلك السنة اعتزل عجلان الحكم، وتنازل عنه لابنه أحمد مقابل مبلغ من المال وأن يبقى اسمه في الخطبة.[١] فوافق السلطان المملوكي شعبان[٢] على هذا التغيير[٣]، حرصاً على السلام وازدهار التجارة وتشجيعها في البحر الأحمر، وظل حاكماً حتى وفاته سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م.[٤]

وهكذا شَغُل أبو نمي ثم أولاده من بعده سلاطين مصر في خلافاتهم، مما جعلهم يرجحون كفة أمير على آخر، وبذلك ازداد ضعف نفوذ الرسوليين، وانقطع محملهم نحو ٦٠ سنة إلى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م[٥]، ثم عاد وانقطع من سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م إلى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م.[٦]

وقد شهدت مكة استقراراً سياسياً خلال القرن التاسع، وبداية القرن العاشر الهجريين في عهد حسن بن عجلان[٧]، الذي اتبع سياسة حذره مع دولة المماليك، إذ

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٩٠، ج٦/ص١٦٩، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣١٨.

(٢) هو الملك الأشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولي السلطنة بمصر سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، واستمرت سلطنته حتى قتل سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م (المقريزي: السلوك، ج٣/١: ص٨٣ ـ ص٢٨٢).

(٣) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٢٠.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص٢٠٦، الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج٢/ص١٨٧.

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٣٢، وقد ذكر ابن فهد أن انقطاعه دام ٨٠ عاماً، بينما يذكر في حوادث سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م قدوم المحمل اليمني، ج٣/ص١٧٠، الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص٢٤٤.

(٦) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٤٠٨.

(٧) حسن بن عجلان بن رميثة، يلقب بدر الدين، ولد سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م بمكة ونشأ بها وتولى أمرها سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م، ويعد من أفاضل الأمراء الذين تولوا أمر مكة، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٢٩هـ/١٤٣٥م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٢/ص٨٦ ـ ص١٥٦، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٩٥، العز بن فهد: غاية المرام، ج٢/ص٣٥٤، السخاوي: محمد بن عبدالرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، بدون ت)، ج٣/ص١٠٣ ـ ص١٠٤.

أيقن أن السلطان الناصر فرج بن برقوق[(١)] لم يكن أقل حرصاً ممن سبقه على استمرار السيطرة المملوكية على الحجاز[(٢)]، وقد بلغ من الجاه والقوة أن حاول غزو اليمن سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م[(٣)]، وكذلك شهدت مكة استقراراً نسبياً أيضاً في عهد أولاده من بعده، وخاصة إبنه بركات[(٤)] الذي تمتعت مكة في أيامه بالطمأنينة والرخاء والأمن.[(٥)]

---

(١) الناصر فرج بن الظاهر برقوق، تولى السلطنة في صبيحة وفاة والده، وذلك سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، وقتل في سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، (المقريزي: السلوك، ج٣/٣: ص٩٥٩، ج٤/١: ص٣ - ص٢٢٨، ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم شلتوت، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، (مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ج٢/ص٥٢٠، السخاوي: الضوء اللامع، ج٦/ص١٦٨).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨٠.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص١٠٦ - ص١٠٧، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٤٦٩، الجزيري، عبدالقادر بن محمد: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، أعده للنشر حمد الجاسر، (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ج١/ص٦٩٠ - ص ٦٩١.

(٤) بركات بن حسن بن عجلان، ولد سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، ولي أمر مكة من غير شريك بعد والده ستاً وعشرين سنة، وفي حياته بتخليتها له نحو أربع سنين أو خمس، وفي بعضها شاركه أخوه إبراهيم وشريكاً لأخيه أحمد نحو ثمان سنين، وكان سياسياً، شجاعاً، عارفاً بالأمور، ذا ثروة، وله مآثر كثيرة بمكة، وتوفي سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م، أنظرمصادر ترجمته في (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥/ص٣٧٩، النجم بن فهد، عمر بن محمد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق عبدالكريم الباز، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، الطبعة الأولى، (مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج٤/ص٢٧٢، السخاوي، محمد بن عبدالرحمن: التبر المسبوك في ذيل السلوك، (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، بدون ت)، ص١٨٤.

(٥) السخاوي : الضوء اللامع، ج٣/ص١٣.

ثم حفيده محمد بن بركات[1] الذي استقر في حكم مكة قرابة ٤٤ عاماً من سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٤م إلى سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م وهي أطول فترة تولاها أمير مكة بمفرده دون انقطاع، ولم يحدث فيها اضطرابات ولا عزل، وهذه الفترة تعتبر فترة استقرار ذهبية للحالة السياسية في مكة، بعد أن كانت تروعها كثرة الخلافات بين الأمراء.

وفي عهده دخلت معظم بلاد الحجاز تحت حكمه بسبب الحملات[2] التي كان يقوم بها بين حين وآخر، مما جعل السلطان قايتباي[3] يمنحه أحقية توليه جميع المناصب في الحجاز في أوائل سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م.[4]

---

(١) محمد بركات بن حسن بن عجلان، ولد سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م، ويعد من أشهر الأمراء الذي تولوا أمر مكة، واتصف بالأدب والتواضع والعقل والفهم، توفي سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م، النجم بن فهد، عمر بن محمد، الدر الكمين بذيل العقد الثمين، في تاريخ البلد الأمين، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ميكروفيلم رقم ٢٥١، تاريخ عن مخطوط مكتبة رضا أمبور بالهند رقم ٣٦١٣، ورقة ١٩ب، العز بن فهد: غاية المرام، ج٢/ص٥٠٦، السخاوي: الضوء اللامع، ج٧/ص١٥٤.

(٢) النجم بن فهد: الدر ا لكمين، ورقة ١٩ب ـ ورقة ٢٠أ.

(٣) قايتباي المحمودي الأشرفي الظاهري، مكث في الحكم قرابة ثلاثين عاماً، وترتيبه الحادي والأربعون من ملوك الترك، ولد سنة بضع وعشرين وثمانمائة، قدم مع تاجر اسمه محمد بن رستم في سنة ٨٣٩هـ فاشتراه الأشرف برسباي، ثم صار إلى الملك الظاهر، فاعتقه، واستمر يترقى من مرتبة إلى مرتبة، وتولى الحكم سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، وتوفي سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م، وله الكثيرمن المآثر بالحرمين، (العيدروسي، محي الدين عبدالقادر بن شيخ: تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص١٥ ـ ص ١٦.

(٤) العز بن فهد، عبدالعزيز بن عمر،: بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ميكروفيلم رقم (٧٣) تاريخ عن مخطوط مكتبة الحرم المكي، رقم (١) تاريخ، ورقة ١٠ب، غاية المرام، ج٢/ص٥٣٨.

وبما أن الصراع على الولاية في الحرمين الشريفين كان يتجدد بين حين وآخر طيلة فترة دراستنا، فإن العلماء كانوا كغيرهم من أهل الحرمين الشريفين عرضة للآثار السلبية المترتبة على ذلك، كذلك كان الحجاج ضحية المتخاصمين على الحكم فتنهب أموالهم وتزهق أرواحهم، دون أي ذنب اقترفوه.[1]

ومن أسوأ ما حدث فيها من فتن في هذه الحقبة ما وقع سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م بين الأشراف أبونمي وإدريس، وجماز[2] صاحب المدينة، وبين الأمير مبارز الدين بن برطاس[3]، سفكت فيها الدماء بالحجر من المسجد الحرام، وأسر فيها ابن برطاس.[4]

وفي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م وقعت بين الحجاج وأهل مكة فتنة، شهرت فيها من السيوف نحو عشرة آلاف سيف بالمسجد الحرام، وقتل فيها من الفريقين نحو أربعين رجلاً.[5]

---

(١) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٢٠، وأنظر كذلك، ج٣/ص٢٥٧، ج٣/ص٣٨٠، ج٣/ص٣٩٥.

(٢) جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا الحسيني، أمير المدينة المنورة، كان شجاعاً مهيباً سياسياً حازماً ذا رأي وهمة عالية، وتولى أمر المدينة أول الأمر مشاركاً لأخيه منيف، ثم استقل بها بعد ذلك، وتوفي سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٤٣٦ ـ ص ٤٣٧).

(٣) علي بن الحسين بن برطاس الأمير مبارز الدين، أحد الأمراء الذين أرسلهم المظفر يوسف الرسولي صاحب اليمن إلى مكة، وقدَ تولى أمرها سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م بعد قتاله مع الأشراف، (الفاسي: العقد الثمين، ج٦/ص١٥٢ ـ ص ١٥٣، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٧٧.

(٤) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٧٧.

(٥) ن. م. س. ج٣/ص١٢٠.

وفي سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م ثارت فتنة بين التكاررة[١] والترك بالمسجد الحرام شهرت فيها السيوف في المسجد الحرام، وكان ملك التكرور موسى بن أبي بكر الأسود نازلاً بجانب رباط الخوزي، وأمر أصحابه بالكف عن القتال فكفوا عن ذلك.[٢]

وفي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م وقعت فتنة بين الحجاج المصريين وأهل مكة، قتل فيها جماعة من الطرفين، وعرفت هذه السنة بالسنة المظلمة.[٣]

وفي سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م وقعت فتنة بين أمير الحاج المصري جقمق المؤيدي وجماعته وبين القواد العمرة[٤]، وحصل فيها قتال بينهما انتهكت فيها حرمة المسجد الحرام لما حصل فيها من القتال بالسلاح والخيل وإراقة الدماء فيه.[٥]

---

(١) التكاررة: نسبة إلى بلاد التكرور: وهي دولة ماليٍّ بفتح الميم وألف بعدها لام مشددة مفخمة وياء مثناه، وهي تقع في جنوب المغرب متصلة بالبحر المحيط، وحدودها من الغرب البحر المحيط، ومن الشرق بلاد البرنو، وفي الشمال جبال البربر، وفي الجنوب الهمج، وهي شديدة الحر قليلة الأقوات وأهلها طوال في غاية السواد، (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥/ص٢٧١).

(٢) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٧٩.

(٣) ن . م.س، ج٣/ص٢٢٤.

(٤) القواد العمرة: وهم أتباع الأشراف من بني الحسن، وقد ورد هؤلاء القواد أول الأمر بالملاعبة والقواد الزبابعة، أما القواد العمرة فربما يرجعون إلى منصور بن عمر المكي الذي كان حياً سنة ٧٣٧هـ أحد أعيان القواد العمرة، (الفاسي: العقد الثمين، ج٧/ص٢٨٥)، وقد أورد الفاسي كثيراً منهم، العقد الثمين، ج٤/ص٦١٧، ج٤/ص٣٧٩، ج٧/ص١١١، ج٧/ص٣٦٥، ج٦/ص١٧٥، ج٤/ص٦١٧، كما ورد في بعض الأحيان القواد الحميضات والقواد ذوي عجلان، والقواد ذوي حسن، وهي نسبة إلى الأمراء حميضة وعجلان وحسن (النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٤١٠، ج٣/ص٥٤٢).

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥١٦ ـ ص٥١٧.

كما عادت الخلافات والحروب بعد وفاة محمد بن بركات، وذلك بين ابنيه بركات[1] وهزاع[2] من جهة وأحمد الجازاني[3] من جهة أخرى، فقد حصلت بينهما معارك عديدة كان أشدها ضرراً عندما دخل أحمد الجازاني مكة في أوائل سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م للمرة الثانية، وترك عسكره يعيشون في مكة ويفعلون أفعالاً قبيحة،حيث انتهكوا الحرمات، وصادروا أموال الأهالي والتجار.[4]

أما المدينة المنورة، فقد كان أمراؤها من بني مهنا الحسينيون.[5] ولم يكونوا على وفاق مع أمراء مكة، حيث حدثت بينهم عدة حروب[6]، بسبب ميل أمرائهم إلى أحد الأطراف المتنازعة في مكة[7]، بل وصل بهم الأمر إلى الإستيلاء على مكة بواسطة

---

(١) بركات بن محمد بن بركات، ولد سنة ٨٦١هـ/١٤٥٦م، واشترك مع أبيه، وتولى أمر مكة، من قبل السلطان الغوري، وتوفي سنة ٩٣١هـ/١٥٢٤م، أنظر ترجمته في (العصامي، عبدالملك: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، (القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م)، ج٤/ص٢٨١، دحلان، أحمد زيني، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص٤٦، أبو الخير، عبدالله مرداد: المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، تحقيق محمد سعيد العامودي، أحمد علي، الطبعة الثانية، (جدة، عالم المعرفة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦)، ص١٤٢.

(٢) هزاع بن محمد بن بركات، وقعت بينه وبين أخيه بركات كثير من الحروب، وتوفي سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م، (دحلان: خلاصة الكلام، ص٤٦ ـ ص٤٧).

(٣) أحمد بن محمد بن بركات الملقب بالجازاني، تولى أمر مكة سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م، وعانت مكة كثيراً من حروبه، توفي سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م، (دحلان، خلاصة الكلام، ص٤٨).

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ١٣١ب.

(٥) السخاوي، محمد بن عبدالرحمن: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عني بطبعه ونشره، أسعد طرابزوني الحسيني (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ج١/ص٧٨ ـ ص٧٩.

(٦) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص١٩٩، العز بن فهد: غاية المرام، ج١/ص٥٥٢.

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٧٧ – ص ٩٩ – ص ١٠٣ .

أميرهم جماز بن شيحة بن هاشم، وذلك سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م الذي استعان بالسلطان المنصور بن قلاوون لتأديب أمير مكة أبو نمي.[١]

وفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م تنازل جماز عن الإمارة لابنه منصور[٢]، وبعد وفاة والده وفد أخوه مقبل بن جماز على المظفر بيبرس[٣] بمصر، وأقنعه بإشراكه مع أخيه منصور في الإمارة فأجابه إلى ذلك، فضاق منصور من هذا الإجراء، فاستخلف ابنه كبيشاً[٤] مكانه وتوجه إلى مصر لعله يستطيع إقناع السلطان بتنحية أخيه، إلا أن مقبلاً[٥] استغل غيابه وعزل ابن أخيه كبيشاً فقام كبيش باللجوء إلى قبائل البادية وأثارهم ضد عمه، واستطاع أن يقتله سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، ثم أعاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون منصور بن جماز إلى الإمارة سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م، فاستمر بها إلى أن قتله ابن أخيه حذيفة بن جماز سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م[٦] فتولى الإمارة من بعده ابنه كبيش الذي قتل كذلك سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م على يد أبناء عمه مقبل انتقاماً لمقتل والدهم[٧]، ثم تنازع السلطة من

---

(١) النجم بن فهد : إتحاف الورى ، ج٣/ص١١٨، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٤٢٤.

(٢) أنظر ترجمته في ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٦٣، ومعظم تراجم أمراء المدينة وردت مختصرة في كتب التراجم.

(٣) ذكر القلقشندي أنه الظاهر بيبرس، والمعروف أن الظاهر بيبرس توفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، (صبح الأعشى، ج٤/ص٣٤٠)، ونقل عنه معظم الباحثين ذلك، والمظفر بيبرس المنصوري هو من مماليك المنصور قلاوون، وكان يحكم مصر في الفترة التي كان فيها الناصر محمد بن قلاوون معتزلاً الحكم، وتسلطن لمدة سنة واحدة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، (المقريزي: السلوك، ج٢/١: ص٤٥ - ص٥١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨/ص٢٣٢).

(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة ، ج٣/ ص٢٦٢.

(٥) أنظر ترجمته، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤/ص٣٥٦.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٣٠٥، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤/ص٣٦٣.

(٧) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣/ص٢٦٢.

بعده طفيل[1] بن منصور بن جماز وودّى[2] بن جماز بن شيحة، وانتهى النزاع بينهما بوفاة ودّى سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢ م حيث استمر طفيل أميراً على المدينة حتى سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م فقبض عليه ونقل إلى القاهرة فأودع السجن إلى أن مات سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م.[3]

بعدها تولى إمارة المدينة عدة أمراء من أبناء جماز وأحفاده، وقعت فيها عدة فتن، منها فتنة سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م عندما رفض نعير بن منصور[4] أن ينصاع لأمر السلطان ويسلم المدينة[5] لجماز بن هبة[6] بن جماز، ثم كانت فتنة سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م الذي نهب فيها علي بن عطية[7] المدينة الشريفة، فغضب السلطان برقوق[8] وأفرج عن ثابت بن

---

(١) وصفه السخاوي بقوله: «كان خليقاً للملك، سلطاناً مهيباً، معظماً محبباً للرعية، عالي الهمة، كامل السؤدد، جم المناقب يوالي المجاورين، ويحسن إليهم»، التحفة اللطيفة، ج٢/ص٢٥٨، وأنظر ترجمته في: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢/ص٢٢٣.

(٢) أنظر ترجمته في: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤/ص٤٠٦.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢/ص٢٢٣، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢/ص٢٥٨.

(٤) توفي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م، (السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٤٢٨.

(٥) ن. م. س. ج١/ص٤٢٧ ـ ص ٤٢٨.

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٤٢٧ ـ ص ٤٢٨.

(٧)) ن. م.س. ج٣/ص٢٤١.

(٨) هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن أنص الجركسي، تولى سلطنة مصر في سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، ومات سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٣٥٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١/ص٢٢١ ـ ص٣١٨، ج١٢/ص١٦٧، السخاوي: الضوء اللامع ، ج٣/ص١٠) .

نعير[1] وقلده إمارة المدينة.[2] واشتبك ابن نعير مع جماز بن هبة عندما هاجم المدينة المنورة في سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م[3]، ثم أنه في عام ٨١١هـ/١٤٠٨م عندما علم جماز بن هبة بولاية حسن بن عجلان للحجاز وعزله عن إمارة المدينة عمدهذا إلى نهب المسجد النبوي[4]، وفي سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م قبض على الشريف خشرم[5] لأنه لم يستطع دفع ما التزمه للسلطنة بمصر[6]، فأمر الأشرف برسباي[7] بالقبض عليه وعيّن بدلاً منه مانع بن علي[8]، وتولى المدينة بعد ذلك كثرة من صغار الأمراء كانوا دائماً أشبه بالدمى في يد سلاطين مصر، يضرب بعضهم ببعض، ثم يولى من يدفع أكثرلخزينة السلطنة بمصر، فإذا تساويا في المقدار المعروض طلب إليهما أن يقتتلا والإمارة لمن غلب.[9]

---

(١) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٣٩٦، الضوء اللامع، ج٣/ص٥٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٣٠٥، ابن حجر: أحمد بن علي: أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق حسن حبشي، (القاهرة، مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٣٨٩هـ)، ج٢/ص٢٥٢.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣/٢: ص٧٩١.

(٤) ن.م.س، ج٤/١: ص٧٥ ـ ص٧٦.

(٥) قتل سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م، أنظر ترجمته في: السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢/ص١٨.

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٩٦، ج٢/ص١٨، المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٧٥٦.

(٧) الملك الأشرف برسباي الدقماقي الظاهري، تولى السلطنة في سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م، وفي عهده فتحت قبرص، توفي سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤/ص٢٤٢، ج١٥/ص١١١، السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ص٨ ـ ص١٠، ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، (القاهرة، ١٩٦٠م ـ ١٩٦٣م)، ج٢/ص٨١.

(٨) المقريزي: السلوك: ج٤/٢: ص٧٥٦، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢/ص١٨.

(٩) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٤٢٨، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٥٠.

أما مدينة جدة، فهي الثغر العمومي للحجاز منها صادراته وإليها وارداته، وتزدهر التجارة فيه أيام الحج، وكانت جدة تتبع إدارياً لأمير مكة، وفيها كانت تؤخذ المكوس[١] من الحجاج والتجار القادمين بطريق البحر.[٢]

وقد بلغت جدة أوج ازدهارها في بداية القرن التاسع الهجري[٣]، ففي سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م وصلت مراكب التجار إلى جدة، وأخذ منهم أمير مكة حسن بن عجلان مكساً مقداره عشرة آلاف دينار[٤]، وظل أمير مكة يأخذ العشور[٥] من التجار حتى سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م حيث أرسل السلطان برسباي رجلاً من قبله ليحمل إليه نصيبه من المكوس، فبلغ ما حصله تلك السنة سبعين ألف دينار[٦]، ومنذ ذلك التاريخ أصبح السلطان شريكاً لأمير مكة في المكوس التي تؤخذ من التجار القادمين إلى جدة، واتخذ السلطان عدة إجراءات صارمة تنظم الأمور لهذا الميناء التجاري، وصار نظر[٧] جدة

---

(١) المكوس: جمع مكس، ومعناها في اللغة: الضريبة التي تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق أيام الجاهلية، كما تطلق على ما يأخذه المعشار، ويقال له الماكس، (المقريزي: السلوك، ج١/٢: ص٢٦٧ الهامش، وأنظر كذلك: المعجم الوسيط، الطبعة الثالثة، (القاهرة، مجمع اللغة العربية، بدون ت)، ج٢/ص٩٦، وانظر أنواع المكوس، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣/ص٥٣٦).

(٢) المقريزي: السلوك، ج١/١: ص٦٤، ج٤/٢: ص٦٨١ ـ ص٦٨٢، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٢٤ ـ ص٥٥٥، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٩١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٦٨١

(٤) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٦٥.

(٥) العشور: مفردها العشر: وهي الرسوم التي تؤخذ على الأموال، (أبويوسف، يعقوب بن إبراهيم: الخراج، تحقيق، محمد إبراهيم البنا، (دار الإصلاح للطبع والنشر، بدون ت)، ص٣١.

(٦) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٦٢٠ ـ ص٦٢١.

(٧) الناظر (نظر) ـ وهو من ينظر في الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمله، فيمضي ما يمضي ويرد ما يرد، ثم هو يختلف باختلاف ما يضاف إليه كناظر الجيش وناظر الدواوين وناظر الأوقاف أو جهات البر، (القلقشندي: صبح الأعشى،ج٤/ص٢٩ ـ ص٣٥، ج٥/ص ٤٣٧)

وظيفة سلطانية يخلع على متوليها، ويتوجه في كل سنة إلى مكة وقت ورود المراكب إلى جدة ويأخذ ما على التجار من العشور ويحمله إلى خزينة السلطنة بمصر.(١)

كما تأثرت جدة بالصراع الدائر بين الأشراف، فقد نالها ما نال مكة، لأنها كانت تابعة لها، ومن ذلك ما حدث سنة ٧٨٩هـ/١٣٧٨م عندما جمع(٢) كبيش بن عجلان جماعة من البادية للإنتقام من أمير مكة الجديد المدعوم من السلطان، فأغار على جدة ونهبها وأخذ منها ثلاثة مراكب للتجار كانت متوجهة إلى مصر(٣)، وحدثت بين كبيش وأمير مكة عنان(٤) عدة مناوشات انتهت بمقتله.(٥) كما تعرضت جدة لغارات قبائل بني إبراهيم(٦) ما بين سنوات ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، ٩١٣هـ/١٥٠٧م(٧) وذلك بمساعدة من

---

(١) الظاهري: زبدة الممالك، ص١٤، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٦٢١.

(٢) كبيش بن عجلان بن رميثة، يكنى أبا الفوز، كان ينوب في إمرة مكة عن أبيه وأخيه أحمد، ومشهوراً بوقار رأيه وشهامته وكفائته، قتل سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٧/ص٨٥ ـ ص٩٠).

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٧/ص٨٨، ابن حجر: أنباء الغمر، ج٢/ص٢٥٠ ـ ص٢٥١، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٦١ ـ ص٣٦٢.

(٤) عنان بن مغامس بن رميثة، يلقب بزين الدين، ولي أمر مكة مرتين ومجموعها ثلاث سنوات، وكان كثير الشجاعة والكرم، عالي الهمة، قليل الحظ في الإمرة، توفي سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٦/ص٤٣٠ ـ ص٤٤١).

(٥) ابن حجر: أنباء الغمر، ج٢/ص٢٥١.

(٦) أختلف في نسب هذه القبيلة، فقد ذكر كحالة أنهم من الأشراف من سلالة السبطين الحسن والحسين، (معجم قبائل العرب، ج١/ص٢)، بينما يذكر البلادي: أنهم بطن من بني مالك من جهينة كان لهم خطر قبل القرن العاشر الهجري، وديارهم ينبع النخل وما حولها، (معجم قبائل الحجاز، (مكة، دار مكة، ١٣٩٨هـ/١٣٩٩م)، ص١١ ـ ص١٢، قلب الحجاز، بحوث جغرافية وتاريخية وأدبية، الطبعة الأولى، (مكة، دار مكة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص١٦٥، والأخير هو الأرجح.

(٧) أنظر حوادث هذه السنوات في: العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٩٢ب ـ ورقة ١٣٧ب.

أمير ينبع يحيى بن سبع وأمير خليص مالك بن نويرة، إذ قتلت الأهالي ونهبت الأموال، كما قتلت الحجاج وسلبت قوافلهم[١]، مما جعل السلطان الغوري[٢] يرسل الحملات إلى هذه القبائل للقضاء عليها.[٣] كما قام أولاً ببناء أبراج لمدينة جدة سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م[٤]، ثم قام ببناء سور لها سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م وانتهى المماليك من بنائه سنة ٩١٧هـ/١٥١١م[٥] الذي كان له دور كبير في رد هجوم البرتغاليين سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م أي بعد سقوط دولة المماليك.[٦]

أما مدينة ينبع فقد كانت بيد الأشراف الحسنيين من بني قتادة، وهي تسمى نيابة ولاتسمى إمارة تصغيراً لشأنها عن مكة والمدينة[٧]، وكانت المكوس التي تفرض على المراكب القادمة إليها تؤول إلى أميرها.[٨]

---

(١) دحلان: خلاصة الكلام، ص٤٧.

(٢) قانصوه الغوري: آخر السلاطين المماليك، فقد في حرب السلطان سليم العثماني ، ولم يظهر له خبر، (العيدروسي: النور السافر، ص١٠٠) وقيل أنه قتل سنة ٩٢٢هـ.

(٣) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة، ج١/ص٧٩١، ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ص٥٤، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٥٣ ـ ص٥٤.

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ١٦١أ.

(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٢٠١ب، ورقة ٢٠٢أ، النهر والي ، قطب الدين المكي الحنفي: الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، ص٢٢٥، ابن فرج، عبدالقادر بن فرج بن أحمد الشافعي، السلاح والعدة في تاريخ بندر جدة، تحقيق أحمد عمر الزيلعي، ريكس سميث، (الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٢٨ ـ ص٣٠، الأنصاري، عبدالقدوس: تاريخ مدينة جدة، الطبعة الثالثة، (القاهرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص٢٩٨.

(٦) الأنصاري: تاريخ جدة، ص٧٠، السليمان، العلاقات الحجازية المصرية ، ص٧٠.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨٩، ج١٢/ص٢٥٧.

(٨) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٦.

وقد تعرضت ينبع كثيراً للفتن والقلاقل شأنها شأن مكة والمدينة، حيث كانت تابعة إدارياً لأمير مكة[١]، ومنها ذلك الدمار الهائل الذي أحدثه الخلاف على الإمارة بين الشريف مقبل[٢] الحسني وابن أخيه عقيل بن وبير الحسني[٣]، وقد تدخل أمير مكة حسن بن عجلان في هذا الصراع سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢١ م[٤] وسنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م[٥]، كما تدخل أمير الحاج المصري قرقماس[٦]، حيث سهل له الأمر حين قدومه إلى سلطان مصر بأن يكون مقبل شريكاً لابن عمه عقيل بن وبير.[٧]

وفي سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م توفي الشريف دراج[٨] أمير ينبع، فحصل نزاع على الإمارة بين أبنائه وبين أبناء الشريف سبع، ومنهم يحيى بن سبع الذي طالب بالأمارة، ولم يلب طلبه في أول الأمر، فقطع طريق الحجاج بعجرود[٩]، ومنع عنهم الماء، فاضطر

---

(١) الجاسر: بلاد ينبع، ص٣٢ ـ ص٦٧.

(٢) مقبل بن مخبار، توفي سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠/ص١٦٧).

(٣) عقيل بن وبير بن مخبار بن مقبل الحسني، توفي سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٥/ص١٤٩).

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص١٤٢، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٨٦.

(٥) الفاسي: العقد الثمين. ج٤/ص١٤٤، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٩٢

(٦) قرقماس الشعباني الظاهري، برقوق ثم الناصري، ويعرف بقرقماس، أهرام ضاع يعني جبل الأهرام، لتكبره، توفي سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٦/ص٢١٩).

(٧) الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص١٤٧، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٩٦.

(٨) دراج بن معزي الحسني: أمير ينبع، استقر في أواخر سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م، عقب أميرها سبع نيابة عن صاحب الحجاز حين فوض إليه الأمر، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ص٢١٧).

(٩) عجرود: منزل في طريق الحاج المصري، وهي إلى الغرب من السويس على مسافة ٢٠ كيلو متراً، بكر، سيد عبدالمجيد: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، الطبعة الأولى، (جدة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص١٠٦.

السلطان إلى تأميره على ينبع سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م[١]، ولكنه أضمر الحقد في نفسه، وقام بضروب من العبث والفساد والقلاقل، حتى أرسل إليه السلطان الغوري قوة هزمته سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م.[٢] ثم تبعتها قوة أخرى سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م[٣] أنزلت بابن سبع وبجماعته هزيمة ثانية كانت أشد من الأولى، ولم تفق ينبع من هذه الكارثة حتى سقطت الدولة المملوكية سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م - ٩٢٣هـ/١٥١٧م).[٤]

أما الطائف فإن المصادر لاتسعفنا في الحديث عنها من الناحية السياسية لندرة المادة التاريخية، حيث ركزت المصادر الأولية على مكة والمدينة، دون الإهتمام بالأطراف أو الأقاليم البعيدة، وكل ما نعرفه عنها سياسياً، أنها كانت خاضعة في معظم الأحوال لحكم الأشراف في مكة.[٥] ويعيِّن نوابها من قبل أمير مكة[٦]، وكان أهلها يؤدون الجباية لأمير مكة، ومثال ذلك:

يذكر لنا ابن فهد في حوادث سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م أن أمير مكة حسن بن عجلان توجه إلى الطائف وخرَّب أماكن فيها، وسبب ذلك توقف أهل هذه الأماكن عن تسليم ما قرره عليهم من الجباية.[٧]

---

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية ، ص١٩١.

(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ١٦٠أ - ورقة ١٦٠ب.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ص٩٥، الجزيري: الدرر الفرائد، ج١/ص٧٩١، الجاسر: بلاد ينبع، ص٥٨ - ٥٩، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٩١.

(٤) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٩١.

(٥) دائرة المعارف ا لإسلامية، (بيروت، دار المعرفة، بدون ت)، ج١٥/ص٥٧.

(٦) الفاسي، العقد الثمين، ج٧/ص٤٦، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٢، العز بن فهد: غاية المرام، ج١/ص٥٥٨.

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٥٧ - ص ٥٥٨.

ب ـ الحياة الإجتماعية:

كان المجتمع الحجازي في عصر المماليك يتألف من طبقات ثلاث:

أ ـ الأشراف: وهم الأمراء أحفاد قتادة بن إدريس الحسني في مكة وينبع.[1] وأحفاد جماز بن شيحة الحسيني في المدينة المنورة.[2]

ب ـ القواد: وهم من أتباع أمراء مكة وأكثرهم من بني الحسن أشراف مكة، ويعبّر عن أكابرهم بالقواد[3]، مثل القواد العمرة والحميضات وغيرهم، وكانوا قوة يحسب حسابها في مكة، تستطيع ترجيح كفة أحد الأطراف المتنازعة على الإمرة.[4]

جـ ـ أما الطبقة الثالثة فتكون بقية فئات المجتمع من علماء وطلاب علم وتجار وحرفيين وفلاحين وبدو رحل ... إلخ، ومن هؤلاء السكان المجاورون الذي وفدوا من جميع أنحاء العالم الإسلامي بقصد المجاورة والإقامة في الحرمين الشريفين، وصاروا بعد ذلك جزءاً لايتجزأ من المجتمع الحجازي، أدى دوره في جميع المجالات السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وبرز بشكل خاص في النواحي العلمية.

تلك هي صفة المجتمع الحجازي، خليط من عدة جنسيات مميّز في تركيبه الإجتماعي من بين جميع مدن العالم بسبب وجود الحرمين الشريفين.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٢٧، العز بن فهد: غاية المرام، ج١/ص٥٦٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٣٠٤ ـ ص٣٠٥.

(٣) ن. م. س. ج٤/ص٢٨١.

(٤) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٧١، ج٣/ص٢٩١، ج٣/ص٣٥٧.

ولعل أفضل المعلومات التي تفيدنا لكيفية الحياة الإجتماعية في مجتمع الحجاز نجدها في كتب الرحالة المسلمين الذين عايشوا أهل الحجاز في ذلك العصر، أمثال: ابن جبير، وابن بطوطة، والعبدري، وغيرهم، فقد زار مكة في العصر المملوكي سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م الرحالة الشهير ابن بطوطة وأعطانا وصفاً مفصلاً عن العادات الإجتماعية في مكة المكرمة، نستخلص منها.، اهتمام أهلها البالغ بالتأنق في الملبس والمأكل والمشرب، ويشير إلى أن ملابسهم دائماً نظيفة ناصعة البياض، كما كانوا يقومون بإكرام الضعفاء والمنقطعين بتقديم الطعام إليهم، ووصف نساء مكة بأنهن فائقات الحسن بارعات الجمال، يقصدن الطواف بالبيت الحرام كل ليلة جمعة.(١)

وذكر أن أهل مكة لايأكلون في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر، ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت، ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر، ولذلك صحت أبدانهم وقلّت فيهم الأمراض والعاهات.(٢)

ومن عادات أهل مكة أن تضرب الطبول على باب أميرها عند صلاة المغرب من كل يوم.(٣)، وقد ذكر ابن جبير وابن بطوطة كثيراً من عادات أهل مكة واحتفالاتهم الدينية في القرنين السابع والثامن الهجريين، منها احتفالاتهم في استهلال الشهور(٤)،

---

(١) أبو عبدالله محمد بن عبدالله: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (القاهرة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، ص١٤٣.

(٢) ن. م. س. ص١٤٥.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٤٢.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص١٠١ ـ ص١٠٢، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٥٥.

وعاداتهم إذا هلّ هلال رجب[1]، وعمرة رجب[2]، وليلة النصف من شعبان[3]، وشهر رمضان[4]، وشهر شوال[5]، وشهر ذي الحجة[6]، إذ كانت تدق فيها الطبول، وتوقد فيها المشاعل في المسجد الحرام، وتقام فيها الأعياد.

وكانت حياتهم مستقرة هادئة مليئة بالبهجة والسرور، إلا أن غمامات الحزن والخوف والرعب، كانت أحياناً تعكر صفو هذه المدينة، بسبب خلافات أمرائها المستمرة، وبسبب أزمنة القحط والسيول والأوبئة، كما سنرى في الحالة الإقتصادية.

أما أهم المنشآت الإجتماعية التي قام بتعميرها سلاطين المماليك وأمراؤهم وغيرهم من الحكام المسلمين في الحجاز، فهي الإكثار من تعمير العيون والأسبلة والآبار، لتوفير الماء للسكان والحجاج، فقد أجرى ا لأمير جوبان[7] نائب السلطنة بالعراق من قبل

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٠٦، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٥٧.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٠٨، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٥٨.

(٣)) ابن جبير: الرحلة، ص١١٣،ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٦١.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص١١٤، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٦٣.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص١١٥، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٦٤

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص١١٥، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٦٤.

(٧) جوبان بن تدوان، نائب السلطنة بالعراقيين، وتولى ذلك نيابة عن السلطان أبي سعيد بن خربندا، ثم تغير عليه السلطان فقتله سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، وله الكثير من المآثر بالحرمين، (أنظرترجمته في: الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٤٤٦ ـ ص ٤٤٧، ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١/ص٥٤١، ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١/ص٢٥٣، النجوم الزاهرة،، ج٩/ص٢٧٢ ـ ص ٢٧٣، السخاوي: ا لضوء اللامع، ج٣/ص٨١).

السلطان أبي سعيد بن خربندا[1] ملك التتار، عين بازان في سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م وعمَّ نفعها على جميع الناس لأنهم كانوا في جهد ومشقة لقلة الماء، وصرف على عمارتها مائة ألف درهم[2]، وفي سنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م بعث بركة بن عبدالله العثماني[3] أميراً يقال له سودون باشة لعمارة عين بازان[4]، كما عمرها أمير مكة حسن بن عجلان سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م، واستمر جريانها إلى سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م[5]، فقل ماؤها وعمَّرها الملك المؤيد أبوالنصر[6]، حينما ندب القائد علاء الدين[7] لإصلاحها، فعمرها سنتي ٨٢١هـ/١٤١٨م و ٨٢٢هـ/١٤١٩م.[8]

---

(١) أبو سعيد بن خربندا بن أرغون بن ابغا بن هولاكو، ملك التتار صاحب العراق، والجزيرة وخراسان والروم، أقام في الملك عشرين سنة، وحسن إسلامه، توفي سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، (ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١/ص٥٠١).

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٥٥٤، المقريزي: السلوك، ج٢/١: ص٢٧٤ ـ ص٢٧٥، النجم ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٨١، وأضاف خمسين ألف درهم على المائة.

(٣) هو الأمير زين الدين، رأس نوبة النوب بالقاهرة، وله مآثر بمكة، قتل سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م، (الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٣٦١ ـ ص٣٦٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١/ص٢٠٤) .

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٣٦٢، وتسمى أيضاً بعين حنين، (النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٦٠).

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٥٥٥.

(٦) السلطان الملك المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبدالله المحمودي الظاهري، رابع السلاطين السلاجقة، والثامن والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، تولى السلطنة بعد عزل الخليفة المستعين بالله أبي الفضل العباسي من السلطنة في سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، وتوفي سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ص١ ـ ص١٠٩).

(٧) علاء الدين بن اللفت، ولي الوزارة بالديار المصرية، وشد الدواوين مراراً، توفي سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٤م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج١١/ص١٦٢ ـ ص ١٦٣).

(٨) الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص١٢٧، شفاء الغرام، ج١/ص٥٥٥ ـ ص ٥٥٦، الزهور المقتطفة ، ورقة ٧٢، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٦٠ ـ ص ٥٦٦.

ومن العيون التي أجريت بمكة عين أجراها الملك الناصر محمد بن قلاوون في مجرى عين بازان، وتعرف بعين جبل ثقبة، وذلك في سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م[١]، وتبعه في ذلك أبناؤه من بعده فقام نائب السلطنة أيام الصالح بن الناصر[٢] بتعمير بركة السلم سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م وعمر القنوات التي يصل بها الماء إليها بطريق منى[٣]، وعمَّر كذلك عين أجراها من منى إلى بركة السلم بطريق منى.[٤]

كما قام الكثير من هؤلاء السلاطين والأمراء بإنشاء الأسبلة في الأماكن المقدسة لسقاية الناس، وأهم هذه الأسبلة :

١ ـ سبيل الزنجيلي: ويقع خارج باب الشبيكة في جهة طريق التنعيم، على يمين المار إلى العمرة، وقد عمَّره الأمير فخر الدين المعروف بالزنجيلي[٥] نائب عدن للسلطان صلاح الدين الأيوبي، وذلك في سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م، وقد عمَّره من بعده تاجر حضرمي من أهل عدن، ويعرف بأبي راشد[٦]، وعمَّره بعده الشهاب بركوت المكين.[٧]

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٥٥٦ ـ ٥٥٧، العقد الثمين، ج١/ص١٢٧.

(٢) هو الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون، تسلطن بعد خلع أخيه الملك الناصر أحمد في سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م، واستمر في السلطنة حتى سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م، وكان مشكور السيرة، (ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١/ص٣٨٠، ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١/ص١٢٩، النجوم الزاهرة، ج١٠/ص ٧٨ ـ ص ١٤٢).

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٥٤٢، العقد الثمين، ج١/ص١٢٧.

(٤) الفاسي: شفاء الغرم، ج١/ص٥٥٧.

(٥) سيأتي الحديث عنه في المدارس.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ج٦/ص٣٤.

(٧) بركوت شهاب الدين، عتيق سعيد المكيني، اليمني، كان حبشياً كثير الأفضال محباً لأهل العلم، وأهل الخير، كثير البر لهم والتلطف بهم، لقي حظاً عظيماً من الدنيا، وتنقلت به الأحوال، وبنى بعدن أماكن عديدة، ثم تحول إلى مكة وسكنها، وبنى بها داراً عظيمة، وله الكثير من الآثار في مكة، توفي بعدن سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٦م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ص١٥).

٢ ـ سبيل الملك المؤيد شيخ صاحب مصر الذي يقع بالقرب من بئر زمزم، وقد انتهى من عمارته سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م وهو على شكل بيت مربع له ثلاثة شبابيك، تحت كل شباك حوض، وفيه بركة حاملة للماء.[١]

٣ ـ سبيل الست، وهو بطريق منى، وقد عمرته زهراء بنت السلطان محمد بن قلاوون أثناء قدومها للحج سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م.[٢]

٤ ـ سبيل بالمعلاة للقاضي الأشرف زين الدين عبدالباسط[٣] ناظر الجيوش المنصورة، وقد أنشأه سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٢م[٤]، وقد ذكر الفاسي كثيراً من هذه السبل التي قام بإنشائها السلاطين والأمراء وغيرهم.

هذا وقد قام كثيرٌ من السلاطين والأمراء وغيرهم، بأعمال البر والإصلاحات والعمائر في الحرم المكي الشريف، بالإضافة إلى كثير من المؤسسات الإجتماعية التي

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٤٠٣ ـ ص٤٠٤.

(٢) ن. م. س. ج١/ص٥٤٠، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٨٦.

(٣) زين الدين عبدالباسط بن خليل الدمشقي القاهري، ولد سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م بدمشق، وله المآثر والقرب المنتشرة بأقطار الأرض ما يفوق الوصف، وأصلح كثيراً من مسالك الحجاز، وقد أعطاه السلطان المؤيد نظر الخزانة، وحصل له قربة عند سلاطين المماليك، وكان ناظر الجيوش أيام الظاهر ططر، والأشرف برسباي، وابنه العزيز، وجقمق، من سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م حتى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٤/ص٢٤ ـ ص٢٥)، وقد ذكر السليمان، أن الزيني عبدالباسط كان ناظر الجيوش في دولة الناصر محمد، وأنه أنشأ سبيلاً بالمعلاة لمولاه، كما قام بإنشاء سبيل بالمعلاة باسم أخت الناصر محمد سنة ٧٦١هـ، (العلاقات الحجازية المصرية، ص٢١٧)، وقد جانبه الصواب في ذلك كما هو واضح من ترجمة الزيني عبدالباسط، ويبدو أن أسلوب الفاسي في إيراده للأسبلة جعله يقع في ذلك، (العقد الثمين، ج١/ص١٢٤).

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج١/ص٥٣٩، كما ذكره في: العقد الثمين، ج١/ص١٢٤، ولم يذكر سنة الإنشاء.

أنشأها سلاطين المماليك وأمراؤهم مثل المدارس، والأربطة، والبيمارستانات، التي سيأتي الحديث عنها في ثنايا البحث.

أما المدينة المنورة فإن التركيب الإجتماعي فيها لايختلف عن مكة، فهي تضم جميع الجنسيات ولهم عادات وتقاليد حسنة منها:

استقبالهم للزوار من خارج المدينة، من غير سابقة معرفة بهم، وقد حدثنا عن ذلك الرحالة ابن رشيد[1] الذي زار المدينة سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، وقال: «وفي عشي يوم السبت الثاني والعشرين من ذي القعدة تلقانا قريب العصر أهل المدينة على ساكنها الصلاة والسلام مبشرين بالوصول إلى حضرة المصطفى الرسول، وجالبين من تمر المدينة ما يتحفون به القادمين ملتمسين رفدهم، وقد صنعوا عصياً في أطرافها أوعية صغار، فيجعلون فيها شيئاً من التمر ويناولونه إلى الركبان .. على حكم التحفة والهدية .. وقد رأيتهم يحنكون به الأطفال الصغار التماساً للبركة».[2] وقد أكد البتنوني[3] هذه العادة القديمة حين زيارته للمدينة.[4]

---

(١) هو محمد بن عمر بن محمد أبو عبدالله، محب الدين ابن رشيد الفهري السبتي، رحالة، عالم بالأدب، عارف بالتفسير والتاريخ، ولد بسبتة سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، رحل إلى مصر والشام والحرمين، وله الكثير من الكتب في النحو، توفي سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م. (ابن حجر : الدرر الكامنة، ج٤/ص١١١ - ص١١٢).

(٢) ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق، محمد الحبيب ابن الخوجة، الطبعة الأولى، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨)، ج٥/ص١٦.

(٣) هو محمد لبيب البتنوني، نسبة إلى «البتنون» من بلاد المنوفية بمصر، كاتب، فاضل، له اشتغال بالأدب والتاريخ، وحج بمعية الخديوي عباس باشا حلمي سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، وعمل كتابه «الرحلة الحجازية»، (البتنوني، محمد لبيب: الرحلة الحجازية، الطبعة الثالثة، (الطائف، مكتبة المعارف، بدون ت)، مقدمة الناشر، ص أ.

(٤) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٢٦٠.

ولهم عادات دينية راسخة، فهم يتناولون إفطاراً خفيفاً عند المغرب في شهر رمضان بالمسجد النبوي فقراء وأغنياء، ثم ينصرفون إلى صلاة المغرب، ويعودون بعدها إلى بيوتهم ليفطروا الإفطار الثاني، ثم يعودون لصلاة العشاء والتراويح.(١)

أما صلاة العيد فيصليها بالمسجد النبوي أئمة الإمامية والشافعية والأحناف، إلا أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أصدر أمراً بعدم السماح لآل سنان(٢) من الإمامة بالصلاة في المسجد النبوي سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م(٣)، ثم انتهت إمامتهم فعلياً من المدينة سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م بالتعاون بين الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون(٤) وأمير المدينة سعد بن ثابت بن جماز(٥)، الذي ضاق بسيطرة القضاة والأئمة الشيعة من آل سنان.(٦)

«ولأهل المدينة المنورة عادات وتقاليد في الولادة والزفاف والوفاة، فهم في الوفاة يتبعون أهل السنة، فإذا فاضت روح الميت لايرفع صوت ولايشق جيب».(٧)

أما مدينة جدة فإن موقعها الإستراتيجي المهم، ونموها المستمر خاصة في بداية القرن التاسع الهجري، أحدث فيها تغيرات مهمة في تركيبها الإجتماعي.

---

(١) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٢٦١.

(٢) هو سنان بن عبدالوهاب بن نميله بن محمد بن ابراهيم بن عبدالوهاب الحسيني ، أول أمراء المدينة من الشيعة ، وتبعه ذريته في القضاء والإمامه (السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ / ص ١٩٥ - ص ١٩٦) .

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣/ص١٤٩.

(٤) الناصر حسن بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، تولى السلطنة سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، حتى سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م، ثم أعيد سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، وبقي حتى سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م، (ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤/ص٢٣٦، ص٢٦٣، ص٢٩٠، وانظر كذلك : المقريزي : السلوك ، ج٢/٣: ص٧٤٥ ـ ٨٤٣).

(٥) سعد بن ثابت بن جماز بن شيحة، ولي أمر المدينة سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م، بعد طفيل بن منصور، أخمد كثير من البدع في الحرم النبوي الشريف، وابتدأ في عمل خندق للمدينة، ولكنه توفي سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، (السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢/ص١٢٥ ـ ص١٢٦).

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢/ص١٢٥ ـ ص١٢٦.

(٧) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٢٦١.

فقد تهيأت فيها فرص كثيرة للعمل شجعت على الإستقرار والإقامة بهذه المدينة التجارية، حيث كثر فيها الفرس والحضارم والهنود والبخاريين، حتى شكلوا ثلث سكانها تقريباً.(١)

أما ينبع فلا شك أن الصلة التجارية التي كانت بينها وبين موانيء مصر في ذلك العصر، جعلت أكثر سكانها من الأسر العربية التجارية، التي انتقلت من مصر ومن الصعيد بالذات واستوطنت ينبع(٢)، ونقلوا عاداتهم وتقاليدهم إلى هذه المدينة.

أما الطائف فإن سكانها كانوا من قبيلتي ثقيف وهوازن(٣)، وبعض قبيلتي قريش وهذيل(٤)، وبجيلة(٥)، والسراة وزيّهم في المأكل والملبس مثل أهل مكة.(٦)

وقد وصف ابن المجاور إحدى عاداتهم بقوله: «وللقوم عصبية عظيمة إذا مات بها أحد، لم يحمل جنازته إلا الشبان ... وهم يتداولون النعش ... وهم الذين يحفرون القبر».(٧)

---

(١) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٩ ـ ص١٠.

(٢) حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص١٢٨ ـ ص١٣٠، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٩٠.

(٣) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم: المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، (القاهرة، ١٩٦٠م)، ص٨٠.

(٤) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٥، ياقوت: معجم البلدان، ج٤/ص٩.

(٥) بجيلة: قبيلة عربية كبيرة، مواطنها سروات اليمن والحجاز من جنوب الطائف إلى تباله، ذكرهم ابن جبير في رحلته فقال: بجيلة إحدى قبائل السراة التي تفد إلى مكة في الحج بالميرة والخيرات، ثم اختفى اسم بجيلة القبيلة وبقي علماً على موضع جنوب الطائف على قرابة ١٢٠ كيلاً، في بلاد بني مالك، (البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص٣٠ ـ ص٣١)، وقد ذكرها الفاسي، وقال: «قرية بالبادية حول الطائف» (شفاء الغرام، ج٢/ص٢٤٩).

(٦) ابن المجاور: تاريخ المستبصر، ص٢٥.

(٧) ن. م. س، ص٢٥.

كما وصف ابن بطوطة سكان بجيلة وزهران وغامد[١] بأنهم «فصحاء الألسن، لهم صدق نية، وحسن اعتقاد ... وهم شجعان أنجاد ولباسهم الجلود، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم، وتجنبوا اعتراضهم».[٢]

جـ- الحياة الإقتصادية:

للحجاز بيئة خاصة ومميّزة اختلفت عن معظم بلدان الجزيرة العربية، فهو يجمع السهول، والجبال والمنخفضات، والحرات والأودية والصحاري كلها جنباً إلى جنب.

فمكة منخفضة وتحيط بها الجبال ويغلب عليها القيض والحرارة طوال العام تقريباً ما عدا فصل الشتاء وبجوارها الطائف مرتفعة فوق جبال السراة ومعتدلة الجو وهواءها عليل ونجد السهول ناحية البحر الأحمر، وهي فقيرة النبات، ثم تجد بعض المناطقَ قرب المدينة النبوية غنية بنباتاتها.

هذا التباين والإختلاف في البيئات في الحجاز جعلها مختلفة كذلك في الموارد، وبالتالي وقع اختلاف في الحرف العامة لدى سكانه.

وقد كان لقلة الموارد في مكة وعدم ملاءمتها للزراعة دور كبير في اتجاه أهلها إلى التجارة واعتمادهم عليها في معايشهم، كما أن هناك الكثير من القبائل التي توزعت في مختلف بلاد الحجاز وامتهنت الرعي والصيد والزراعة.

---

(١) غامد: قبيلة من عسير تحيط بها من الشمال الشلاوة، ومن الشرق شمران، ومن الجنوب بلقرن، ومن الغرب، زبيد وزهران، ومقر غامد الباحة، (كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب، ص٢١٧ الهامش).

(٢) تحفة النظار، ص١٦٠.

وكانت موارد مكة الرئيسية في العصر المملوكي تتركز في عدة مصادر منها:

١ ـ ما ينفقه الحجاج في مواسم الحج :

حيث يعد هذا المصدر مورداً مالياً اعتمدت عليه مكة في اقتصادها، وكان لسلاطين المماليك دور كبير في رواج موسم الحج، لما قدموه من مساعدة في تحسين طرق الحج وإقامة المرافق[١] من حفر الآبار وبناء المنازل والخانات وغير ذلك، تسهيلاً لقدوم الحجاج إلى مكة.[٢]

٢ ـ المكوس والجباية :

وهذا المورد خاص بأمراء مكة الذين كانوا يفرضونه على الحجاج والتجار والمناطق المجاورة لمكة، مثل الطائف وجدة ، لذلك، فقد قام كثير من سلاطين المماليك بمنع أمراء مكة من أخذ المكس من الحجاج والتجار، وتعويضهم بتقديم الهدايا والهبات والرواتب السنوية[٣]، كما قاموا بإسقاط المكس عن المأكولات التي كان يجلبها التجار والحجاج وأهالي المناطق المجاورة بمكة.[٤]

---

(١) لمزيد من التفصيل، انظر، جلال، آمنة حسين محمد: طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي، (رسالة دكتوراة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى، غير منشورة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

(٢) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٧٢.

(٣) الفاسي العقد الثمين، ج٤/ص٤١٧، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٩٣، ص٢٢٧، ص٣٠٣.

(٤) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٩٣، ص١٧٦، ص ٢٧٧.

٣ـ التجارة الداخلية والخارجية:

اعتمدت مكة في مصادرها الغذائية على ما يأتي به أهالي القرى المجاورة لها، خاصة وادي مَرِّ[١]، ووادي نخلة[٢]، حيث تأتي منهما الفواكه والخضروات[٣]، كما كانت الطائف منذ القدم تمد مكة بالفواكه[٤]، وكذلك أهالي جبال السراة من غامد وزهران وبجيلة الذين يحملون معهم الحبوب والسمن والزبيب والزيت واللوز[٥]، بالإضافة إلى ما يزرع في مكة من حبوب وشعير وسلت[٦]، وجميعها يزرع على المطر.[٧]

---

(١) وادي مَرّ: بالفتح ثم التشديد، هو مر الظهران، موضع على مرحلة من مكة، له ذكر في الحديث، وبه عيون كثيرة، (ياقوت: معجم البلدان، ج٥/ص١٠٤)، ويسمى اليوم وادي فاطمة ويبعد عن مكة ٢٤ كيلو متراً، على جادة المدينة المنورة، (البلادي: معجم معالم الحجاز، (مكة، دار مكة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ج٨/ص١٠٠ ـ ص١٠٥).

(٢) وادي نخلة: نخلة الشامية أحد رافدي مرّ الظهران، ونخلة اسم لعدد من المواضع في الحجاز، (ياقوت، معجم البلدان، ج٥/ص٢٧٧، البلادي: معالم مكة التاريخية والأثرية، الطبعة الثانية، (مكة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٢٥٨ ـ ص٢٥٩).

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص٩٧، ابن بطوطة، تحفة النظار، ص١٢٤، ص١٢٦.

(٤) الإصطخري: المسالك والممالك، ص٢٧٤، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩، ابن جبير: الرحلة ص١٢٢.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص٩٦ ـ ص٢٧٤، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٦٠.

(٦) السُلت: بضم السين، ضرب من الشعير، وقيل هو الشعير الحامض، وقال الليث السُلت شعير لاقشر له أجرد، كأنه الحنطة يكون بالغور والحجاز، (ابن منظور: لسان العرب، ج٢/ص٤٧).

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٥٣.

واعتمدت في مصادرها الخارجية من المواد الغذائية وغيرها من السلع على ما يأتيها من بلاد اليمن[١]، والهند[٢]، ومصر، وبلاد السودان والحبشة[٣]، وبلاد الأندلس والمغرب[٤]، وغيرها، سواء عن طريق البر أو البحر، لذلك صارت مكة سوقاً مزدهرة، وكان ما يجلب إليها يفوق عشر مدن من أمثالها في عدد السكان، فكل ما يحتاجه الحاج يجده فيها.[٥]

ومن الأسواق المنتظمة في مكة، سوق كان على طول الصفا والمروة، ذكره ابن جبير وغيره من الرحالة المسلمين، يباع فيه الحبوب واللحوم والتمر والسمن وسواها من الفواكه، وكان شديد الزحام، كما كان للبزازين والعطارين سوق عند باب بني شيبة[٦]، وكذلك أقيمت الأسواق المتنقلة في موسم الحج في منى وعرفات، وبيعت فيها جميع السلع والمواد الغذائية.[٧]

كما كانت ترد إلى مكة سلع عديدة ومتنوعة، ومن الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار الكريمة والألماس والرياش والفراش، بالإضافة إلى أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود، وأنواع البخور وغيرها من البضائع.[٨]

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٤، ص٤٤١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨١.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص٤٤٠، ص٤٤١، العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٦٩ب.

(٤) ربيع: وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي، ص١٣٥.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص٩٧، البلوي، خالد بن عيسى: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق حسن السايح (المغرب، بدون ت)، ج١/ص٣٠٧.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص٨٥، العبدري، أبو عبدالله محمد بن محمد: الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، (الرباط، ١٩٦٨م)، ص١٧٦، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٣٦.

(٧) ابن جبير: الرحلة، ص١٦٠، العبدري: الرحلة المغربية، ص١٨٥.

(٨) ابن جبير: الرحلة، ص٩٧، البلوي: تاج المفرق، ج١/ص٣٠٧.

أما معاملات مكة المالية[١]، فكانت تجرى كمصر والشام بالدنانير والدراهم النقرة[٢]، وتنوعت العملات فيها طوال العصر المملوكي، ومنها الدراهم الكاملية[٣]، والدراهم المسعودية[٤]، وفي بداية القرن التاسع الهجري، استعملت في مكة عملات أخرى منها الدراهم المؤيدية[٥]، والدنانير الأفرنتية[٦]، والدنانير الأفلورية[٧]،

---

(١) أنظر لمزيد من التفصيل، أنظر: الزهراني، ضيف الله بن يحيى: أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة خلال الفترة (٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠م - ١٥١٧م)، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، (١٤١١هـ/١٩٩١م).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨٠ - ص٢٨١، والدراهم: هي مايكون ثلثاها فضة وثلثها نحاس، تسك بدار الضرب السلطانية، ويكون منها دراهم صحاح، وقراضات مكسرة والعبرة في وزنها بالدرهم وهو معتبر بأربعة وعشرين قيراطاً، الكرملي، الأب انستاس ماري: النقود العربية وعلم النميات، رسائل في النقود للبلاذري والمقريزي والذهبي، (بيروت، لبنان، بدون ت)، ص١١٣.

(٣) الدراهم الكاملية، تنسب إلى السلطان الملك الكامل الأيوبي، (٦١٥هـ/١٢١٨م - ٦٣٦هـ/١٢٣٨م)، وهو يتكون من ثلثي فضة وثلث نحاس، وكان من المعاملات الرئيسية بمكة (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨٠).

(٤) الدراهم المسعودية: تنسب إلى ملك اليمن الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل محمد الأيوبي، (٦١٢هـ/١٢١٥م - ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، وهي من فضة خالصة، مربع الشكل، ويعادل في المعاملة المالية ثلث الدرهم الكاملي، وقد استمر التعامل بها في مكة حتى نهاية العصر المملوكي، (الفاسي: العقد الثمين، ج٧/ص٤٩٥، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨٠، العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ٢٢أ، ورقة ٨٨أ، الزهراني: أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة، ص١٠٦).

(٥) الدراهم المؤيدية، تنسب إلى السلطان المملوكي المؤيد سيف الدين أبو النصر شيخ، (٨١٥هـ/١٤١٢م - ٨٢٤هـ/١٤٢١م)، أنظر النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٨٨.

(٦) الدينار الإفرنتي: عملة بندقية، أطلق عليها في أوربا لفظ دوكات، وعرفت في الشرق باسم (بندقي أو إفرنتي)، وقد تعاملت بها مكة من سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، (المقريزي: السلوك، ج٢/١: ص٢٥٣، الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٩ - ص٤٤٠، الزهراني: أسعار المواد الغذائية، ص١٠٦).

(٧) الديناري الأفلوري: نسبة إلى فلورنسا بإيطاليا، وهو من النقود الذهبية التي تجلب من بلاد الإفرنج، وعلى أحد وجهيه صورة إنسان في دائرة مكتوبة بقلمهم، وفي الوجه الآخر صورتان في دائرة مكتوبة، ولم يكن يعرف هذا الصنف قديماً مما يتعامل به الناس، وإنما حدث في القاهرة في حدود سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م حتى صار نقداً رائجاً، (المقريزي: ا لسلوك، ج٤/١: ص٣٠٥)، وقد تعاملت به مكتفي بداية القرن التاسع الهجري، أنظر النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٣٥، ص ٥٨٨.

الأشرفية[١]، والمحلق[٢] الذي راج استعماله من أواخر القرن التاسع الهجري[٣]، إلى بداية القرن العاشر الهجري.[٤] وكان مكيالها المد[٥] والمن.[٦]

٤ ـ الأوقاف وصدقات السلاطين والأمراء وغيرهم من المحسنين: وهذا المورد لانجده في اقتصاد أي دولة من الدول أو أمارة من الأمارات غير مكة والمدينة لوجود الأماكن المقدسة بهما.

---

(١) الدينار الأشرفي: ينسب إلى السلطان الملك الأشرف برسباي، (٨٢٥هـ/١٤٢١م ـ ٨٤١هـ/١٤٢٧م)، وقد ضرب سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م، محل العملة الإفرنتية، (المقريزي: ج٢/١: ص٥٣٥، وقد تعاملت به مكة حتى نهاي العصر المملوكي، أنظر العز بن فهد: بلوغ القرى، الورقات: ٥٢أ، ٨٨أ، ١٢٩ب، ٢٠١ب.

(٢) المحلق: نسبة إلى أنه أصبح له حلق، وجمعه محلقات، وهو نوع من النقود الفضية التي ضربت في مكة، وهو في اصطلاح بعض العامة الدراهم والدنانير، (النجم ابن فهد: إتحاف الورى، ج٤/ص٤٩٩، العز بن فهد: غاية المرام، ج٢/ص٥٣٩ـ الهامش، الزهراني: أسعار المواد الغذائية بمكة، ص١١٠).

(٣) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٤/ص٤٩٩.

(٤)العز ابن فهد: بلوغ القرى، الورقات، ٥٢ب، ٦٢أ، ٧٢ب، ١٢٩ب.

(٥) المُدّ: بالضم وجمعه أمداد ومداد ومدد، وهو توع من المكاييل التي كانت شائعة الإستعمال في الحجاز.. وقال ابن الرفعة: «المد يتركب من الرطل، ومعنى ذلك أن الرطل داخل في تقدير وزن مايتسعه حجم المد من المكيلات» (ابن الرفعة، أبي العباس نجم الدين: الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، تحقيق، محمد أحمد إسماعيل الخاروف، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، (دمشق، دار الفكر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٥٦.

(٦) المن: وحدة من وحدات الوزن القديمة بمصر التي استخدمها اليهود ا لعبرانيون، ويختلف تقديره حسب وجوه استعماله في الدولة الإسلامية، وقد حدده الفاسي بإثنى عشر أوقية (٢,٥) رطل مصري (مبارك، علي باشا: الميزان في الأقيسة والميزان ، ص٢٨، الزهراني: أسعار المواد الغذائية بمكة، ص١١٠، الفاسي، العقد الثمين، ج١/ص٢٠٨ ـ ص٢٠٩) .

وقد مرّت مكة طوال العصر المملوكي بسنوات من الرخاء والشدة، فحينما يكون الأمن والإستقرار مستتباً فيها، بالإضافة إلى هطول الأمطار، وقدوم الهبات والصدقات من السلاطين والأمراء وغيرهم، وتأمين الطرق في البر والبحر، تنعم مكة وأهلها والحجاج بالهدوء والأمن، والرخاء وترخص الأسعار فيها. وحينما تمر مكة بسنوات من القحط والمجاعة والغلاء يكون مرد ذلك إما بسبب السيول والأوبئة، أو انقطاع الحاج ومبرات السلاطين والأمراء، وانعدام الأمن فيها من اندلاع الفتن ونهب التجار والقوافل، وزيادة المكس عن عادته.

وطبيعة البحث لاتسمح بتتبع واستطراد جميع ماذكرته المصادر من المعلومات عن تلك السنوات واستقصاء الحديث عنها، ومع ذلك فلعل من المناسب الإشارة إلى نماذج من ذلك لما لها من تأثير في الحياة الإقتصادية، انعكس أثره على الحياة العلمية والنشاط الفكري عامة.

ففي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م حجت من الشام عمة صاحب ماردين[١]، وكان لها محمل كبير وسبل وتصدقت بمال كثير، وانتفع بها الحاج وأهل الحرمين وأميراهما.[٢]

وفي سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م كان الرخاء كثيراً بمكة، حيث بيعت غرارة القمح بثمانين درهماً، وغرارة[٣] الشعير بخمسين درهماً، إلا أن الماء كان قليلاً ... فأغاثهم الله بمطر

---

(١) ماردين : قلعة مشهورة محصنه ، تشرف على دنيسر ، بها اسواق كثيرة وخانات ومدارس ، فتحها المسلمون في أيام الخليفة عمر بن الخطاب (ياقوت : معجم البلدان ، ج٥ /ص ٣٩، وصاحب ماردين هو الملك السعيد شمس الدين داود بن الملك المظفر فخرالدين ألبي أرسلان بن الملك السعيد شمس الدين قرا أرسلان بن أرتق الأرتقي. (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨/ص٥٨).

(٢) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٢٧.

(٣) الغرارة: مكيال لأهل الشام، يتألف من ١٢ كيلاً أو ٧٢ مداً، (القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٨١)، وقدرها المقريزي بالنسبة لأهل الحجاز «بسبع ويبات مصرية » ، (السلوك، ج٣/١:ص١٠)، وقدرها الفاسي بالنسبة لأهل مكة بأنها ٢,٥ غرارة مكية، (شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٤)، وجاء في المعجم الوسيط، الغرارة وعاء من الخيش يوضع فيه القمح وغيره، وهو أكبر من الجوالق وجمعها الغرائر، (المعجم الوسيط، ج٢/ص٦٧٢).

عظيم رووا منه.[1] وفي سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م «أرسل السلطان المملوكي الناصر حسن عسكراً بمكة، انصلح بهم حالها وارتفع عنها الجور وانتشر العدل بها، واسقط المكس من المأكولات، وجلبت الأقوات فرخصت فيها الأسعار».[2]

وفي سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م كان بمكة غلاء شديد، وعدمت الحبوب والتمور وغيرها من المأكولات حتى أكل بعض الناس لحم الحمير الميتة، وهلك كثير من الناس جوعاً، ونزح أكثر أهلها عنها، ثم فرَّج الله عن الناس بصدقة بعث بها الأمير يلبغا الخاصكي (ت ٧٦٨ هـ - ١٣٦٦ م)[3]، حيث جهز كثيراً من القمح وواصل إرساله ونجدته لأهل مكة، فعم النفع بها، وتعرف هذه السنة عند المكيين بسنة أم جرب.[4]

وفي سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م أرسل الأمير جركس الخليلي[5] قمحاً كثيراً لأهل الحرمين، ليعمل منه في كل يوم بمكة خمسمائة رغيف، وبالمدينة كذلك، تفرق على الفقراء وغيرهم[6]، وفي هذه السنة كانت مكة رخيصة الأسعار.[7]

---

(١) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٦٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣/١: ص٤٨، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٧٦ - ص٢٧٧.

(٣) من كبار دولة أستاذه السلطان الناصر حسن بن قلاوون ، وأنتهت اليه الرياسه في دولة الأشرف شعبان ولقب نظام الملك وصار له الأمر والنهي ، وكان صاحب الفضل في رد غروة الأفرنج عن الأسكندرية سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م (ابن حجر : (الدرر الكامنه ، ج ٤ /ص ٤٣٨ ، أبن تغري بردي : النجوم الزاهره ، ج١١ / ص ٣٦ - ص ٤٠ ، الدليل الشافي ، ج ٢ /ص ٩٧٣ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٢ /ص ٧٩٣) .

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص٢٠٩، شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٧، المقريزي: السلوك، ج٣/١: ص٩٧، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٠٢.

(٥) جركس بن عبدالله الخليلي: صاحب الخان المشهور بالقاهرة، مات قتيلاً سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م، (المقريزي: السلوك، ج٣/٢:ص٦٨٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١/ص٣٨٣، الدليل الشافي، ج١/ص٢٣٣).

(٦) المقريزي: السلوك، ج٣/٢: ص٥٣٦، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٤٨.

(٧) المقريزي: السلوك، ج٣/٢: ص٥٣٨، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٤٩.

وفي سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م أرسل الملك المؤيد صاحب مصر صدقة من القمح، وتولى تفريقها الأمير تغري برمش التركماني[١] بمكة.[٢]

ومن سنوات الكوارث، سنة ٦٥١هـ/١٢٥٤م حيث كثر الحجاج في تلك السنة، وحصل للناس في أيام الموسم عطش شديد، واشتد الغلاء بسبب قلة المياه.[٣]

وفي سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م كان بمكة فناء عظيم وبلغ عدد الموتى من أول رجب إلى السابع والعشرين منه ألف جنازة، كما نهب في تلك السنة حجاج المغرب.[٤]

ومما وقع من قحط في سنوات ٦٧٦هـ/١٢٧٧م[٥] و ٦٨٣هـ/١٢٨٤م[٦] و ٦٩٥هـ/١٢٩٥م[٧] بسبب ندرة الأمطار، فاشتد الغلاء بمكة وبلغ مبلغاً لم يسمع بمثله منذ دهر طويل.[٨]

---

(١) تغري برمش بن يوسف بن المحب التركماني القاهري، قرَّبه المؤيد وأكرمه، وكان يقوم بتوزيع الصدقات التي تصله من السلاطين، وقد قدم مكة في سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م، وأقام بها إلى أن مات، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ص٣١ - ص ٣٢) .

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٣/ص٣٨٣، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٥٢١.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ص٣٠، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٧٥.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص٢١٠، شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٣، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٠٢.

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٠٨.

(٦) ن. م. س. ج٣/ص١١٦.

(٧) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر، (القاهرة، مؤسسة ناصر للثقافة، بدون ت)، ص٧١، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٢٨.

(٨) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص٧١.

وفي سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م استنجد أمير مكة عطيفة بالسلطان الناصر وأخبره بقحط مكة لعدم نزول الأمطار، فأرسل إليهم القمح وتصدق به فرخصت الأسعار.[١]

وفي سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م منع الجلاب[٢] من الوصول إلى مكة، وحصل في هذه السنة غلاء عظيم في أيام الحج، بسبب كثرة الحجاج الشاميين، كما حصل للحجاج في هذه السنة مشقات كثيرة من قلة الماء وغلو الأسعار، وهلك كثير من المشاة.[٣]

وفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م عمَّ الوباء جميع مدن الحجاز وقراها، ووقع غلاء شديد بمكة.[٤] وهذا الوباء كان يشمل أيضاً جميع البلدان الواقعة على البحر المتوسط، وقد أفاضت كتب التاريخ بأخباره.[٥]

وفي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م اشتد الغلاء بمكة، فلما قدمت الرجبية[٦]، انخفضت قليلاً، ثم ارتفعت مع قدوم الحجاج، وعظمت المشقة في الرجعة إلى القاهرة من غلاء الأسعار، وحصل بالحرمين وغيرها من بلاد الحجاز في آخر السنة قحط عظيم، ومات كثير من الأشراف وغيرهم جوعاً، وأكلت الجلود.[٧]

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢/١: ص٢٣٨، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص١٧٦.

(٢) الجلاب: مفردها جلبة، وهي نوع من السفن الصغيرة المخيطة التي لاتستعمل في صنعها المسامير، وتستعمل في البحر الأحمر، وهي مراكب للتجارة بين عدن والحجاز، (ماهر، سعاد: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، (القاهرة، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧م)، ص٣٣٨، وأنظر كذلك ص١٩٠.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص٤١٦ ـ ص٤١٧، المقريزي: السلوك، ج٢/٣: ٦٦٠، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٢٧.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٦، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢٣٨.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٣/٢: ص٧٥٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠/ص١٩٩.

(٦) الرجبية: المقصود بها القادمين لأداء عمرة رجب.

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٣٧.

ومن حوادث سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م وقوع الغلاء بمكة، كما حلّ بها وباء، بلغ الموتى فيه أربعين نفراً في بعض الأيام[١]، وماحصل فيها من فتنة بين الأشراف حيث انعدم الأمن ونهبت الأموال، ونهب حجاج اليمن وحجاج مصر نهباً فاحشاً.[٢]

على أن مكة لم تعرف غلاءً أفظع من الذي حصل في سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م فقد حصل بمكة قحط عظيم، وفقدت جميع المأكولات، فأكل الناس القطط والجرذان حتى انعدمت فأقبلوا على أكل بعضهم وكثر الخوف حتى امتنع الكثير من البروز إلى ظاهر مكة خشية أن يؤكل.[٣]

أما المدينة المنورة فهي أفضل من الناحية الزراعية من مكة، وتستطيع أن تؤمن أقواتها[٤]، خاصة من التمور التي تعد مورداً مهماً لأهلها، وأن تستغني عن أن تجلب من خارجها كثيراً من الضروريات، وكان أهلها يمارسون إلى جانب الزراعة التجارة، حيث يتجرون مع سكان البادية المحيطة بالمدينة، كما يتجرون مع قوافل الحجاج والتجار الذين يفدون من مكة[٥]، وهي لاتختلف عن مكة من حيث موردها المالي عن طريق إقامة الحجاج والزوار بها.

أما مصادرها الخارجية فإنها كانت تأتيهم عن طريق البحر بميناء ينبع[٦]، بالإضافة إلى ما يصلها مع حجاج مصر والشام من المنسوجات وغيرها من السلع، كما أن

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص٢١٠. شفاء الغرام، ج٢/ص٤٣٧، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٧٩.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٦/ص٢٠٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤/١: ص٥٠٩.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٢٩٤.

(٥) ن. م. س. ج٤/ص٣٠٦.

(٦) الجاسر: مقتطفات من رحلة العياشي، (ماء الموائد)، الطبعة الأولى، (الرياض، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٣٥.

السلاطين والأمراء لم يهملوا هذه المدينة في صدقاتهم وأعطياتهم وإسقاط المكوس والضرائب، بل ربما عملوا فيها من الخيرات أكثر مما عملوه بمكة.[(١)]

ففي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م أوقف السلطان الملك الصالح إسماعيل على خدام المسجد النبوي ومنبر المسجد أوقافاً غير أوقاف أبيه بمصر.[(٢)]

كما قام الظاهر برقوق بإرسال القمح عدة سنين لمكافحة الغلاء والقحط، بواسطة الأميرجركس الخليلي، وتمّ تفريقها على أهل الحرمين.[(٣)]

كما جرت على يدي تغري برمش التركماني كثير من الصدقات التي عمّت الحرم المدني الشريف منها صدقة من القمح سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م وصدقة أخرى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م.[(٤)]

وقام السلطان قايتباي أثناء قدومه للحج سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م بإسقاط المكوس عن أهل المدينة وعوض أميرها ألف أردب[(٥)] من القمح، وفرق الذهب على فقرائها وفقهائها وعلمائها.[(٦)] وأوقف قرى في مصر يحمل ريعها إلى المدينة.[(٧)]

---

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٨١.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢/٣: ص٦٣٣، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٦٣.

(٣) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٤٨، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٣٦٧.

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ص٣٨٧.

(٥) الأردب: من مكاييل المسلمين، ساد استخدامه في مصر والحجاز، وقدره ابن الرفعة بست ويبات كل ويبة أربعة أرباع، فجملته أربعة وعشرون ربعاً والربع أكثر من الصاع، (الإيضاح والتبيان، ص٧٣)..

(٦) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٣/ص٤١١، السمهودي : وفاء الوفا ،ج٢/ص٦٤٤، ص٧١٤، النهر والي: الأعلام، ص٣٣٢.

(٧) السمهودي: وفاء الوفا ، ج٢/ص٦٤٤.

ولما حج ابن السلطان الأشرف قانصوه الغوري وزوجته سنة ٩٢٠هـ/١٥١٥م تصدقا بمال عظيم وفعلا من البر والمعروف والإحسان في الحرمين الشريفين ما يجل عن الوصف.[(١)]

وكانت حال المدينة الإقتصادية عموماً أحسن من حال مكة، لقلة عدد سكانها وكثرة عيونها وآبارها، ولقربها من القرى الزراعية، فكثر محصولها من التمور، واستفادت كثيراً من عرب البادية الذين يحملون إليها السمن والعسل والألبان وغير ذلك من المأكولات.

أما معاملاتها المالية فهي كمعاملات مصر ومكة بالدنانير والدراهم، ومكيالها المن والمد وقياس قماشها بالذراع الشامي.[(٢)]

أما جدة فقد كان لها دور مهم في الحركة التجارية في العصر المملوكي، حيث كانت بوابة الحجاز للوافدين إليها من مصر وأفريقيا والمغرب وبلاد السودان.[(٣)] وكانت تتأثر كثيراً حينما تتدهور الأوضاع السياسية بمكة، فيُنهب التجار والجلاب وتصادر جميع أموالهم.[(٤)]

وقد ازداد نصيب جدة من التجارة الدولية في بداية القرن التاسع الهجري، وازدادت المبالغ التي كان يجبيها الأمراء من المكوس، حتى صارت مورداً مالياً مهماً لهم.[(٥)]

---

(١) العيدروسي: النور السافر، ص٩٧ ـ ص٩٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ص٣٠٦.

(٣) مورتيل، ريتشارد: الأحوال السياسية والإقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الطبعة الأولى، (الرياض، مطابع جامعة الملك سعود، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص٧٥.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ج٧/ص١٢٣، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٢١١، ص٢٦٨، ص٢٩٤، ص٣٦١.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ج٤/ص٩٥، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٤٢٠.

ويدلنا على ذلك قول ابن شاهين الظاهري: «وهي ميناء مكة المشرفة ترد إليها المراكب بالبضائع، وهي من أعظم المواني، وربما يردها في كل سنة نيف عن مائة مركب، من جملة ذلك مركب بسبعة قلوع وتؤخذ الموجبات والرسوم تحمل إلى صاحب مكة، وكان الملك الأشرف برسباي يشاركه في أخذ نصيب من ذلك، ويقال أن متحصلها مئتا ألف دينار في كل سنة، وربما يزيد وينقص».(١)

لذلك عمد المماليك إلى جعل الميناء تحت إشرافهم مباشرة، وجعلوا نظارته وظيفة سلطانية، ولتأكيد سلطان ناظر جدة ـ وضع تحت تصرفه كتيبة من جند المماليك تشد أزره في حال تعرض جدة لهجوم من قبل أشراف مكة، وقد أدى ذلك إلى ازدهار جدة، وأصبح يقصدها عدد كبير من السفن بعد أن كان النشاط التجاري وقفاً على عدن.(٢) وصارت الأموال تحمل إلى مصر.(٣) ويرجع هذا الإزدهار الإقتصادي إلى حسن المعاملة التي كان يلقاها التجار في جدة على عكس ما كانوا يجدونه في عدن(٤)، وكذلك وقوف سلاطين المماليك في وجه ملوك الرسوليين الذين أرادوا منع وصول السفن إلى جدة، ومضاعفة الضرائب المفروضة على البضائع القادمة من عدن(٥)، فقام المماليك بمنع السفن

---

(١) زبدة كشف الممالك، ص١٤.

(٢) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٦٢٠ ـ ص٦٢١.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٧٠٧، الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٤، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٦٢١، وقد انتقد تلك السياسة الإقتصادية المقريزي بقوله: «فجاء للناس ما لاعهد لهم بمثله، فإن العادة لم تزل من قديم الدهر في الجاهلية والإسلام أن الملوك تحمل الأموال الجزيلة إلى مكة لتفرق في أشرافها ومجاوريها، فانعكست الحقائق، وصار المال يحمل من مكة، ويلزم أشرافها بحمله إلى القاهرة» (السلوك، ج٤/٢: ص٧٠٨).

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٦٨١، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٦٢١.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٦٨١، مورتيل: الحياة السياسية والإقتصادية في العصر المملوكي، ص١٨٢.

اليمنية من الرسو في جدة وينبع، ومصادرة البضائع القادمة من اليمن[١]، وعاملت التجار الهنود والصينيين وغيرهم أحسن معاملة.[٢]

إلا أن هذا الإزدهار لم يدم طويلاً بسبب محاولة السلطان برسباي فرض رسوم إضافية على البضائع، علاوة على ضريبة العشر[٣]، بالإضافة إلى إجبار التجار بالقدوم إلى القاهرة مع ركب الحاج المصري لتؤخذ منهم المكوس[٤]، واتخذ سياسة احتكارية في بيع السلع[٥]، مما أدى إلى اتجاه التجار مرة أخرى إلى ميناء عدن.

وفي عهد السلطان جقمق عاد الهدوء ونشطت حركة التجارة بها، خاصة حينما تولى نيابة جدة جانبك الظاهري الخاصكي[٦]، الذي طبق سياسة حاسمة تجاه التجار بمكة وجدة.[٧]

---

(١) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٤/ص٨٠.

(٢) فهمي: طرق التجارة الدولية، ص١٣٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٩٢٩.

(٤) ن. م. س. ج٤/٢: ص٧٥٤ ـ ص٧٥٥، النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٤/ص٤٣.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٤/٢: ص٧٩١.

(٦) هو الأمير سيف الدين جانبك بن عبدالله الظاهري الدوادار الكبير الخاصكي المعروف بنائب جدة، له كثير من المآثر بمصر والحجاز، قتل بيد الجلاب سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م، (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦/ص٣٢٠ ـ ص٣٢٤، السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ص٥٧ ـ ص٥٩).

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٤/ص٢٦٦ ـ ص٢٦٧.

ولم يكن النواب الذين تولوا أمر جدة من بعده، يتميزون بحنكة وحسن تدبير هذا النائب، مما ترتب عليه إعراض عدد كبير من تجار الهند عن السفر إلى جدة، وتوجيه نشاطهم إلى عدن.[١]

وأخيراً أدت المنازعات بين أشراف مكة للوصول إلى الأمارة إلى تخريب العمران وتدميره بجدة[٢]، بالإضافة إلى تعسف النواب في جباية العشور، والتهديد البرتغالي للتجارة الإسلامية[٣]، واكتشاف طريق الرجاء الصالح ـ كل ذلك أدى إلى نهاية جدة كثغر تجاري.[٤]

أما ينبع فهي الميناء الثاني بعد جدة على البحر الأحمر، والمحطة البرية والبحرية لحجاج مصر والشام، خصوصاً أولئك الذين يريدون مسجد رسول الله ﷺ قبل أو بعد حجهم إلى البيت الحرام بمكة، فصارت سوقاً مهماً لبيع وشراء مختلف السلع، حتى بلغ من ازدهارها أن قدّرت عائداتها من التجارة بثلاثين ألف دينار سنوياً.[٥]

ويعزى انتعاش التجارة في ينبع إلى انعدام الأمن وسوء المعاملة التي كان يلقاها أصحاب السفن التجارية عند رسوهم بجدة الأمر الذي دعاهم إلى البحث عن ميناء آخر، وقد وجدوا في ينبع ظالتهم المنشودة[٦]، غير أن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما أن احتلت جدة مكانتها الأولى.

---

(١) مورتيل: الحياة السياسية والإقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص١٨٩.

(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ورقة ١٢٩ب ـ ورقة ١٣٠أ.

(٣) مورتيل: الحياة السياسية والإقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص١٩٢.

(٤) خفاجي: موقف مصر من الحجاز، ص١٢٧.

(٥) الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص١٦.

(٦) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٣٨٩، ص٤٠١.

إلا أنها كذلك لم تنج من الفتن والقلاقل التي أحدثت مجاعات وويلات وخراباً عطل هذا الميناء، وقطع موارده التجارية، كما لاحظنا في الجانب السياسي عنها.

أما الطائف فلاشك أن تنوع المناخ وخصوبة الأرض بها، أدى إلى انتشار الزراعة وتنوع المحاصيل الزراعية في هذه المدينة، وبالتالي أصبحت هذه الحرفة من الحرف التي تميّزت بها الطائف على سائر مدن الحجاز.

ويعزو ابن جبير السبب في عمران الطائف وكثرة مزارعها إلى هجرة المغاربة ذوي البصارة والفلاحة والزراعة، فأحدثوا فيها بساتين ومزارع، فكانوا أحد الأسباب في خصب هذه الجهات[1]، وقد أشار ياقوت بكل وضوح إلى امتهان سكان الطائف حرفة أخرى إلى جانب الزراعة، وهي الدباغة، حيث قال: «والوادي الذي بين طائف ثقيف ووهط[2] تجري فيه مياه المدابغ التي يدبغ فيها الأديم، ويصرع الطيور رائحتها إذا مرت بها»[3].

وقد أوردت كثير من المصادر القديمة والمعاصرة لفترة البحث[4]، الأهمية الإقتصادية لهذه المدينة بالنسبة إلى مكة، حيث كانت الممول الرئيسي الأول لمكة في الفواكه والخضروات والحيوانات ومنتجاتها والعسل وغيرها من السلع، ولكن انقطاع الأمطار عنها في بعض السنين، هذا بالإضافة إلى انتشار الأوبئة والأمراض بها كان له انعكاسه وتأثيره في غلاء الأسعار بمكة في تلك السنين.[5]

كما ساعد على النشاط الإقتصادي بهذه المدينة، اتخاذ كثير من أهالي مكة من المجاورين والعلماء والأعيان وأصحاب الأموال - الطائف - مصيفاً لهم، وقاموا بشراء كثير من الأراضي والبساتين لتوقف على الأعمال الخيرية بمكة.

---

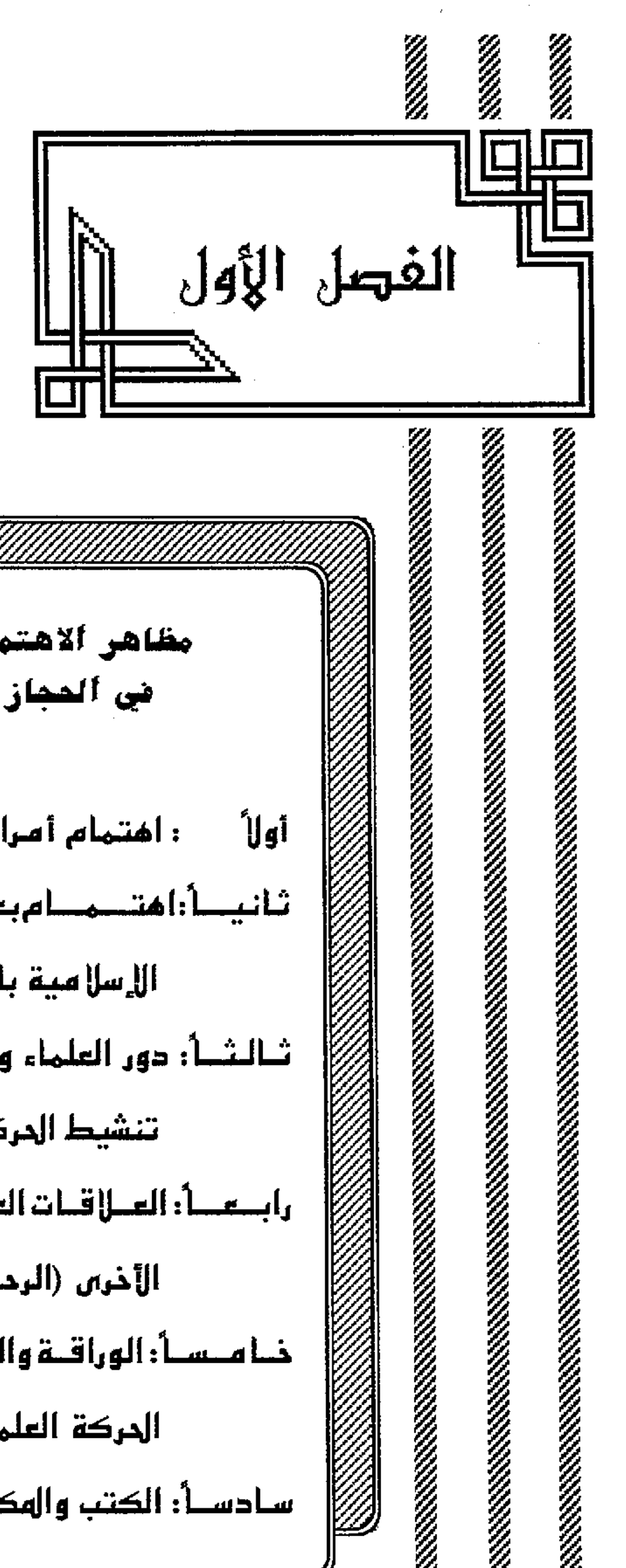
(١) الرحلة، ص١١١، هذا وإن كانت الطائف معروفة منذ القدم بانتاجها الزراعي الوفير قبل قدوم المغاربة.

(٢) وَهْط: بفتح أوله وسكون ثانيه، وطاء مهملة، المكان المطمئن المستوي ينبت العضاه والسَّمر والطلح، وهو قرية بالطائف على ثلاثة أميال من وج، (ياقوت: معجم البلدان، ج٥/ص٣٨٦).

(٣) معجم البلدان، ج٤/ص٩.

(٤) الأصطخري: المسالك والممالك، ص٢٧٤، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٩، ابن جبير: الرحلة ص١٢٢، ياقوت، معجم البلدان، ج٤/ص٨ - ص٩، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص١٦٠.

(٥) النجم بن فهد: إتحاف الورى، ج٣/ص٩٠ ، ص١٠٢، ص١٠٨.



الفصل الأول

مظاهر الاهتمام بالحركة العلمية في الحجاز خلال هذه الفترة

أولاً : اهتمام أمراء الحجاز بالحركة العلمية.

ثانياً: اهتمام بعض سلاطين وأمراء الدولة الإسلامية بالحركة العلمية في الحجاز.

ثالثاً: دور العلماء والعالمات والأعيان والعامة في تنشيط الحركة العلمية.

رابعاً: العلاقات العلمية بين الحجاز والأطراف الأخرى (الرحلات العلمية).

خامساً: الوراقة والوراقون ودورهم في تنشيط الحركة العلمية.

سادساً: الكتب والمكتبات.

أولاً : اهتمام أمراء الحجاز بالحركة العلمية:

هناك عوامل وأسباب تؤدي إلى نهضة العلوم وتنشيط الحركة الفكرية لدى الأمم والحضارات ، ومن خلال ملاحظة ذلك في التاريخ والحضارة الإسلامية نجد أن الخلفاء ، أو السلاطين ، أو الأمراء ، أو الوزراء ، كان للبعض منهم الدور الأساسي والفعال في قيام ونهضة أي حركة علمية عرفت في العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه ، وفي كل العصور ، على الرغم من الإختلاف بين أمصار العالم الإسلامي في قوة وضعف الحركة العلمية وفي تبني الخلفاء والحكام والأمراء والوزراء لذلك ـ إيجاباً أو سلباً ـ فهناك مناطق أو دول أو أمصار ، قامت بها نهضة علمية قوية تمثلت في كثرة العلماء في كافة العلوم والتخصصات ، وما أسهموا بها ، وما أبدعوه من جديد في كافة حقول المعرفة . وهناك أصقاع في العالم الإسلامي قامت بها نهضة علمية ولكن لم تصل إلى ذلك المستوى الذي نتج عنه إبداع وإسهامات جديدة . هذا وذاك يدخل ضمن عوامل داخلية وخارجية ، قد يكون للمسألة السياسية بعض التأثير ، ولكن الموجه الحقيقي لها دائماً هو التنافس بين الخلفاء ، أو الأمراء ، أو الوزراء في استقطاب العلماء وتشجيعهم ، بالإضافة إلى التوجه المذهبي ، والفكري لدى هؤلاء العلماء ومشجعيهم .

لذلك فإن اهتمام الحكام بوجه عام نجده يبرز في عدة مظاهر من أهمها :

١ ـ إهتمامهم بالعلم : فقد كان الكثير منهم من محبيه ومريديه ، والمشاركين فيه، بل إن منهم من برز وأصبح من مشاهير علماء عصره ، وممن يرجع إليه ، رواية ، وفتياً ، وعلماً .

٢ ـ تقريبهم للعلماء والإهتمام بهم وإكرامهم وتبجيلهم ، وإشراكهم في المجالس العلمية.

٣ ـ إنفاقهم غير المحدود من أجل دفع عجلة العلم ، وذلك بإنشاء دور العلم ، كالمدارس والكتاتيب ، والأربطة ، وتزويد دور الكتب . وكافة نواحي الإنفاق التي تتخذ شكلاً رسمياً أو أوقافاً خيرية ، أو هبات ، فوجود هذه العوامل يساعد على إزدهار النشاط العلمي .

وقد كان لبعض أمراء الحجاز أثرٌ في ازدهار الحركة العلمية ، ولكن هذا الدور لم يكن بصورة كبيرة ، ويعود ذلك إلى عدم الإستقرار السياسي في الحكم ، وإنشغالهم بالحروب والفتن التي وقعت بينهم ، كما رأينا في الحياة السياسية .

إذ أنه خلال فترة البحث لم نلاحظ إلا القليل منهم ، ممن كان له إهتمامات علمية ، بل أن منهم من كان له مواقف أثرت على العلم والتعليم والعلماء بشكل سلبي ، في الوقت الذي كان يجب عليهم دفع حركة التعليم ، لاسيما وأنهم يحكمون منطقة كان يجب أن يكون لها الدور الأساسي في توجيه الحركة الفكرية ، على الأقل في مدن وأرياف هذه المنطقة .

ولكن على الرغم من ذلك ، فالمصادر تذكر لنا البعض منهم ، ممن كان لديه توجه علميٌّ جيد، ورغبة في العلم . فقد كانت مجالسهم في العهد المملوكي ندوة لكبار العلماء تتجلى فيهم روح البحث العلمي ، وكان بعض منهم يتمتع بالذكاء والحرص على مجالسة العلماء طلباً للعلم لشغفهم به . كما حدّث بعض منهم بمكة المكرمة ومصر .

ومن أشهر تلك المجالس مجالس حسن بن عجلان ، وابنه بركات ، وحفيده محمد ، فكانوا من أمراء مكة في هذا العهد ، حيث كانوا يتميزون بكفاءة علمية فائقة . وكان لهم دور رائد في تنشيط الحركة العلمية بالحجاز . وسوف نتتبع إهتمام أمراء الحجاز بالحركة العلمية حسب سنى وفاتهم .

فعجلان بن رميثة بن أبي نمي (ت ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥م) كان من أمراء مكة المكرمين لأهل السنة[١] ، ويتمثل إهتمامه بالتعليم في إنشائه مدرسة بالجانب الشمالي من المسجد الحرام ، أمام مدرسة الملك المجاهد[٢] . وقد مدحه جماعة من الشعراء ،

---

(١) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ١٥٢ .

(٢) الفاسي ، العقد الثمين ، ج ٦ / ص ٧١ ، وسوف يأتي الحديث عنها وعن غيرها من المدارس .

منهم الشاعر المعروف بالنشو[١] ، وغيره[٢] . وحينما حضره الموت أوصى قاضي مكة أبا الفضل النويري [٣] بتولى غسله والصلاة عليه مع فقهاء السنة[٤] .

أما إبنه حسن بن عجلان (ت ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م) فقد كان من أفاضل الأمراء الذين عرفتهم الفترة في حكم مكة ، فقد وجد فيه علماء مكة ومجاوريها الكثير من الخير ، وأهتم بهم كثيراً ، وقربهم إليه وكانت أيامه أيام بركة وأمن واستقرار ونماء[٥] . وقد رحل إلى القاهرة أكثر من مرة ، وكان قدومه هذا إما لطلب السلطة أو للإستزادة في العلم[٦] . ومن العلماء الذين تلقى على أيديهم العلم سواء في مكة أو القاهرة ،

---

(١) النشو ، يحيى بن يوسف بن محمد بن يحيى المكي ، ويلقب محي الدين المعروف بالنشو ، شاعر مشهور بمكة ، توفي سنة (٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م) بمكة (الفاسي : العقد الثمين ، ج ٧ / ص ٤٥٢ ـ ص ٤٥٣) .

(٢) العصامي ، عبد الملك بن حسين : سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي ، (المطبعة السلفية ، بدون ت) ج ٢ / ص ٢٤٥ .

(٣) أبا الفضل النويري ، محمد بن أحمد كمال الدين ، قاضي مكة وخطيبها وعالمها ، سمع بمكة والمدينة ، ورحل في طلب الحديث ، وليّ عدة وظائف بمكة لم تجتمع لأحد قبله ، ودرّس وأفتى وحدّث ، توفى بمكة سنة (٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م) . (انظر ترجمته في الفاسي : العقد الثمين، ج ١ / ص ٣٠٠ ، ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد ، تحقيق محمد صالح عبدالعزيز المراد ، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، الطبعة الأولى (مكة ، جامعة أم القرى ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م) ج ١ / ص ٨١ ـ ص ٨٢ ، ابن حجر : إنباء الغمر ، ج ١ / ص ٢٩٦ ، الدرر الكامنة ، ج ٣ / ص ٣٢٦ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٤٧٤) .

(٤) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ١٥٢ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ / ص ١٥٥ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٥٤ .

(٦) السخاوي : الضوء اللامع . ج ٣ / ص ١٠٤ ، العزابن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٥٢ .

العديد من الشيوخ منهم البرهان بن صديق (ت ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م)[١] . وأبو بكر بن الحسن المراغي (ت ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م)[٢] ، والعراقي (ت٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م)[٣] وأبو اليمن الطبري (ت٨٠٩هـ/

---

(١) ابراهيم بن محمد بن صديق بن ابراهيم الدمشقي الشافعي ، نزيل مكة والمجاور بالحرمين ولد بدمشق سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م . حدّث بمكة والمدينة وحلب ودمشق ومصر ، وطرابلس والشام ، وبيت المقدس ، وسمع عليه كثير من الطلاب والعلماء (انظر ترجمته في : الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٢٥٠ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٢ / ص ٢٧٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ / ص ١٤٧ ، التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ١٣٦ ، ابن العماد ، ابي الفلاح عبد الحي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، الطبعة الأولى (دار الفكر ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م) ج ٧ / ص ٥٤ ـ ص ٥٥ .

(٢) نزيل المدينة ومحدثها ، جاور بمكة سنة ٨١٤ هـ / ١٤١١ م و ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م . وأشهر من سمع منه التقي الفاسي وابن حجر والمحب الطبري (انظر ترجمته في : ابن قاضي شهبه ، أبي بكر بن أحمد : طبقات الشافعية، تحقيق ، عبدالعليم خان ، (بيروت ، دار الندوة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م) ، ج ٤ / ص ٣٣٨ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٣ / ص ٢٣ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١١ / ص ٢٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ١٢٠ ، البغدادي ، اسماعيل باشا : هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون ، (بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م) ج ١ / ص ٢٣٦ .

(٣) عبد الرحيم بن حسين زين الدين العراقي ، المجاور بمكة ، وقاضي المدينة ، ولد سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م ، له عدة مؤلفات خاصة في علم الحديث (انظر ترجمته في : ابن الجزري ، شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد : غاية النهاية في طبقات القراء ، تحقيق . ج. براجسترار ، الطبعة الثالثة (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) ، ج ١ / ص ٣٨٢ ، ابن فهد، التقي محمد بن محمد : لحظ الإلحاظ بذيل طبقات الحفاظ ، مطبوع مع ذيول تذكرة الحفاظ للذهبي (دار إحياء التراث العربي) ، ص ٢٢١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٧١، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) ج ١ / ص ٣٦ ، البغدادي : هدية العارفين ، جـ ١ / ص ٥٦٢ .

١٤٠٦م)[١] وأبو الطيب السحولي (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م)[٢] وغيرهم من العلماء[٣] .

وكان يجل العلماء ويكرمهم ، فهذا محمد بن موسى بن عائذ الوانوغي المكي (ت ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م)[٤] الذي قدم مكة سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م من ضمن العلماء المكرمين لديه ، وكان يقبل شفاعاته لحسن منزلته بين الناس[٥] ، وكذلك علي بن محمد يحيى البعداني (ت ٨٣١ هـ / ١٤٢٧ م)[٦] الذي كان يجله ويوقره، حتى قال عنه : «مارأيت في المشايخ أعرف بأحوال الطوائف على إختلاف طبقاتهم منه»[٧]

---

(١) محمد بن أحمد رضي الدين الطبري ويكتني أبا اليمن ، من علماء مكة ، طلب العلم كثيراً ، وأجاز له كثير من العلماء ، وأسمع بعض مروياته (انظر ترجمته في : الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٢٨٢ ، ابن حجر : انباء الغمر ، ج ١ / ص ٤٦٣ ، الدرر الكامنة ، ج ٣ / ص ٣٠٦ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٢٨٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٨٥) .

(٢) محمد بن عمر بن علي بن عمر المكي أبو الطيب ، المعروف بالسحولي ، نسبة إلى السحول من بلاد اليمن ، ولد سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م . أجاز له عدد كبير من العلماء وصار من المحدثين بمكة (انظر ترجمته في : الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٢٨٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ٢٥١ ، التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٦٩٤).

(٣) العز ابن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٥٢ .

(٤) من العلماء الذين رحلوا إلى اليمن وغيرها من البلدان ، وكان كثير العناية بالعبادة ، وأفعال الخير ، معظماً عند الناس متواضعاً لهم قاضياً لحوائجهم (انظر : ترجمته في : الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٧٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ٥٥) .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٧٦ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ٥٥ .

(٦) هو القائم بعمارة الرباط المشهور به لجهة فرجان امرأة الأشرف بن الأفضل ، وكانت ترسل إليه في كل سنة ما يكفيه . (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٢٦ / ص ٢٧) .

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٢٦ .

. وهذا يدل على حسن مطالعته لكتب الحديث والتاريخ ، حيث حدّث عن كثير من العلماء الذين أخذ عنهم علوم الحديث . وقد خرّج له الحافظ تقي الدين محمد بن فهد الهاشمي المكي (ت٨٧١هـ/١٤٦٦م)[١] عن جماعة منهم أربعين حديثاً عن أربعين صحابياً ، في بعض معجزات المصطفى وفضائل أهل البيت ، سماها « المصابيح المشرقة الزاهرة في معجزات المصطفى ومناقب عترته الطاهرة »[٢]. وقال عمر بن فهد في معجم شيوخه[٣]: «سمعت عليه ثلاثة أحاديث من أولها بقراءة والدي في أوائل سنة ٨٢٦هـ / ١٤٢٢م بالدار المعروفة بدار المكين[٤] بمكة[٥]» ، قال : «وعندي شك هل أجاز لنا أم لا»[٦] .

كما ذكره الفاسي في « نحو كراسين من مكة »[٧] . كما كان حسن بن عجلان حريصاً على حضور مجالس العلماء مع أبنائه[٨] ، فقد حضر مجلس عمدة المقرئين شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد الجزري الدمشقي (ت٨٣٣هـ/١٤٢٩م)[٩] وامتدحه جملة من الأدباء

---

(١) سيأتي الحديث عنه وعن غيره من أسرة ابن فهد في الأسر العلمية .

(٢) العز ابن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٥٢ .

(٣) ذكر ذلك العز بن فهد ، ولم أجد هذه المعلومات في معجم الشيوخ .

(٤) هي الدار المنسوبة لشهاب الدين بن بركوت المكين ، وقد سبقت ترجمته (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ١٥) .

(٥) العز بن فهد : غاية المرام . ج ٢ / ص ٣٥٢ .

(٦) ن . م . س . ج ٢ / ص ٣٥٢ .

(٧) العقد الثمين ، ج ٤ / ص ٨٦ ، ص ١٥٦ ، العز ابن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٥٢ .

(٨) العز ابن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٢٥ .

(٩) إمام مصر والشام ، وأحد المشاهير في علم القراءات بلا منازع (انظر ترجمته في : ابن الجزري : غاية النهاية ، ج ٢ / ص ٢٤٧ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٢٥٥ ، الشوكاني ، محمد بن علي : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (القاهرة ، مكتبة ابن تيمية ، بدون ت) ، ج ٢ / ص ٢٥٧) .

والشعراء والفضلاء ، وأكثروا ، فمنهم : شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد الفاسي المكي (ت ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م)[١]، والد المؤرخ تقي الدين الفاسي بعد أخذه لبلاد حلي[٢] . حيث قال :

عدلت فما يُورى الهلال المشارق لتَنْظُرَهُ بالمغربين الخلائقُ

فما رامح إلا بخوفك أعزَلٌ ولا صامت إلا بفضلك ناطقُ[٣]

كما مدحه الأديب العلامة بدر الدين حسين بن محمد بن العليف المكي (ت ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م)[٤] ، شاعر البطحاء بقصيدة سماها « الدرة الثمينة » وذلك لما أعيد إلى سلطنة مكة سنة ٨١٩ هـ / ١٤١٦ م[٥] .

كما مدحه أديب العصر القاضي شرف الدين اسماعيل بن أبي بكر المقريء الشاوري الشرجي اليمني (ت ٨٣٧ هـ)[٦] بقصيدة قال في أولها :

---

(١) سوف يأتي الحديث عنه في الأسر العلميه .

(٢) حَلْي : بفتح الحاء وسكون اللام ،تقع في الشمال الشرقي من مدينة مخشوش مقر مشيخة كنانه اليوم بحوالي ٤ كم ، وإلى الجنوب من منطقه الصلب الخصبه بحوالي ٣ كم ، وهي تتوسط قرى دلتا وادي حلي الخصبه ، وسكانها في الوقت الحاضر هما الساده العراقيه وقليل من أفراد بني كنانه الذين يشكلون غالبية سكان حلي . الزيلعي ، أحمد عمر : المواقع الإسلامية المندثرة في حلي بن يعقوب ، حوليات كليه الآداب ، الكويت الحوليه السابعة ، الرسالة التاسعة والثلاثون ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ،ص ٢٣ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ ، ص ١١١ ، العز ابن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٥٧ .

(٤) ولد سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩١ م بمكة ، ونشأ بها ، أخذ عن كثير من العلماء في علوم القرآن واللغة والنحو والحديث ، وتقدم في فنون الأدب ، خاصة الشعر (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ١٥٥ ـ ص ١٥٦) .

(٥) العز ابن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٦٣ ـ ص ٣٦٤ .

(٦) الشرجي نسبة إلى شرجة من سواحل اليمن ، والشاوري : نسبة إلى احدى قبائل اليمن شرق المحالب ، ، ولد سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م ونشأ ببلده ، ثم انتقل إلى زبيد ، وأخذ العربية عن علماء عصره ، وحظي بمكانة خاصة لدى ملوك اليمن ، وولي بعض مدارسها ، وعين للسفارة في الديار المصرية ، له عدة كتب منها « عنوان الشرف » ، أراد تقديمه للأشرف ولكنه لم يتم في حياته ، فقدمه لولده الناصر، وهو مشتمل على الفقه والنحو والتاريخ والعروض (انظر ترجمته في: السخاوي : الضوء اللامع ، ج٢/ ص٢٩٢، السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (بيروت : المكتبة العصرية ، بدون ت) ج١/ ص٤٤٤، ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧ / ص٢٢٠، الشوكاني: البدر الطالع، ج١/ ص ١٤٢) .

أحسـنت في تدبيـر ملكـك يا حسـن وأجـدت في تحليل أخلاط الفتـن

فلما وقف عليها الشريف حسن بن عجلان وطالعها ، أعطاه على كل بيت ألف درهم ، وعلى بيت في القصيدة أربعين ألف درهم وهو قوله :

موسى[١] هزبر[٢] لا يطـــاق نزاله في الحرب لكن اين موسى من حسن[٣]

وقد أنفرد حسن بن عجلان عن غيره من أمراء مكة بمآثر كثيرة ، منها : بناؤه رباطاً للفقراء بالقرب من المسجد الحرام[٤] ، وقد أوقفه سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م[٥] ، كما شرع في عمارة رباط بأجياد ملاصق لجدار منزله في سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م[٦] .

---

(١) موسى : صاحب حلي .

(٢) الهِزَبْر : بكسر الهاء وفتح الزاي واسكان الباء الموحدة وبالراء المهملة في آخره ، حيوان على شكل السنور الوحشي وفي قده إلا أن لونه يخالف لونه وهو من ذوات الأنياب ويوجد في بلاد الحبشة ، (الدميري ، كمال الدين محمد بن موسى ، حياة الحيوان الكبرى (بيروت ، دار الفكر ، بدون ت) ج ٢ / ص ٣٨٨ وفي المعجم الوسيط الهزبر : الأسد الكاسر ، ج٢/ص ١٠٢٣ .

(٣) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٢٦٩ – ص ٢٧٠ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ١١٩ ،النجم ابن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٤٢٣ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ١٠٤ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ / ص ٩٦ ، شفاء الغرام ، ج ١ / ص ٣٣٢ ، النجم ابن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٤٢٣ ، العز ابن فهد ، غاية المرام ، ج ٢ /ص ٢٦١ .

(٦) الفاسي ، العقد الثمين ، ج ٤ / ص ١١٥ ، شفاء الغرام ، ج ١ / ص ٣٣٥ ،النجم ابن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٥٠٨ .

كما أستأجر البيمارستان[١] المنصوري الذي أوقفه الخليفة المستنصر[٢] العباسي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م، وذلك باستئجاره لمدة مائة عام من القاضي الشافعي بمكة ، حيث قام بتجديده وتعميره عمارة حسنة ، وأحدث فيه مايحصل به النفع ، وأوقفه على الضعفاء والمجانين في صفر سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م[٣] .

وذكر النجم ابن فهد وابنه العز ، بأن الأمير حسن بن عجلان كان له مدرسة بالقرب من المسجد الحرام ، ولم يعطنا أي تفاصيل عن هذه المدرسة[٤] كما تطوع في سنة ٨١٧ هـ /

---

(١) البيمارستان : بفتح الراء وسكون السين ، كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض أو عليل أو مصاب و (ستان) بمعنى مكان أو دار ، فهي إذاً دار المرضى ، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت (مارستان) . (المقريزي : السلوك . جـ ١ / ٣: ص ٧١٦ ، الهامش . بك ، أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، (بيروت ، دار الرائد العربي ، بدون ت) ص ٤) .

(٢) هو أبو جعفر منصور بن الظاهر بن الناصر محمد ، بويع بالخلافة سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م ، وكان حسن السيرة والإحسان للرعية ، وبنى المدرسة المستنصرية ببغداد سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م ، وتوفى سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م . (انظر ترجمته في : ابن الأثير ، علي بن محمد بن محمد : الكامل في التاريخ ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق ، الطبعة الأولى ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م) ج ١٠ / ص ٤٦٥ ، ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد : الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ، أحمد سيد دراج ، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى . (مكة ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ، ص ١٨٠ ، ص١٨٥ . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ / ص ١٢٢ ، ص ١٧٠ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، ص ٤٦٠) .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ / ص ١٠٤ ، الزهور المقتطفة ، ورقة ٧٢، النجم ابن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص٤٩٦ ، ص ٥٠٧ ، السخاوي : الضوء اللامع . ج ٣ / ص ١٠٤ .

(٤) اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٤٢٣ ، غاية المرام ، ج ٢ / ص ٢٦١ .

١٤١٤ م بمائتي مثقال[١] لتجديد عمارة رباط رامشت فأزال بذلك غالب ما فيه من الشعث وصار حسناً[٢] .

ولم يقتصر دور الأمير حسن بن عجلان على بناء المنشآت العلمية فقط ، بل أوقف لها عدة أوقاف ، حتى تقوم بالصرف عليها وتوفير الامكانيات اللازمة لها . فقد أوقف في سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م[٣] عدة وجاب[٤] بقرى مكة ووادي مَرّ بعضها على رباطه ، وبعضها على رباط ربيع ، وبعضها على رباط الموفق ، وبعضها على رباط العز ، ورباط العباس[٥] . مما يدل على حرصه في استمرار عمل هذه الأربطة للإسهام في تقدم الحركة العلمية بالحجاز .

ومن أمراء مكة الذين كان لهم اهتمام بارز بالحركة العلمية ، بركات بن حسن بن عجلان (ت ٨٥٩ هـ / ١٤٥٤ م) الذي نشأ بمكة في كنف والده ، وقرأ القرآن ، ونشأ

---

(١) مثقال : اسم لما ثقل سواء صغر أم كبر ، وصار في عرف الناس اسماً على الدينار ، ويرجع إطلاق المثقال على الدينار في العصر الإسلامي إلى عهد الخليفة عبدالملك بن مروان سنة ٧٦ هـ / ٦٩٥م ، بعد إصلاحه نظام النقد في الدولة الأموية ، إذ جعل المثقال وحدة الذهب ، وقرر أن يكون وزن الدينار مثقالاً واحداً أي ٦٥ر٥ حبة أو ٢٥ر٤ غرام . (انظر : ابن الرفعة : الإيضاح والتبيان ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ، المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٩٠) .

(٢) النجم ابن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٥٢١ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٥٤ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ / ص١٠٤ ، النجم ابن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٤٥٢ ، وذكر العز بن فهد أوقافه سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م ، غاية المرام . ج ٢ / ص ٢٧٧ .

(٤) الوجاب : بكسر الواو ، ومفردها وجب . مناقع الماء (الفيروزآبادي : القاموس ، ص ١٨١) . وهو نصيب مقرر في ماء العين يقدر باثنتي عشر ساعة (العز ابن فهد : غاية المرام . ج ٢ / ص ٢٨٤ ، الهامش) .

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ج ٤/ ص١٠٤،النجم ابن فهد، اتحاف الورى، ج ٣ / ص٤٥٣،العز ابن فهد: غاية المرام، ج٢/ ص٢٧٧ . وسوف يأتي الحديث عن هذه الأربطة في المبحث الخاص بها.

شريف الهمة سنّي الأفعال[1] ، وكان لتكوينه العلمي ونشأته الثقافية أثر كبير في سلوكه وموقفه من الحركة العلمية ، والجدير بالذكر أن علم الحديث بلغ في عهده منزلة رفيعة ، حيث كان يوليه رعايته وإهتمامه ، فقد درّس وأجاز له الكثير من العلماء[2] ، منهم : البرهان بن صديق (ت ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ هـ) والقاضي زين الدين أبو بكر المراغي (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣ هـ) وعائشة ابنة محمد بن عبد الهادي (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣ م)[3] ، والعراقي (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣هـ) . كما أجازه أشهر علماء هذا العصر أمثال شهاب الدين ابن حجر (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨ م)[4] ، ومجد الدين الشيرازي (ت ٨١٧هـ/

---

(١) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٠٠ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ١٤ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٩٢ - ص ٣٩٤ .

(٢) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٠٠ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ / ص ١٣ . العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٩٣ - ص ٣٩٤ .

(٣) عائشة بنت محمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد المقدسية ، محدثة جليلة ذات سند قويم ، أجاز لها خلق ، كما أجازت لكثير من العلماء وحدثت بالكثير من مسموعاتها ، وأخذ عنها الأئمة ، وتوفيت بدمشق (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٨١ . ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ١٢٠) .

(٤) شهاب الدين ابن حجر العسقلاني ، أشهر وأكبر محدثي مصر في وقته ، ولد سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧١م ، وهو أشهر من أن يعرّف (انظر ترجمته في : المقريزي : درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، تحقيق ، محمد كمال الدين عز الدين علي ، الطبعة الأولى ، (بيروت عالم الكتب ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م) ، ج ١ / ص ٢٣٨ ، ص ٢٥٠ ، التقي بن فهد : لحظ الألحاظ ، ص ٣٢٦ ، ص ٣٤٢ ، النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، تحقيق محمد الزاهي (الرياض ، دار اليمامة ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) ص ٧٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ٣٦ ، الذيل على رفع الاصر أو بغية العلماء والرواة ، تحقيق جوده هلال ، محمد محمود صبح ، ومراجعة على البجاوي ، (القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة ، بدون ت) ص ٧٦ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ / ص ٣٦٣ ، نظم العقيان ، ص ٤٥) .

١٤١٤م)[١]. وغيرهم[٢] .

وكان لإهتمامه بالعلم وخاصة الحديث وشغفه بألوان المعرفة أن كان سباقاً في ميدانها ، فأسهم في إزدهار الحركة العلمية في عصره ، إسهاماً بارزاً ، غير أن المترجمين لم يذكروا كتب الحديث التي حدّث بها ، ويبدو لنا أنه بجهوده العلمية ومشاركته في المجالس العلمية يعدّ من أعظم أمراء الحجاز علماً وأدباً ، كما يعدّ من الأئمة الكبار ، ولا يقل شأناً عمن حدثوا بالصحاح والسنن من علماء العصر ، وحين قدم إلى القاهرة بالغ في إكرامه السلطان الملك الظاهر جقمق[٣] واستقبله استقبالاً حسناً ، وأجلسه بجانبه تقديراً لمكانته ، كما رتب له الرواتب السنية ، ولقي قبولاً حسناً عند علماء القاهرة ووجهائها ، وحدّث بها[٤] ، ولقيه

---

(١) هو محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، إمام عصره في اللغة وصاحب « القاموس المحيط » (انظر ترجمته في : الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٩٢ ، ابن قاضي شهبه : طبقات الشافعية ، ج ١ / ص ٣٩١ ، ص ٣٩٣ ، ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٣ / ص ٤٧ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ٧٩ ، السيوطي : بغية الوعاة ، ج ١ / ص ٢٧٣ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ١٢٦ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ / ص ٢٨٠) .

(٢) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٩٤ .

(٣) الملك الظاهر أبو سعيد جقمق العلائي الظاهري ، تولى السلطنة بعد خلع العزيز يوسف ابن الأشرف برسباي في سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م وتوفي سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ / ص ٢٥٦ ، ص٤٦٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ٧١ ، ص ٧٢) .

(٤) السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، (القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، بدون ت) ص ١٨٥ ، ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج ١ / ص ١٨٨ ، النجم ابن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٥٢ ، السيوطي : نظم العقيان ، ص ١٠٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٢٩٤ .

وسمع منه السخاوي (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م)[١] ، والقلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)[٢] ، والبقاعي (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م)[٣] والسنباطي (ت ٨٩١ هـ / ١٤٨٦م)[٤] . عشرة أحاديث بإجازة من الزين العراقي (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣ م) ، والهيثمي (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م)[٥] ، كما حدّث بمكة بالإجازة عن بعض شيوخه المجيزين له[٦] .

---

(١) هو محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، المؤرخ المشهور صاحب المؤلفات المشهورة في علم التاريخ ، ولد سنة ٨٣١هـ / ١٤٢٧م بمصر ، وهو أشهر من أن يعرّف (انظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ١ ، ص ٣٢ ، ابن الديبع ، عبدالرحمن بن علي : الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد ، تحقيق محمد صالحيه ، (الكويت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) ص ١٠٤ ، العيدروسي : النور السافر ، ص ١٦ ، الغزي ، نجم الدين : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، الطبعة الثانية (بيروت ، دار الآفاق ، ١٩٧٩م) ، ج ١ / ص ٥٣ . ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٨ / ص ١٥ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ / ص ١٨٤) .

(٢) هو أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي ، الأديب المشهور ، صاحب المؤلف المشهور « صبح الأعشى » ولد سنة ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م (انظر ترجمته في : ابن حجر : إنباء الغمر ، ج ٣ / ص ١٧٨ ، ص ١٧٩ ، ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج١ / ص ٥٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ٨) .

(٣) هو ابراهيم بن عمر بن حسن الوقاصي البقاعي القاهري ، ولد تقريباً سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦م ، وصحب ابن حجر وغيره من العلماء ، وقام برحلات كثيرة لطلب الحديث ، وله مؤلفات في الحديث (انظر ترجمته في : النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٣٦ ، ص ٣٣٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ / ص ١٠١ ، السيوطي : نظم العقيان ، ص ٢٤ ، الشوكاني ، البدر الطالع ، ج ١ / ص ١٩ .

(٤) هو محمد بن محمد بن محمد السنباطي ، سمع بالحرمين وحدّث بهما ، (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٢٧٢ ـ ص ٢٧٤).

(٥) هو الحافظ نور الدين أبو الحسن على بن أبي بكر بن سليمان بن عمر الهيثمي ، ولد سنة ٧٣٥هـ /١٣٣٤ م ، اهتم بالحديث ورافق العراقي في السماع ، وله كثير من المؤلفات في الحديث . (السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٥٤٥ ـ ص ٥٤٦) .

(٦) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٩٣ ـ ص ٣٩٤ .

وحدث عنه البقاعي وغيره[١] . وهذا يدل على علو سنده . كما سمع منه الطلبة ، وأجاز لهم[٢] .

وإلى جانب إهتمامه بعلم الحديث ، فقد اهتم بالأدب ، وقرض الشعر ، وله في ذلك نظم ، من قصيدة طويلة أولها :

يا من بذكرهم قد زاد وسواسي   وقد شغلت بهم عن سائر الناس[٣]

وقد مدحه كثيرٌ من الأدباء والشعراء ، فأنعم عليهم وأجزل لهم العطاء ، منهم : شهاب الدين أحمد بن محمد عبد الله القليوبي الأصل المكي ، الشهير بابن خبطة (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦م)[٤] ، وأحمد بن الحسين بن محمد الشهاب بن محمد الشهاب ابن البدر المكي (ت ٩٢٦هـ / ١٥١٩م)[٥] .

وقد خرَّج له تقي الدين فهد (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦م)[٦] ، كتاباً من مروياته في بعض شرف المصطفى وفضائل الحسن والحسين ووالديهما ، وفضائل قريش وبني هاشم ، مع حكايات وإنشادات سماها « الدرر الفائقة والأخبار الرائقة » ، فرغ من تسويده سنة

---

(١) النجم ابن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٠٠ أ ، السيوطي : نظم العقيان ، ص ١٠٠ .

(٢) النجم ابن فهد : اتحاف الورى ، ج ٤ / ص ٢٧٢ ، الدر الكمين ، ورقة ١٠٠ أ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٤٣٩ ـ ص ٤٤٠ .

(٣) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ /ص ٤٥٤ .

(٤) ينسب إلى قليوب إحدى قرى مصر ، ويعرف بابن خبطة ، لكون أحد أجداده أصابه مرض فاختبط ، ولد سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٣ م وانتقل إلى مكة بصحبة أمه وخاله في السنة الأولى من عمره (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ١٣٣) .

(٥) يعرف بابن العليف، ولد سنة ٨٥١هـ / ١٤٤٧م بمكة ونشأ بها ، ويعد من شعراء مكة المرموقين (السخاوي : الضوء اللامع . ج ١ / ص ٢٩٠، التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ١٧٧).

(٦) سيأتي الحديث عنه وعن أسرة ابن فهد عامة في الأسر العلمية .

٨١٤هـ / ١٤١١م[١] .

ولم تقتصر مشاركة بركات بن حسن في اهتمامه بالعلم والعلماء ، بل كانت له اهتمامات أخرى ، ومآثر حسنة منها : أنه أستأجر بمكة رباط بنت التاج باجياد في سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م فعمره عمارة حسنة سنة ٨٥٩هـ / ١٤٥٤ م وأوقف منافعه على الفقراء ، وغير ذلك من المآثر[٢] .

كما عُرف في هذا العصر باهتماماته العلمية وتشجيع العلماء ، علي بن حسن بن عجلان (ت ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م)[٣] الذي يعد من أكثر أمراء مكة حضوراً للمجالس العلمية ، خاصة مجالس الحديث والأدب . ولم يمنعه انشغاله بالحكم من الأخذ عن العلماء والسماع لهم ، فقد سمع بها وهو متولٍ للإمارة في سنة ٨١٦هـ / ١٤١٣م على أبي الفتح المراغي (ت ٨٥٩هـ / ١٤٥٤م)[٤] ، بعض مجلس من « صحيح مسلم » كما قريء عنده « صحيح البخاري » مراراً[٥] .

---

(١) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٩٣ .

(٢) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٠٠ ب ، العز بن فهد: غاية المرام ج ٢ / ص ٤٥٣ ـ ص٤٥٤.

(٣) علي بن حسن بن عجلان بن رميثه بن أبي نمي ، ويلقب نور الدين ، ولد سنة ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤م مات مطعوناً في دمياط بمصر (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة . ج ١٥ / ص ٥٣٦ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٤٨٧ ، ص ٤٩٨) .

(٤) هو محمد بن أبي بكر بن الحسين بن عمر المراغي المصري المدني الشافعي ، أبو الفتح ، نزيل مكة ، ولد بالمدينة المنورة سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م ، ونشأ بها ، حدّث بمكة والمدينة واليمن ، وبنى لأجله بعض ملوك اليمن مدرسة (انظر ترجمته في : النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٢٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٦٢ ، ص ١٦٥ ، التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٥٣٥ ، السيوطي : نظم العقيان ص ١٣٩ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ / ص ١٤٦ ، البغدادي : هدية العارفين ، ج ٢ / ص ٢٠٠) .

(٥) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٤٨٨ .

كما أجاز له باستدعاء عمر بن فهد جماعة من العلماء منهم : ابن حجر ، والعيني (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)[١] وعلاء الدين ابن خطيب الناصريه (ت ٨٤٣هـ/١٤٣٩م)[٢] ، وشهاب الدين ابن ناظر الصاحبه (ت ٨٤٩هـ / ١٤٤٥ م)[٣] ، وجمال الدين الكازروني (ت ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢ م)[٤] . وغيرهم.[٥]

كما أهتم علي بن حسن بن عجلان بالأدب ، حيث اشتغل بالصرف والنحو ، ونظم الشعر ، وحين قبض عليه السلطان الظاهر جقمق ، سجنه هو وأخاه ابراهيم ببرج القلعة[٦] ثم

(١) هو محمود بن أحمد بن موسى بدر الدين العيني القاهري ، نسبة إلى عين تاب وهي قلعة حصينة من أعمال حلب ، ولد سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م وهو من أشهر علماء الحديث والتاريخ في مصر ، وشارك في عدة علوم منها اللغة العربية والفقه ، وكان له منزلة عند سلاطين المماليك وتقلد عدة وظائف ، وله مؤلفات عديدة (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ١٣١ ـ ١٣٣ ، التبر المسبوك ، ص ٣٧٥ ، السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ / ص ٢٧٥) .

(٢) علي بن محمد بن سعد بن محمد بن علي بن خطيب الناصرية الحلبي الشافعي ، ولد سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م بحلب ونشأ بها ، حج ثلاث مرات أولها سنة ٨١٦هـ / ١٤١٣م ولم يحدث لإنشغاله بالمناسك ، وكان بارعاً في الفقه والحديث ومشاركاً في الأصول والعربية والتاريخ وخصوصاً السيرة النبوية ، وله عدة تصانيف (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ٣٠٣ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٢٤٧ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١ / ص ٤٧٦).

(٣) هو أحمد بن عبدالرحمن بن الموفق احمد بن اسماعيل ، ويعرف بابن ناظر الصاحبه ، ولد سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م ، حدّث بدمشق ، وسمع منه الأعيان (انظر : ترجمته في :النجم ابن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٥٨ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ١ / ص ٣٢٤ ، التبر السبوك ، ص ١٢٧ ، السيوطي : نظم العقيان ، ص ٤٣) .

(٤) هو محمد بن حسين بن عبدالمؤمن الكازروني ، رئيس المؤذنين بمكة (الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٥ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ج ٣ / ص ٦٠٠) .

(٥) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٤٨٧ .

(٦) القلعة : إحدى الآثار الأيوبية بمصر ، وقد أنشأها الملك صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م وأقام على بنائها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي (انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٠ / ص ٨١ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ / ص ٣١٧ ، وذكر بناءها في سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧ م) .

نقله إلى الاسكندرية[١] ، ثم إلى دمياط[٢] ، حيث تَعلّم بها النحو ونظم هناك قصيدة على وزن « بانت سعاد » جيدة القافية والمعاني[٣] ، وأنشد هذه القصيدة لبعض المشايخ العلماء في القاهرة سنة ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م[٤] وذكر العز بن فهد أنها موجودة عند والده النجم عمر ابن فهد في كتابه « نزهة العيون فيما تفرق من الفنون » ويسمى «بالتذكرة» . غير أنه انتقدها بقوله « لكنها فاشية اللحن »[٥]. كما انتقدها السخاوي كذلك[٦] . وخرّج له التقي بن فهد مؤلفاً سماه « البدور العوالي والجواهر الغوالي »[٧] . وكان علي بن حسن بن عجلان حسن المحاضرة كريماً شجاعاً ، ذا ذوق وفهم ونظم، حتى قيل أنه أحذق الأشراف وأفضلهم[٨].

---

(١) الاسكندرية : إحدى الموانيء المهمة في مصر ، وقد فتحت سنة ٢٠هـ / ٦٤٠ م في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عمرو بن العاص ، وقد ذكرها ياقوت وأسهب في تاريخها ووصفها (معجم البلدان ج ١ / ص ١٨٢ ـ ص ١٨٨) .

(٢) دمياط : مدينة قديمة بين تنيّس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل ، مخصوصة بالهواء الطيب ، وقد اهتم بها المسلمون منذ صدر الإسلام (ن . م . س ، ج ٢ / ص ٤٧٢ ، ص ٤٧٥) .

(٣) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٥٢ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥/ ص ٢١١ ، العز بن فهد : غاية المرام ج ٢ / ص ٤٩٧ .

(٤) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٨ ، مقدمة المحقق ، العز بن فهد : غاية المرام ج ٢ / ص ٤٩٧ .

(٥) غاية المرام ، ج ٢ / ص ٤٩٧ .

(٦) الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ٢١١ .

(٧) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٥٢ أ ، معجم الشيوخ ، ص ١١ مقدمة المحقق .

(٨) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٥٢ ب ، العز بن فهد : غاية المرام . ج ٢ / ص٤٩٧ .

ولقد كان من أمراء الحجاز الذين اشتهروا بإنتمائهم إلى العلم والعلماء ، محمد بن بركات بن حسن بن عجلان (ت ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م) . الذي كان لنشأته أثر كبير في سيرته وفي موقفه من النشاط العلمي في الحجاز ، فقد حصل له مالم يحصل لأحد من أمراء مكة من الرياسة والحشمة والهيبة والعظمة والعز والوقار ، وكانت أيامه كثيرة الأمن والرخاء[١] . مما جعل مكة في ولايته مقصودة من كل الآفاق وذلك للحج ، أو المجاورة ، والأخذ عن علماء الحرمين الشريفين ، فحيثما يتوفر الجو العلمي الجيد والاستقرار والأمن . وتشجيع العلماء ، والأخذ بأيديهم ، تجد توافد العلماء واهتمامهم جلياً ، وهذا ماحدث فعلاً في أيامه ، فقد زادت نسبة المجاورين في عهده عن العهود السابقة ،ويتضح ذلك من خلال كتب التراجم التي تحدثت عن المجاورين في القرن التاسع الهجري[٢] .

وقد أجازه جماعة من المشايخ ، بل ودخل في إجازات جماعة أجازوا لأهل مكة ، ومن هؤلاء المشايخ الذين أجازوا له استدعاءً : عبد الرحمن بن خليل القابوني (ت ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م)[٣] وسعد الدين الديري (ت ٨٦٧هـ /١٤٦٢م)[٤] ، وابن عماد الأقفهسي (ت٨٦٧هـ / ١٤٦٢م)[٥] وغيرهم من العلماء[٦] . كما أجازه جماعة من النساء منهن ،

---

(١) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٥٩٨.

(٢) انظر مثالاً على ذلك كتاب السخاوي الخاص بهذا القرن (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) .

(٣) عبدالرحمن بن خليل بن سلامة بن يونس الأذرعي القابوني ، الشهير بابن خليل ، زين الدين ، ولد سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م بدمشق ، وسمع الحديث ببلده ومصر والخليل (النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٢٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٧٦).

(٤) هو سعد بن محمد بن عبدالله بن سعد الشهير بابن الديري ، ولد سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦ م ببيت المقدس ، وسمع الحديث على كثير من العلماء ، وأخذ الفقه عن والده وغيره ، ودرّس بعدة مدارس وأفتى (النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١١٥ ، ص ١١٦ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ٢٤٩ ، السيوطي : نظم العقيان ، ص ١١٥ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١ / ص ٢٦٤) .

(٥) هو محمد بن أحمد بن عماد بن يوسف الأقفهسي المصري ، ولد سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م وسمع على كثير من علماء الحديث (النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٠٦ ، ص ٢٠٧ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ٢٤).

(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧/ ص ١٥١ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٥٠٦ .

أسماء ابنة المهراني (ت ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م)[١] وأم هانيء ابنة الهوريني (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦ م)[٢] ونشوان الحنبلية (ت ٨٨٠هـ / ١٤٦٢م)[٣] ، وغيرهن[٤] .

وقد أعجب به السخاوي وأثنى عليه كثيراً حين ترجم له ، وذكر أن أدبه وتواضعه وغير ذلك من الصفات كان بتهذيب عالم الحجاز : البرهان بن ظهيرة (ت ٨٩١هـ / ١٤٨٦م)[٥] الذي كان له مكانة رفيعة لدى أمير مكة محمد بن بركات[٦] .

وقد كان الشريف محمد بن بركات محباً للعلم والعلماء ، ومما يدلنا على ذلك ، زياراته المتكررة لهم في منازلهم للإطمئنان عليهم ، يرافقه في ذلك أبناؤه ، وحضوره زفاف أبنائهم ، فقد زار البرهان بن ظهيرة في داره حينما أصيب الأخير بمرض منعه من الخروج إلى المسجد الحرام ، وحضر زفاف ابن الشيخ نجم الدين بن ظهيرة[٧] .

---

(١) هي أسماء إبنة عبدالله بن محمد المهراني الدمشقية ، أجاز لها في استدعاء سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م ستة وعشرون شيخاً ، وكانت صالحة خيرة كاتبة ، انفردت بجماعة في التحديث ، سمع منها السخاوي بدمشق (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٧) .

(٢) أم هانيء ابنة العلامة نور الدين ابي الحسن علي المصرية الشافعية ، ولدت سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م بمصر ، وسمعت بمكة وبمصر عن جماعة من العلماء ، وكانت جيدة الكتابة ، ولديها معرفة بالشعر ، حجت ثلاثة عشر مرة ، وجاورت في بعضها (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٥٧) .

(٣) نشوان و تسمى أيضاً سودة ابنة الجمال عبد الله بن العلاء علي بن محمد ابي الفتح الكناني ، أجاز لها جماعة وحدثت ، وجاورت وسمع منها النساء في منزلها (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٢٩ ، ص ١٣٠) .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧/ ص ١٥١ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٥٠٧ .

(٥) سيأتي الحديث عنه وعن غيره من أسره ابن ظهيرة في الأسر العلمية .

(٦) الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٥٣ .

(٧) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٥٤٥ .

وإلى جانب كل هذا فقد كان يحضر مآتمهم ويشيع جنائزهم ويحزن بأحزانهم ، « ويحضر الربعات[(١)] صباحاً ومساءاً بالمسجد الحرام والمعلاة إلى يوم الختم »[(٢)] وتأثر كثيراً لوفاة برهان الدين بن ظهيرة ورافق جنازته ماشياً حتى المعلاة ، وجلس كعامة الناس على القبر متأثراً لفقدانه،[(٣)] مما يدلنا على تواضعه وتقديره للعلماء ومواساته لأهاليهم ، واهتمامه بأبنائهم عنايته بابن القاضي برهان الدين ورعايته ، وطلبه من سلطان مصر الاشرف قايتباي أن تعطى وظائف البرهان لابنه من بعده ، فأجابه على ذلك بالموافقة[(٤)] .

وكان لاهتمامه بالعلم وحملته أن أثنى عليه جماعة من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ، منهم كبير الأدباء برهان الدين ابراهيم بن مبارك بن سالم الذهلي الشيباني القطيفي (المولود سنة ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م)[(٥)] . بقصائد منها خمس سمعها نجم الدين بن فهد ، وأثبت أوائل القصائد في كتابه المسمى « الاشعار بما أنشدت من الاشعار »[(٦)] ، كما مدحه الشاعر أبو عبد الله محمد بن عمر بن عبدالعزيز المصري الشهير بالفيومي (كان حيانة ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م)[(٧)] وكذلك خير الدين أبو الخير محمد بن أبي السعود بن ظهيره (المولود سـنة

---

(١) الربعات : جمع ربعة ، وهو جزء من أربعة ، والمقصود هنا هو حضوره قراءة القرآن الكريم ، حيث يتكون من ثلاثين جزءاً ، انظر : الفيروآبادي : القاموس ، ص ٩٢٨ ، ص ٩٢٩ ، المعجم الوسيط ، ص ٢٣٦ ، ص ٢٣٧ .

(٢) العز بن فهد : غاية المرام ، ج٢ / ص ٥٤٧ .

(٣) ن . م . س . ج ٢ / ص ٥٥٢ ، ص ٥٥٣ .

(٤) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ /ص ٥٥٣ .

(٥) قدم مكة سنة ٨٥٩هـ / ١٤٥٤ م ، فقطنها ومدح أمرائها ، وصاحب جازان (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ / ص ١١٨) .

(٦) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ /ص ٦١٦ .

(٧) نزيل القاهرة سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م ، كما حضر دروساً عند السخاوي بمكة والمدينة ، وكتب بخطه « القاموس » ممن تولع بالنظم والشعر (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ٢٤٦) .

٨٤٦هـ / ١٤٤٢م) ومدحه كذلك مجد الدين جراح بن شاجر بن حسن الغساني الجازاني[١] كما رثاه الشيخ العلامة نور الدين علي بن ناصر الحجازي المكي الشافعي (ت ٩١٥هـ / ١٥٠٩م)[٢] بعدة قصائد[٣] .

ومما عمله الشريف محمد بن بركات من المنشآت بمكة رباط كبير أنشأه بأول أجياد[٤] أمام رباط والده ، أسكن فيه الفقراء[٤] . وكان يتصدق بصدقات كبيرة[٥] تشمل العلماء والمجاورين بالحرمين الشريفين حتى أن السخاوي ذكر ؛ أنه وصله بره في الموضعين . سواء في مكة أو في المدينة ، وأنه كان يتفقد أهل مكة لا سيما الغرباء[٦] . حتى يقوم بتقديم الخدمات اللازمة لهم .

---

(١) من آثاره ديوان شعر (كحالة : معجم المؤلفين ، تراجم مصنفي الكتب العربية ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ج ٣ / ص ٦ ١١.

(٢) علي بن ناصر بن محمد بن أحمد النور أبو الحسن البليسي ثم المكي الشافعي ، ويعرف بالحجازي ، وبابن ناصر ، ولد سنة ٨٤١هـ / ١٤٣٧م اشتغل في الفقه وأصوله العربية وغيرها ، ودخل القاهرة وحلب وبيت المقدس وأخذ عن الكثير من الشيوخ في عصره (انظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٤٥ ، الغزي : الكواكب السائرة ، ج ١ / ص ٢٧٨) .

(٣) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ١ / ص ٦٢١ .

(٤) موضع معروف بمكة ، ذكره الأزرقي وقال « ماسمي اجياد أجياداً إلا لخروج الخيل الجياد منه » (الأزرقي ، محمد بن عبدالله : أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار ، تحقيق : رشدي الصالح ملحس (مدريد : مطابع ماتيو كرومو ، بدون ت) ج ١ / ص ٨٢ ، وقال ياقوت : هو الموضع الذي كانت به الخيل التي سخرها الله لاسماعيل عليه السلام (معجم البلدان ، ج ١ / ص ١٠٥) .

(٥) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٥٤٠ .

(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٥٢ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص٦٠٥.

أما بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان (ت ٩٣١ هـ / ١٥٢٤ م) . فرغم الأحداث السيئة التي حصلت في عهده[١] ، إلا أنه كذلك اهتم بالعلم والعلماء ، ودخل القاهرة في سنة ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م[٢] يرافقه قاضي مكة البرهان بن ظهيرة ، فأكرم السلطان قايتباي ، ومن دونه من الأمراء موردهما ، وأشركه مع أبيه في الامارة ، وأزداد مركزه وأهميته حتى صار مرجعاً في حل الأمور[٣] .

وفي رحلته هذه سمع الحديث الشريف على المسند شهاب الدين أحمد النشاوي (ت ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م)[٤] وحضر مجلس ختمه وبدايته[٥] ، وتكررت رحلاته إلى القاهرة ، فيذكر السخاوي أنه رآه أكثر من مرة ، وقام بزيارته في سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م حيث حضر أحد مجالسه العلمية بأدب وسكون[٦] وقد أجازه من عدة بلدان جملة من المشايخ[٧] ، منهم : عبدالرحمن القابوني (ت ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م) . والبرهان البقاعي (ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠م) . والشهاب الحجازي (ت ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م)[٨] .

---

(١) انظر أمثلة على ذلك ، العز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٠٠ ب ، حتى وفاة مؤلف الكتاب سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م ، ورقة ٢٣٠ ب .

(٢) النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٤/ ص ٥٦٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣/ ص ١٤ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ /ص ١٤ .

(٤) هو أحمد بن عبدالقادر بن محمد بن طريف الشهاب النشاوي ، ولد سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩١م سمع على كثير من العلماء والعالمات ، وتولى عدة وظائف في التدريس ، وحدث بالبخاري وغيره وصار فريد وقته (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ / ص ٣٥٢) .

(٥) أبو الخير : المختصر من كتاب نشر النور والزهر، ص ١٤٢ .

(٦) الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ١٤ .

(٧) العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج ٤ / ص ٢٨١ ، أبو الخير : المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، ص ١٤٢ .

(٨) أحمد بن محمد بن علي بن حسن الأنصاري العبادي شهاب الدين الحجازي ، ولد سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨ هـ بالقاهرة واشتغل بالحديث وعني بالأدب (النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٤٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ١٤٧) .

كما أجازه جماعة من النساء منهن أسماء بنت المهران (ت ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م) ، ونشوان الحنبلية (ت ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م) وغيرهم من العلماء والعالمات[١] .

ولقد ازدهرت حركة التأليف في عهده ، حيث ألف له العز بن فهد مؤلفاً سماه « غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام »[٢] ، كما خرّج له الشيخ الرحالة جار الله بن عبدالعزيز بن فهد ، عن أربعين شيخاً من مشايخه أربعين حديثاً في فضل أهل البيت النبوي سماها « غاية الأماني والمسرات بعلو سلطان الحجاز أبي زهير بركات »[٣] . وذلك في سنة ٩١٦هـ / ١٥١٠م[٤] . كما أجازه الشريف بركات في استدعاء كتبه إليه الشيخ جار الله سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م[٥] .

وتجدر الإشارة إلى أنه ظهر إلى جانب هؤلاء الأمراء بالحجاز والذين اهتموا بالحركة العلمية ، عدد من الأمراء الآخرين ، كانت لهم اهتمامات متعددة في العلوم الشرعية والأدبية ، ولكن اهتمامهم ذلك لم يكن بقدر إهتمام أولئك السابقين ، ومن هؤلاء :

أبو القاسم بن حسن بن عجلان (ت ٨٥٣هـ / ١٤٤٩ م)[٦] ، الذي نشأ بمكة ،

---

(١) أبو الخير : المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، ص ١٤٢ .

(٢) العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج ٤ / ص ٢٨١ ، أبو الخير : المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، ص ١٤٢ ، وهذا المؤلف جزءان ، مطبوع بتحقيق فهيم شلتوت ، الطبعة الأولى (جامعة أم القرى ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩ م) .

(٣) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٣ مقدمة المحقق ، العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج ٤ / ص ٢٨٠ ـ ص ٢٨١ .

(٤) العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج ٤ / ص ٢٨٠ .

(٥) ن . م . س . ج ٤ / ص ٢٨٠ .

(٦) أبو القاسم بن حسن بن عجلان بن رميثه بن أبي نمي ، مؤيد الدين . ولي أمر مكة من سنة ٨٤٦هـ / ١٤٤٢ م إلى أثناء سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م (النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٤ / ص ١٩٥ ، ص ٢٨٥ ، الدر الكمين ، ورقة ١٩٢ أ ، ورقة ١٩٢ ب ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٤٩٨) .

وأجاز له من أجاز أخاه علياً[١] ، وخرّج له التقي بن فهد جزءاً من مروياته في الحديث ، سماها « البدور الزواهر مما للمختار وعترته من المفاخر »[٢] .

كما حصل أحمد بن حسن بن عجلان (ت ٨٤٢هـ / ١٤٣٨ م) ، على اجازات في سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م من العلماء والشيوخ الذين أجازوا أخاه بركات[٣] .

ورحل بعضهم إلى بلاد المغرب كعلي بن عنان بن مغامس (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م)[٤] الذي رحل إلى القاهرة ، ودخل منها إلى بلاد المغرب ، فلقي كل الكرم من ملكها أبو فارس (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م)[٥] وأنعم عليه بألف دينار ، وعاد إلى مكة وسمع بها على ابن الجزري في سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٤م مجلس الختم من السنن لأبي داود[٦] ، وكان مشهوراً بجميل المحاضرة ومعرفة الأدب[٧] .

---

(١) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٩٢ أ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٤٨٨ ، ص ٤٩٨ .

(٢) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٩٢ أ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٤٩٨ .

(٣) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٧١ أ ، ورقة ٧١ ب ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٤٦٧ ـ ص ٤٦٨ .

(٤) علي بن عنان بن مغامس بن رميثه بن أبي نمى ، تولى إمرة مكة سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م حتى سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٤م ، وقبض عليه واعتقل بالقاهرة حتى مات . (النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٥٧ أ ، ورقة ١٥٧ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ٢٧٣ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ /ص ٤٨٥ ، ص ٤٨٦) .

(٥) أبو فارس عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيى بن ابراهيم بن وندين الهنتاني المصمودي الحفصي ، سلطان تونس وعامة افريقيا ، ملكها بعد موت والده سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م . (ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج ٢ / ص ٨٨٢ ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ / ص ١٩٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٢١٤) .

(٦) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٥٧ أ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٤٨٤ .

(٧) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٥٧ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ٢٧٣ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٤٨٧ .

ويذكر السخاوي أن زبيري ابن قيس (ت ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م)[١] ، أمير المدينة ، حضر عنده بعض الدروس من خلال مجالسه العلمية أثناء مجاورته بالمدينة المنورة ، وأنه استمر عنده مداوماً على ذلك حتى مات[٢] . ولعل في ذلك دلالة على حرصهم حضور المجالس العلمية على الرغم من انشغالهم بالحكم .

ويمكننا القول أن الشعر لقى تشجيعاً كبيراً من بعض هؤلاء الأمراء ، فكانوا يجزلون العطاء للشعراء والأدباء ، فقد بلغ من إهتمام الأمير عنان بن مغامس (ت ٨٠٥هـ / ١٤٠٢ م) بالشعر أن أعطى الشاعر المعروف بابن العليف (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م)[٣] ثمانية وعشرين ألف درهم مكافأة له على قصيدة مدحه بها[٤] وكذلك أحمد بن عجلان (ت ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م) الذي كان يجيز الشعراء بعطايا جزيلة[٥] .

وفضلاً عن قيامهم بتشجيع الشعر والشعراء ، فقد كانوا مشاركين فيه ، وقد نظم الشعر محمد بن محمود بن أحمد بن رميثه (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م)[٦] الذي ناب في إمرة

---

(١) زبيري بن قيس بن ثابت بن نعير بن منصور الحسيني ، ولي أمر المدينة سنة ٨٥٤هـ / ١٤٥٠ م حتى سنة ٨٦٥هـ / ١٤٦٠ م ثم استقر به الشريف محمد بن بركات في نيابة المدينة سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢ م (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ٢٣٢ ، ص ٢٣٣ ، التحفة اللطيفة ، ج / ٢ ، ص ٨٠ ، ص ٨١) .

(٢) الضوء اللامع : ج ٣ / ص ٢٣٣ .

(٣) محمد بن حسن بن عيسى العدناني الحلوى ، ولد سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م بحلي ، (الفاسي : العقد الثمين ، ج١ / ص ٤٧١ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٢ / ص ٥٣٢) .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج ١ / ص ٤٧١ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٢١٤ .

(٥) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢/ ص ١٩٤ .

(٦) ولي أمر مكة نيابة عن أحمد بن عجلان وكذلك عن علي بن عجلان ، وحسن بن عجلان ، وكان معروفاً برجاحة عقله ومروءته (الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٤٨ ، ص ٣٤٩ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ٤٢) .

مكة ، وكان لديه فضيلة مع كرم وعقل[١] . كما كان علي بن بركات بن حسن بن عجلان (ت ٨٩١هـ / ١٤٨٦م)[٢] ، يحسن إنشاء الشعر ، ويتقرب للعلماء والصالحين[٣] .

كما لقي بعض العلماء في الحجاز مكانة وصحبة لدى بعض أمرائها ، فكانوا يكرمونهم ويأخذون بنصائحهم ولا يرفضون مطالبهم ، ويستشيرونهم في كثير من الأمور التي تتعلق بالمسلمين ، فقد كان العالم البارع عفيف الدين عبد السلام بن محمد بن مزروع البصري ، نزيل الحرم النبوي الشريف (ت ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩م)[٤] ، بمثابة ومنزلة الأب والوزير للأمير عز الدين جماز بن شيحة (ت ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م) صاحب المدينة . الذي عرض عليه الوزارة فرفض ، وكان يرسله في مهمات إلى مصر والشام والعراق[٥] . كما كان لمحمد بن ابراهيم بن عبد الحميد الموغاني (ن ٨١٦هـ / ١٤١٣م)[٦] ، نزيل مكة ، مكانة كبيرة عند أمير المدينة ثابت بن نعير (ت ٨١١هـ / ١٤٠٨م) ، ثم نال مكانة عند أمير مكة حسن بن عجلان ، وتولى كتابة الرسائل عنه إلى مصر وغيرها من البلدان الإسلامية[٧] .

كما حرص بعض أمراء الحجاز على نشر العدل والأمن للعلماء والمجاورين ، واعتبروا

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢/ ص ٣٤٩ ، ابن حجر : انباء الغمر، ج ٢ / ص ١٩٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ٤٢ .

(٢) قدم القاهرة سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م وتكررت زياراته لها حتى أقام بها إلى أن مات (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ١٩٧ ، ص ١٩٨) .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ١٩٧ ، ص ١٩٨ .

(٤) محدّث المدينة وعالمها ، ولد سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م بالبصرة وقدم إلى المدينة وأقام بها إلى أن مات (الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٤٢٩ ، ص ٤٣٠ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ١٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ / ص ٤٣٥) .

(٥) العيني ، بدر الدين : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق محمد محمد أمين (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) ، ج ٣ / ص ٣٧٣ .

(٦) يعرف بابن عبد الحميد ، اشتغل بالأدب ونظم الشعر ، وكان فيه صمم ، فكان لذكائه يدرك ما يكتب له في الهواء أو مايكتب في كفه بالأصبع (الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٤٠٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ،ج ٦ / ص ٢٥٣) .

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٤٠٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٢٥٣ .

ذلك من واجباتهم ومهامهم الأساسية ، مما جعل بعض المؤرخين يثنون عليهم[(١)] . مثل النجم بن فهد الذي قال في عجلان بن رميثه (ت ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) ، « ونشر السيد عجلان بمكة من العدل والأمان للحاج والمجاورين الذي لم يعهد مثله في طول الزمان ، ورد المظالم والسرقات وبطل القتل والنهب ، وطرح ربع الجبايات ، ورفع المظالم »[(٢)] .

وفي الجانب الآخر نجد أن بعض أمراء الحجاز كان لهم مواقف سلبية وغير مشرفة في التعامل مع العلماء ومراكز العلم ، ولعل السبب يعود في ذلك ، إلى أطماعهم الشخصية في الصراع على السلطة ، بالإضافة إلى جهل البعض الآخر ، مما يعطي صورة سيئة غير تلك التي عرفناها لدى بعض الأمراء الآخرين . فقد قام بعضهم بالاستيلاء على المدارس ، وتأجيرها[(٣)] . كما تعرضت الأربطة في المدينة المنورة للنهب والسلب ، حينما وقعت حرب سنة ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م بين خشرم وعجلان ، وتعرضت ودائع حجاج الشام للسرقة ، ولم يبق بيت في المدينة إلا ونهب[(٤)] . ولاشك أن هذه الأربطة كانت تضم بين جنباتها كثيراً من الكتب التي أوقفها كثير من العلماء وغيرهم .

وكذلك أراد جماز بن هبة أمير المدينة (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) نهب المسجد النبوي ، وأخذ مافيه ، وطلب من قاضي المدينة زين الدين أبو بكر المراغي (ت ٨١٦هـ / ١٤١٣م) مفاتيح القبة المراد نهبها ، فامتنع عن ذلك ، فقام باهانته ، وأخذها منه ، ودخل القبة وأخذ مافيها[(٥)] .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢/٢: ص ٥٧٧ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٣٥٤ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج ٤ / ص ٢٧٨ .

(٢) اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٢٣١ العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ١٤٠ .

(٣) العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٥٥٨ .

(٤) العيني : عقد الجمان ، تحقيق عبدالرزاق القرموط ، الطبعة الأولى ، (القاهرة، دار الزهراء، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ص ٣٢٠ ، ص ٣٢١ .

(٥) النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٤٦٣ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ٤٢٧ ، ص ٤٢٨ .

وكذلك محاولات البعض منهم ، الاستيلاء على أموال العلماء ، فقد استولى الأمير عجلان بن رميثه (ت ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) على بضائع قادمة من اليمن لعالم مكة وقاضيها شهاب الدين الطبري (ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٨هـ)[١] ، كما طلب جماز أمير المدينة من محمد بن محمد الهندي الصغاني (ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م)[٢] نزيل المدينة ، مالاً لكثرة أمواله ، فرفض فقام بسجنه ، ثم أفرج عنه ، وكان هذا سبباً في تحوله إلى مكة[٣] .

كما تجرأ زبيري بن قيس (ت ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م) في أول ولايته على المدينة . بضرب شمس الدين الأزهري أحد علماء المدينة ، حتى الموت[٤] . كما قام أمير مكة بركات بن محمد (ت ٩٣١هـ / ١٥٢٤ م) ، بالقبض على عالم الحجاز محمد بن إبراهيم بن علي ابي السعود ، جمال الدين بن ظهيرة ، لإعتقاده بأنه السبب في الفتنة بينه وبين إخوانه ، واستولى على بعض أمواله ، وجهزه بحراً مع أولاده إلى جزيرة القنفدة[٥] وأمر بتغريقه ، فغرق بجانبها سنة (٩٠٧هـ / ١٥٠١ م)[٦] .

---

(١) النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٢٥٧ ، وسوف يأتي الحديث عنه وعن أسرة الطبري في الأسر العلمية .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، وسيأتي الحديث عن كثير من جوانبه وأعماله العلمية .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٢٩١ ، ص ٢٩٢ ، ابن حجر : انباء الغمر ، ج ١ / ص ٢٩٣ ، ص ٢٩٤ .

(٤) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٨٠ ، ص ٨١ .

(٥) القنفذة : بلدة صغيرة تقع على شاطئ البحر الأحمر، على بعد ٢٠٠ ميل إلى جنوب جدة (كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب ، ص ٢٢٠).

(٦) العز بن فهد ، بلوغ القرى ، ورقة ١٢٢ ب ، ابن الدبيع : الفضل المزيد ، تحقيق شلحد ، ص ٢٧١ ، الجزيري : درر الفرائد، ج ٢ / ص ٧٨٥ ، السنجاري ، علي بن تاج الدين : منائح الكرم في أخبار البيت وولاة الحرم ، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ٤٥٠ تاريخ ، مصور عن مكتبة الحرم المكي الشريف برقم ٣٠ دهلوي ، ج ٢ / ورقة ٢٣ ، ورقة ٢٤ ، أبو الخير : المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، ص ١٦٢ .

ثانيـــاً : اهتمام بعض سـلاطين وأمـراء الدولة الإسلامية بالحركة العلمية في الحجاز :

عندما ورث المماليك دولة بني أيوب ، لم يرضو لأنفسهم أن يكونوا أقل منهم شأناً في نشر الحركة العلمية والدراسات الإسلامية في عصرهم ، فالمدارس التي ورثوها عن بني أيوب عملوا على ازدهارها وتطويرها . كما أنهم أنشأوا مدارس متعددة في كل أنحاء مصر والشام والحجاز من أجل نشر العلم والثقافة .

وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا عرباً ، فإنهم كانوا مسلمين يحكمون بلداً إسلامياً ، ولابد لهم على الأقل لأسباب سياسية أو غيرها . أن يهتموا ويظهروا الإهتمام بالإسلام ويخلصوا له ، ويتحمسوا لعلومه وثقافته وآدابه ، ولغته . ولعل سبب اهتمام سلاطين المماليك بالعلم وأهل العلم واحتضانهم لهم ، يعود إلى هجرة الكثير من العلماء من المشرق الإسلامي إلى مغربه[1] بعد اجتياح المغول للشرق الإسلامي ودخولهم بغداد وبلاد الشام ، فاستقر المقام بالكثير من هؤلاء العلماء في مصر التي أصبح لها دور الريادة السياسية والفكرية بعد تحرير بلاد الشام من أيدي الصليبيين ، وبعد العمل الرائع الذي قام به المماليك لوقف زحف المغول على ماتبقى من العالم الإسلامي في مغربه بعد أعمالهم الإجرامية في المشرق من قتل العلماء وتدميرهم لدور الفكر والعلم .

ومما ساعد على النهوض بالحركة العلمية ، أن بعض المماليك كان على جانب كبير من العلم والمعرفة والفضل ، وتصدر بعضهم للإقراء والتدريس ، مثل السلطان الظاهر بيبرس (ت ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م) الذي كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً شديداً ، وكان يقول « سماع التاريخ أعظم من التجارب »[2] .

---

(١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٣ / ص ٢١٠ ، ص ٢١١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٢ ، عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الأولى (القاهرة، النهضة العربية ، ١٩٦٢م) ، ص ١٤١ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ / ص ١٨٢ .

وهذا يدل على أن علم التاريخ كان من أبرز العلوم في العصر المملوكي ، لما لقيه من تشجيع من سلاطين المماليك ، فقد ظهرت طائفة كبيرة من المؤرخين ، تركوا تراثاً ضخماً ، منهم ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)[١] وبيبرس المنصوري (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م)[٢] ، واليوسفي (ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٧م)[٣] ، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) صاحب كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » وغيرها من المؤلفات وابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) ، صاحب كتاب « النجوم الزاهرة في أعيان مصر والقاهرة » وغيرها من الكتب .

كما ظهرت جماعة من المؤرخين وجهوا نشاطهم نحو تأليف كتب الطبقات مثل ابن خلكان (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) صاحب « وفيات الأعيان » وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) صاحب « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » وشمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) ، صاحب « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ، والسبكي (ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م)[٤] صاحب كتاب « طبقات الشافعية » .

وكان الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٤١هـ / ١٣٤٠م) يعظم أهل العلم والمناصب

---

(١) محي الدين بن عبد الظاهر ، له كتاب « تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور » حققه الدكتور مراد كامل (القاهرة ، ١٩٦١ م) .

(٢) بيبرس المنصوري ، نائب السلطنة بمصر ، له كتاب « التحفة الملوكية في الدولة التركية » - تاريخ دولة المماليك البحرية من سنة ٦٤٨هـ - حتى سنة ٧١١هـ ، نشره ووضع فهارسه الدكتور عبدالحميد صالح حمدان ، الطبعة الأولى (الدار المصرية اللبنانية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م) .

(٣) موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي ، له كتاب « نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر » تحقيق ودراسة الدكتور أحمد حطيط .

(٤) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن تمام الأنصاري الشافعي السبكي ، تاج الدين ، فقيه أصولي ، مؤرخ ، أديب ، ولد بالقاهرة سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م ، وقدم دمشق ولزم الذهبي وولي القضاء والخطابة بالجامع الأموي ، وله الكثير من المؤلفات (ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٤٢٥ ، ص ٤٢٨ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١١ / ص ١٠٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ /ص ٢١ ٢).

الشرعية ، ولا يقرر فيها إلا من يكون أهلاً لها ، ويتحرى لذلك ويبالغ في البحث عنه[(١)] .
ويدلنا على ذلك تعيين القضاة في الحرمين الشريفين . كما كان مثقفاً ثقافة أدبية عربية ممتازة ، حتى أنه كان خبيراً بالأساليب العربية ، ملماً بالقواعد النحوية واللغوية ، فقد رووا عنه « أنه كان ينقد مايعرض عليه من المراسيم ، ويصلحها ، ولا يُعلّم على مكتوب حتى يقرأه كله ، ولابد أن يستدرك على الكتّاب مايبين لهم فيه الصواب ، وكان « يطارح الأدباء بذهن رائق وذكاء مفرط »[(٢)] ، وبنى في سلطنته من الجوامع والمدارس والخوانق[(٣)] الشيء الكثير[(٤)] .

كما اهتم كثير من السلاطين باللغة العربية وعلومها ، لأنها اللغة التي أنزل بها القرآن الكريم ، ولأنها لغة العالم الإسلامي ، فلابد من كتابة التقاليد[(٥)] ، ومايخص القضاء والتشريع باللغة العربية ، وبرز عدد من علماء اللغة ، كان على رأسهم ابن منظور المصري (ت٧١١هـ / ١٣١١م)[(٦)] صاحب المعجم الشهير « لسان العرب » .

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ / ص ١٤٧ ، ص ١٤٨ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ / ٣ : ص ٧٩١ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٩ / ص ١٧٣ ، ص ١٧٤ .

(٣) الخوانق : جمع : « خانقاه » وهي كلمة فارسية تعني محل العبادة والتزهد والبعد عن الناس . (انظر : ابن طولون ، شمس الدين محمد : نقد الطالب لزغل المناصب ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، خالد محمد دهمان ، الطبعة الأولى (بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) ، ص ١٧١ الهامش ، ابن الشحنة : البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر « محمد بن قايتباي » تحقيق عمر عبدالسلام تدمري ، الطبعة الأولى (بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ، ص ١٦٨ ، فهرس المصطلحات التي وضعها المحقق .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ / ص ١٤٧ .

(٥) تقاليد : مفردها : تقليد ، وهو المرسوم الموقع من السلطان لتعيين شخص في وظيفة كبيرة (عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٤٠٢ ، وانظر هذه الكلمة : الفيروز آبادي : القاموس ، ص ٣٩٩).

(٦) هو محمد بن مكرم بن علي ، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الافريقي ، الامام اللغوي المشهور ، ولد بمصر سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢ م ، وقيل بطرابلس ، وخدم في ديوان الإنشاء، ثم ولي القضاء بطرابلس ، وعاد إلى مصر وتوفي فيها، وله الكثير من المؤلفات (الكتبي، محمد بن شاكر: فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس (بيروت ، دار الثقافة، بدون ت)، ج٤/ ص٣٩، ابن حجر: الدرر الكامنة ج ٤ / ص ٢٦٢، السيوطي: بغية الوعاة ، ج ١ / ص ٢٤٨) .

ومن السلاطين من كان يتقرب إلى العلماء ، ويحضر مجالسهم العلمية ، من ذلك ماقام به القاضي بدر الدين العيني من ترجمة كتاب « القدوري »[1] في فقه الحنفية إلى اللغة التركية بناءً على توجيه السلطان ططر (ت ٨٢٤هـ / ١٤٢١م)[2] . الذي كان ملماً بالمسائل الفقهية في المذهب الحنفي[3] ، مع فهم ، وذوق وبراعة في حفظ الشعر باللغة التركية وإلمام في ذلك ، كما كان يحب الفقهاء وأهل العلم ويجلهم[4] .

وتصدر السلطان المؤيد شيخ المحمودي (ت ٨٢٤هـ / ١٤٢١م) للإقراء والتدريس ، حيث كان يحمل إجازة براوية صحيح البخاري من حافظ زمانه سراج الدين البلقيني

---

(١) « مختصر القدوري » لأبي الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي ، ولد سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م وتوفي سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٧ م ، وتوجد منه نسخ عديدة خطية ومطبوعة بمكتبات العالم (سركيس : معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ج ٢ / ص ١٤٩٧ ، ص ١٤٩٨ ، بروكلمان ، كارل : تاريخ الأدب العربي ، نقله إلى العربية : عبد الحليم النجار ، الطبعة الثالثة . ج ٣ / ص ٢٦٩ ، ص ٢٧٠) . وهو من الكتب المشهورة في الفقه الحنفي كما يقول ابن خلكان ، وابن العماد : (وفيات الأعيان ، ج ١ / ص ٧٩ ، شذرات الذهب ج ٣ / ص ٢٣٣) .

(٢) ططر الظاهري الجركسي ، من ملوك الجراكسة بمصر والشام ، أصله من مماليك الظاهر برقوق ، ثم اعتقه وصحب السلاطين من بعده ، حتى تولى إدارة السلطة في أيام الملك المظفر أحمد بن المؤيد شيخ ، ونادى بنفسه سلطاناً سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١ م وكانت مدة حكمه إحدى عشر شهراً (المقريزي : السلوك ، ج ٤ / ٢ : ص ٥٦٧ ، ص ٥٨٩ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٨) .

(٣) المقريزي : السلوك ، ج ٤ / ٢ : ص ٥٨٩ ، السخاوي : الضوء اللامع ج ٤ / ص ٨ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٨ .

(ت ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م)[١] حتى أن الحافظ ابن حجر العسقلاني سمع الحديث من السلطان المؤيد وترجم له في عداد مشايخه[٢] في « المجمع المؤسس »[٣] وكان المؤيد « كثير التعظيم لأهل العلم والاكرام لهم »[٤] « ويجالسهم ويجل الشرع النبوي .... وكان غير مائل إلى شيء من البدع »[٥] .

كما ترجم البدر العيني كتابه « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان »[٦] إلى اللغة التركية ليقدمه إلى السلطان برسباي (ت ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م) ، وكان يعلمه أمور الدين ، مما جعل السلطان يقول : « لولا البدر العيني ، لكان في إسلامنا شيء »[٧] . وقد أثنى عليه العيني وذكر بأنه كان يحسن للطلبة والقراء والفقهاء[٨] .

---

(١) عمر بن رسلان بن عبد الحق الكناني القاهري ، البلقيني ، ولد ببلقينه من بلاد الغربية مصر ، ويعد من أشهر العلماء في الحديث والفقه والأصول وغيرها من العلوم ، وله تصانيف كثيرة (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦/ ص ٨٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧/ ص ٥١).

(٢) عبد المنعم ، شاكر محمود : ابن حجر العسقلاني ودرواسة مصنفاته ومنهجه وموارده في كتابه الإصابة (بغداد ، دار الرسالة للطباعة ، بدون ت) ج ١ / ص ٥٠ .

(٣) صدر الجزء الأول منه بتحقيق ، يوسف عبد الرحمن المرعشلي ٠(بيروت ، دار المعرفة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) .

(٤) ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٣ / ص ٢٣٧ ، ص ٢٥٧ .

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ٤ / ١ : ص ٥٥٠ .

(٦) يتكون من تسعة عشر مجلداً ، وبعض أجزاءه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، ومنه نسخة في ٢٤ جزءاً في مكتبة بايزيد بالقسطنطينية (سركيس ، يوسف اليان : معجم المطبوعات العربية والمعربة ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، بدون ت) ، ج ٢ / ص ١٤٠٣ ، وقد صدر منه أربعة أجزاء بتحقيق محمد محمد أمين (القاهرة ، الهيئة العربية العامة للكتاب ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ـ ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م) ، كما حقق منه جزء آخر ، عبدالرزاق القرموط كرسالة دكتوراه .

(٧) العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، تحقيق فهيم شلتوت ، (القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧م)، ص و .

(٨) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ٩ .

وكـان السلطان الظاهر جـقـمق (ت ٨٥٧هـ / ١٤٥٣ م) يجل العلمـاء ويرفع من مقامهم[١] . ويبحث مع العلماء والفقهاء ويلازم مشايخ القراءات ويقرأ عليهم دوماً[٢] ، وكان يتأسف لفقدانهم ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، تأسفه على وفاة شيخ الإسلام ابن حجر الذي كان يسميه أمير المؤمنين[٣] . وكانت له عناية باقتناء الكتب النفيسة ويعطي فيها الأثمان الزائدة عن ثمن المثل من أجل شرائها[٤] .

كما ألف السلطان قايتباي (ت ٩٠١هـ / ١٤٩٥م) ، ديواناً لطيفاً من نظمه وإنشائه في مناقبه ومآثره سماه « الدرة المضيئة في المآثر الأشرفية »[٥] .

وكـان السلطان قـانصوه الغـوري (ت ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) ، يحـرص على عـقـد المجالس العلمية والدينية مرة أو مرتين أو أكثر كل اسبوع[٦] .

ونتيجة لذلك فقد زاد النشاط العلمي في عصر المماليك، عن سابقه في زمن الأيوبيين وتوفر الوقت والمال لديهم ، فاهتموا بإنشاء دور التعليم في مختلف أنحاء مصر والشام والحجاز ، ورصدوا لها الأوقاف الواسعة ليضمنوا استمرارها وتأديتها على أكمل وجه[٧] .

---

(١) الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١ / ص ١٨٤ ، ص ١٨٥ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ / ص ٤٥٩ .

(٣) الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١ / ص ١٨٥ .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ / ص ٤٥٩ .

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٨ / ص ٧ .

(٦) الغـزي : الكواكب السـائرة ، ج ١ / ص ٢٩٤ ، ابن العـمـاد : شـذرات الذهب ، ج ٨ / ص ١١٦ ، الشوكـاني : البدر الطالع ، ج ٢ / ص ٥٥ ، عزام ، عبد الوهاب : مجالس السلطان الغوري (القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ م) ص ٤٩ ، النباهين ، علي سالم : نظام التربية في عصر دولة المماليك في مصر ، الطبعة الأولى (القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨١ م) ، ص ١٤٧ .

(٧) حمزة ، عبد اللطيف : الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي ، الطبعة الثامنة ، (القـاهرة ، دار الفكر العـربي ، ١٩٦٨ م) ص ١٥٤ ، ابن دقـيق العـيـد ، تقي الدين : الإقتراح في بيان الإصطلاح ، تحقيق قحطان عبدالرحمن الدوري ، ص ٢١ ، ص ٢٢ .

كما حظيت مكة المكرمة والمدينة المنورة بإهتمام خاص من سلاطين المماليك لما لها من مكانة عظيمة في نفوس المسلمين ، فأنشأوا المدارس المتعددة فيها لكي تكون ملتقى لطلبة العلم من أهل مكة والمدينة وأطراف الحجاز ، ومن يفد إليها من العلماء والتلامذة من خارجه ، كما أجزلوا العطاء لأهل الحرمين والمدرسين والقضاة[١] .

ويعود السبب الأهم إلى كون مكة والمدينة لهما أهمية كبرى في قلوب المسلمين ، فإذا اهتم بها السلاطين كان ذلك دافعاً لرضى العلماء ، الذين بدورهم سوف يثنون على السلاطين ، خاصة إذا عرفنا أن كثيراً من العلماء كانوا مجاورين بالحرمين الشريفين .

وكان لسلاطين المماليك دور كبير في إحياء الحركة العلمية في الحجاز ، فأنشأوا المدارس ، والكتاتيب ، والأربطة ، وقد سبق إنشاء المدارس في الحجاز دروساً قررها الأشرف شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) ، وكانت هذه الدروس في المذاهب الأربعة ، كما قرر درساً في الحديث وتصادير[٢] ، وقراء . ومؤذنين وغيرهم ، ومكتباً للأيتام[٣] ، بإشارة كبير دولته يلبغا الخاصكي ، وأوقف عليها أوقافاً كافية ، وقرر لهم رواتب مجزية[٤] .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١/٤ : ص ١٤٢ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٦٣٤ ، العيدروسي : النور السافر ، ص ١٠٤ ، المشيقح : تاريخ أم القرى ومكانة المرأة العلمية فيها من خلال الدر الكمين لابن فهد ، الطبعة الأولى ، (القصيم ، مطابع المنار ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م) ، ص ٥٣ .

(٢) تصادير : من الفعل : « تصدر » أي نصب صدره في الجلوس ، وجلس في صدر المجلس ، وصدّر كتابه تصديراً ، (الفيروزآبادي : القاموس ، ص ٥٤٣) ، بمعنى أنه جعل العلماء يتصدرون لقراءة الكتب .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٧ ، ص ١٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ١٩٠ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ١٩٠ .

(٤) انظر حجة الوقف الخاصة بالأشرف شعبان سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م (الفعر ، محمد فهد : تطور الكتابات والنقوش في الحجاز في العصرين المملوكي والعثماني من القرن الثامن الهجري حتى القرن الثاني عشر الهجري (رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، ١٤٠٦/١٤٠٧هـ) ص ٥١٨ ، ص ٥٣٣ .

كما كان في الحرم المكي الشريف درس في الحديث يقرأ فيه « صحيح البخاري » قرره الظاهر جقمق[1] (ت ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م) الذي كان سلطاناً متفقهاً[2] ، وقرر لأهل الحرمين الشريفين دشيشة[3] للفقراء كل يوم . ولكثير منهم رواتب الذخيرة[4] كل سنة ، تحمل إليهم من مائة دينار إلى عشرة أو أكثر من ذلك[5] ، ولاشك أن هذه الرواتب كانت تشمل العلماء ، والفقهاء ، والقضاة بالحرمين الشريفين .

واعتنى السلطان قايتباي (ت ٩٠١هـ / ١٤٩٥م) ، عناية فائقة ببلاد الحجاز تتناسب مع قدسية تلك البلاد ، فأنشأ آثاراً عظيمة ، ما بين مدارس وجوامع ، ومساجد ، وأسبلة ، ومكاتب ، ودياراً بمكة والمدينة[6] ، ليثبت أن سلطان مصر جدير بلقب « خادم الحرمين الشريفين »[7] ، لذلك أمر في سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م وكيله التجاري في مكة بالبحث عن منطقة تشرف على المسجد الحرام ، وأن يبني باسمه فيها مدرسة لتدريس المذاهب

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ٧٣ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ / ص ٤٥٦ ، ص ٤٥٧ ، المنهل الصافي ، ج ٤ / ص ٢٩٥ .

(٣) الدشيشة : هي حسو يتخذ من بُرَ مرضوض (الفيروزآبادي : القاموس ، ص ٧٦٦) ، وجاء في المعجم الوسيط : هو طعام رقيق من قمح مدقوق (المعجم الوسيط ، ج ١ / ص ٢٩٤) .

(٤) الذخيرة : ما أدُّخر (الفيروزآبادي : القاموس ، ص ٥٠٦) أي يتم إعطائهم رواتب تكفيهم لسنة .

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ٧٣ .

(٦) الملطي ، عبد الباسط بن خليل : نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، الطبعة الأولى (القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ، ص ١٤٥ ، ص ١٤٦ .

(٧) عبد التواب ، عبد الرحمن محمود : قايتباي المحمودي (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م) ص ٢٠٥ .

الأربعة ، ورباطاً لسكنى الفقراء يحوي إثنتين وسبعين خلوة[1] للأيتام ، ويشيّد مكتباً للأيتام يأوي ٤٠ طالباً[2] ، ونظم الدراسة بها ، وخصص المرتبات للمدرسين ، وكانت مرتباتهم تدفع ذهباً ، أما أهل الخلاوي والأيتام فكان يصرف لكل واحد منهم مايكفيه من القمح كل سنة[3]. وبلغ مصروف العمارة بالمسجد والمدرسة وتوابعهما ، وغير ذلك مائة وعشرين ألف دينار فأكثر فيما قيل[4] .

كما أوقف عليها عدة دور بمكة وبعض القرى والضياع بمصر لتنفق غلاتها على المدرسة ، فكانت تغل كل عام ألفي دينار ذهباً تحمل إلى مكة سنوياً[5] ، كما أرسل

---

(١) خلوة : مكان الإنفراد بالنفس أو بغيرها (المعجم الوسيط ، ج ١ / ص ٢٦٣) ، وهي عادة تتخذ للصوفية .

(٢) ابن طولون ، محمد بن علي بن أحمد : الغرف العلية في تراجم متأخري الحنفية ، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ١٤٦١ ، عن دار الكتب المصرية برقم ٦٣١ تيمور ، ورقة ٣٣ أ .الطبري ، محي الدين علي بن عبد القادر : الأرج المسكي في التاريخ المكي ، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ٣٤ ، عن مكتبة الحرم المكي برقم ٣ تاريخ دهلوي ، ورقة ٢٥، العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج ٤/ ص ٤٤ ، السنجاري : منائح الكرم ، ج٢ / ورقة ١٣، ورقة ١٤، عبد الله : تاريخ التعليم في مكة ، ص ٧٣ .

(٣) السمهودي : وفاء الوفا ، ج ٢ / ص ٧١٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ / ص ٣٢٩ ، النهر والي : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ٢٢٥ ، ص ٢٢٦ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج ٤ / ص ٤٤ ، السنجاري : منائح الكرم، ج ٢ / ورقة ١٤ ، اسماعيل ، اسماعيل أحمد : مدرسة السلطان قايتباي في المسجد الحرام ، (مجلة العرب ، السنة ١٤ ، رجب ، شعبان ١٣٩٩ هـ) ، ج ١ / ص ٨٨ ، ص ٨٩ ، السباعي : تاريخ مكة ، ص ٣٢٩ ، رفيع ، محمد عمر : مكة في القرن الرابع عشر الهجري ، الطبعة الأولى (مكة ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م) ، ص ١٩٦ ، عبد الله: تاريخ التعليم في مكة ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ .

(٤) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٤١١ .

(٥) العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج ٤ / ص ٤٤ ، السنجاري : منائح الكرم ، ج ٢ / ورقة ١٤ ، السباعي : تاريخ مكة ، ص ٣٢٩ .

السلطان قايتباي خزانة كتب وقفها على طلبة العلم ، وجعل مقرها المدرسة ، وعين لها خادماً جعل له معلوماً لذاته[١] .

كذلك عمر الأشرف قايتباي بالمدينة النبوية مثل ماعمر بمكة من المدرسة[٢] والرباط ، ومكتباً للأيتام ، وأوقف كتباً على طلبة العلم الشريف ، فأرسل مصاحف كثيرة ، وكتباً لخزانة المسجد النبوي الشريف عوضاً عما احترق[٣] . كما أرسل الأشرف البهائي بهاء الدين أبي البقاء ابي الجيعان ومعه أحمال من كتب العلوم الشرعية أوقفها بمدرسته بالمدينة النبوية[٤] . وأوقف على ذلك قرى بمصر تحمل غلالها إلى المجاورين ، والطلاب ، فتصرف عليهم ، فكانت حصة الفرد سبعة أرادب في العام ، وكان بالمدرسة مشرفان[٥] .

وأسهم نساء المماليك في إنشاء المدارس بالحجاز ، فقامت زوجة السلطان، زينب ابنة العلاء علي بن أحمد بن خاص بك[٦] سنة ٨٦١هـ / ١٤٥٦م بعمارة المدرسة العطيفية حين

---

(١) السنجاري : منائح الكرم ، ج ٢ / ورقة ١٣ ، ورقة ١٤ .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٢٠٧ ، التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٤١٠ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ٤١٠ ، العصامي : النجوم العوالي ، ج ٤ / ص ٤٥ .

(٤) السمهودي : وفاء الوفا ، ج ٢ / ص ٦٤٥ .

(٥) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٣٠٧ ، السمهودي : وفاء الوفا ، ج ٢/ ص ٦٤٣ ، ص ٦٤٥ ، النهروالي : الإعلام باعلام بيت الله الحرام ، ص ٢٢٨ ، الطبري : الأرج المسكي ، ورقة ١٣٢ .

(٦) زوجة السلطان الأشرف سيف الدين إينال ، وأم السلطان مؤيد أحمد ، ولها مآثر كثيرة بمصر، (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٤٤ ولم يذكر سنة وفاتها) . وقد أوهمت الباحثة آمنة جلال في إنشاء هذه المدرسة ، فقد ذكرت أن والدة الناصر محمد بن السلطان قانصوه الغوري هي التي قامت بتعمير المدرسة سنة ٨٦١ هـ (طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي ، ص ٣٩٠) .

أدائها لفريضة الحج[1] . وكانت آخر مدرسة قام بإنشائها المماليك مدرسة السلطان الغوري بمكة[2] .

وكان سلاطين المماليك يجلون هؤلاء العلماء والفقهاء القائمين على تلك المدارس ، وينعمون عليهم بالأموال ، فيذكر النجم بن فهد ، أن الأشرف برسباي بعث في سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م مركباً فيه قمح صدقة على أهل الحرمين ، وفرّق بالمدينة خمسمائة أردب من هذا القمح على القضاة ، والعلماء ، والفقهاء ، والخدام ، والأشراف ، ، والأيتام ، والأرامل ، كما فرق بمكة خمسمائة اردب قمح على أهل الحرم المكي ، وعلى الأربطة والمجاورين[3] . كما كان سلاطين المماليك يكرمون وفادة علماء الحجاز وينعمون عليهم بالأموال ، فقد أنعم السلطان قايتباي سنة ٨٩٥هـ / ١٤٨٩م على أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد القرشي الحرازي[4] . بعشرين ديناراً ، وعلى أبيه حين ذكر صلاحه بخمسين ديناراً فحملت له إلى مكة[5] . وكانوا يقومون بإرسال صلات تقوم بكفاية العلماء وغيرهم من مجاوري الحرمين الشريفين[6] .

ولم يكن الأمراء أقل نصيباً في تحصيلهم للعلم من سلاطينهم ، بل ربما فاقوهم ، ولذا اقترن اسم بعضهم بلقب « محدث » أو « فقيه »[7] .كما اهتموا بالحركة العلمية في

---

(١) النجم ابن فهد : اتحاف الورى ، ج ٤ / ص ٣٧٢ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ / ص ٩٥ ، وسوف يأتي الحديث عنها وعن اللبس الذي وقع فيه الباحثين .

(٣) النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٦٣٤ .

(٤) نسبة إلى جبل باليمن يسمى حراز (انظر ترجمته في السخاوي : الضوء اللامع ج ٢/ ص ٨٣).

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ،ج ٧ / ص ٧٥ ، ص ٧٦ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٣٨٣ ، ص ٣٨٨ ، ص ٣٨٩ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٥٢١ ، ص ٥٢٩ .

(٧) مثل تغري برمش الجلالي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨ م) الذي شارك في علوم الحديث والفقه والتاريخ والأدب (ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ٤ / ص ٧١ ، ص ٧٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ٣٣ ، ص ٣٤) .

الحجاز وأنشأوا كثيراً من المدارس بالحرمين الشريفين ، منهم الأمير أرغون الدوادار(١) (ت ٧٣١هـ / ١٣٣٠م)(٢) أحد مماليك السلطان المنصور قلاوون ، الذي أنشأ مدرسته قبل سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م(٣) .

كما أنشأ الأمير خشقدم الزمام(٤) (ت ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م)(٥) مدرسته سنة ٨٣٥هـ / ١٤٣١م وأوقف عليها أوقافاً(٦) تجعلها تؤدي دورها العلمي على أكمل وجه . ويكاد أمراء المماليك يتفوقون على سلاطينهم بإقامة هذه المنشآت التعليمية ،خاصة إقامة الدروس بالحرمين الشريفين ، فمن ضمن الدروس التي قررها أمراء المماليك ، درس للأمير يلبغا بن

---

(١) الدوادار : وظيفة يحمل صاحبها دواة السلطان أو الأمير ، ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه ، وتقدم القصص والشكاوي إليه (المقريزي : السلوك ، ج ١/١: ص ١٤١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ / ص ٤٩٢) .

(٢) أرغون الناصري :اشتراه المنصور قلاوون ورباه مع ولده الناصر محمد ، وتولى عنده نيابة السلطنة بمصر سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢ م ، ثم ولاه نيابة حلب ، واشتغل بالفقه على مذهب الحنفية ومهر فيه حتى صار من أهل الإفتاء (الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٢٨٢ ، ص ٢٨٣ ، شفاء الغرام ، ج١ / ص ٣٢٨ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ / ص ٣٥١) .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ١١٧ ، ص ١١٨ ، شفاء الغرام ، ج ١ / ص ٣٢٨ .

(٤) يقصد بالزمام : زنان الدار ، وهو لقب يطلق على الذي يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير ، وعادة يكون من الخدام الخصيان ، وهو مركب من لفظين : زنان ، ومعناه النساء ، ودار ومعناه : ممسك فهو إذن الموكل بحفظ الحريم (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ / ص ٤٣٢) .

(٥) خشقدم بن عبد الله الظاهري الزمام الطواشي ، عتيق الظاهر برقوق ، تولى الخزندارية في دولة الأشرف برسباي ، ثم نقل إلى الزمامية ، واستمر بها حتى مات (ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج ١ / ص ٢٨٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ١٧٥) .

(٦) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٥ / ص ٢٠٧ ، ص ٢١٠ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٤ / ص ٦٤ ، ص ٦٥ .

عبدالله الخاصكي[1] (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) . يدرس فيه المذهب الحنفي ، حيث كان متعصباً لهذا المذهب ، وكان يجزل لأتباع هذا المذهب العطاء الجزيل ، حتى تحول جمع من الشافعية إلى مذهب الحنفية من أجل ذلك ، وكانت له صدقات كثيرة على طلبة العلم[2] .

وطيبغا بن عبدالله المعروف بالطويل (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م)[3] الذي كان شريكاً للأمير يَلْبُغَا الخاصكي في تدبير المملكة بالديار المصرية ، وحج سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦١م وقرر بالحرم المكي الشريف سبعاً[4] يقرأ منه القرآن ، وأوقف أوقافاً على ذلك[5] .

---

(١) نسبة إلى جماعة الخاصكية ، وهم حاشية السلطان ويتمتعون بمكانة كبيرة في الدولة ، حيث كانوا يدخلون على السلطان في أوقات فراغه ، وفي خلواته بغير إذن . وخصص لهم السلطان الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة ، وامتازوا بحسن المظهر ، واناقة الركوب والملبس (القلقشندي: صبح الأعشى ، ج ٣ / ص ٥٥٢ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ / ٢ : ص ٦٤٤ ، الهامش ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٤ / ص ١ ، الهامش).

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ١٦٧ ، الهامش ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ / ص ٤٣٩ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٢٩٦ .

(٣) كان شريكاً للأمير يلبغا ، ثم وقعا بينهما فتحاربا فَغَلَب يلبغا ، واعتقل طيبغا بالاسكندرية ، ثم أطلق وولى نيابة حماه ، ثم حلب ، ومات بها (الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٧٥ ، ص ٧٦ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٢٣١ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج١١ / ص ١٠٢ ، وذكرا وفاته سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧م) .

(٤) سبعاً : جزء من سبعة أجزاء من القرآن الكريم (المعجم الوسيط ، ج ١ / ص ٤٣٠) .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٧٥ ، ص ٧٦ ، ابن حجر: الدرر الكامنة ، ج ٢/ ص ٢٣١ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١١ / ص ١٠٣ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٢٩٦ .

وكذلك بركه بن عبدالله العثماني (ت ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م) رفيق الملك الظاهر برقوق ، الذي كان يحب العلماء والفقراء ويكثر الصدقات وفعل الخير بالحرمين الشريفين ، وعمر بمكة مطهرة عظيمة تعرف به ، وفوقها ربعاً[١] هائلاً ، وهو وقف عليها[٢] ، بالإضافة إلى درْس الأمير إيتمش بن عبدالله البجاسي (ت ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م)[٣] ، ودرْس للأمير بشير الجمدار[٤] ، ودرْس للأمير خير بك الأشرفي برسباي (ت ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م)[٥] ، الذي ذكره السخاوي وقال « وحضر عندي عدة مجالس بمكة ، وكان يجلس فيها بدون حائل تعظيماً للعلم وحملته ، وأحسن إليّ بما يثيبه الله مع الاعتذار »[٦] .

وكان لأهالي الحرمين الشريفين مكانة عالية عند سلاطين المماليك ، حيث شملوهم بحمايتهم ، ورعايتهم ، وعنايتهم ، وضمنوا لهم الأمن والاستقرار ، باعتبارهم حماة الحرمين الشريفين . لذلك كثيراً ما كانوا يتدخلون لتثبيت الأوضاع وتهدئتها ونشر الاستقرار في الحرمين الشريفين ، عن طريق فض النزاعات التي كانت تقوم بين الولاة حول الامارة ، والتي

---

(١) ربْعاً : وهي المنزل أو الدار والسكن الذي يتخذ للإقامة : (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٨ / ص ١٠٢ ، المعجم الوسيط ، ج ١ / ص ٣٣٦) .

(٢) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٣ / ص ٣٥٥ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٣٣٤ .

(٣) أيتمش البجاسي الشركسي ، كان من المقربين للسلطان الظاهر برقوق ، ثم أمسك به وقتل بقلعة دمشق وهو صاحب المدرسة الايتمشيه بمصر . (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٣ / ص ١٢ ، الدليل الشافي ، ج ١ / ص ١٦٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ٣٢٤ .

(٤) لم أعثر على ترجمته ، والجمدار : هو الذي يتصدى لالباس الملك أو الأمير ثيابه ، وأصله جاما ومعناه : الثوب ، ودار ومعناه : ممسك ، فيكون المعنى « ممسك الثوب » (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ /ص ٤٣١).

(٥) كان من المقربين لسلاطين المماليك برسباي وجقمق وقايتباي ، واشتغل بالقراءات والفقه والأصول ، وله كثير من المآثر بمصر وحلب والحرمين الشريفين (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ٢٠٧ ، ص ٢٠٨) .

(٦) ن . م . س . ج ٣ / ص ٢٠٨ .

تتسبب في كثير من الأحيان في إيذاء العلماء والمجاورين ، حتى وصل بهم الأمر إلى إرسال الجند المماليك من مصر لذلك الغرض ، كما حدث في النزاع الذي وقع بين الأميرين حميضه ورميثه سنة ٧١٣هـ / ١٣١٣م . ونتيجة لذلك فقد قدم المجاورون شكوى في حقهما إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون[١] الذي عزلهما بدوره وولى بدلاً منهما أخيهما أبي الغيث ، وكذلك في سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م عندما طلب المجاورون من السلطان الناصر أن يحميهم من الأمراء المتنازعين على الأمره فلبى لهم ما أرادوا ، إذ خلف عسكراً بمكة للمحافظة على الأمن بها[٢] وكان السلاطين يعتبرون هذه الحماية والرعاية أمراً تمليه عليهم عقيدتهم ، ويفرضه الواجب ، خاصة وأن هؤلاء العلماء والمجاورين منقطعون للعبادة ولا مطمع لهم ، وانطلاقاً من هذا كان السلاطين يهبون لمساعدتهم في حالة تضررهم ، إلى أن وصل بهم الأمر أن يشترطوا على الولاة عدم إيذاء المجاورين في حالة تظلمهم منهم ، كما حدث في المدينة النبوية في سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦ م حينما استنجد المجاورون بالسلطان الناصر من تعسف والي المدينة منصور بن جماز الذي شرط عليه « أن لا يؤذي المجاورين والخدام »[٣] . كما « بعث السلطان الملك الظاهر برقوق خلعة[٤] لعلي بن عجلان ... وأمره بالإحسان إلى الرعية والعدل فيهم ، لما بلغه أن علياً تعرض لأخذ شيء من المجاورين بمكة ، فقرئ الكتاب بالمسجد الحرام بعد لبسه للخلعة ، وكان الذي حمله على الأخذ فقده لما كان يعهد من النفع بجده[٥] ، ومطالبة بني حسن له بالعطاء »[٦] .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ /٣ : ص ٩٤٨ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ١٣٨ .

(٢) النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ١٦٦، مورتيل : الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، ص ٨٠ .

(٣) ابن فرحون ، عبد الله بن محمد اليعمري : نصيحة المشاور وتسلية المجاور ، مصور بمركز البحث العلمي واحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ٥٤١ تاريخ ، عن مكتبة الحرم المكي الشريف برقم ٥ دهلوي ورقة ٢٠٤ ـ ورقة٢٠٥ .

(٤) خلعه : ما تخلعه من الثياب ونحوها ، ويقال خلع عليه خلعه : أعطاه أو ألبسه إياها (المعجم الوسيط ، ج ١ / ص ٢٥٩) .

(٥) يعني : المكوس .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦ / ص ٢١٣ ، العز بن فهد : غاية المرام ، ج ٢ / ص ٢٣٥ .

وهذا يبين لنا مدى ماتمتعت به مكة والمدينة من عناية وحماية من سلاطين المماليك ..

ولم يقف الإهتمام بالحركة العلمية في الحجاز على المماليك وحدهم ، بل تعدى ذلك الإهتمام إلى سلاطين بني رسول باليمن ، وملوك وأمراء الهند ، وأمراء بعض البلدان الإسلامية ، فقد اهتم سلاطين بنو رسول (٦٣٠هـ / ١٢٣٢ م ـ ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م) بالحركة العلمية في الحجاز وأقاموا بعض المنشآت والمعاهد العلمية ، ويكاد يكون إهتمامهم بإقامة المدارس في الحجاز أكثر من إهتمام سلاطين المماليك وأمراء الحجاز أنفسهم ، وخير دليل على ذلك عدد المدارس التي قاموا بإنشائها في الحجاز .

وقبل أن نستعرض هذه المدارس يجدر بنا أن نذكر أن بني رسول كانوا على جانب كبير من العلم والمعرفة ، حتى أن بعضهم قام بتأليف الكتب ، فقد كان الملك المظفر شمس الدين يوسف (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م) يجالس العلماء والصالحين ، وكان مشتغلاً بالعلم أخذ من كل فن بنصيب . وكان يكتب كل آية من كتاب الله تعالى وتفسيرها فيحفظها ويحفظ تفسيرها عن ظهر قلب ، وله اليد الطولى في علم الطب ، ويدل على ذلك حينما كتب إلى الملك الظاهر بيبرس أنه محتاج إلى طبيب لمدينة ظفار[1] لأنها وبيئة وقال « لا يظن المقام العالي أنا نريد الطبيب لأنفسنا فإنا نعرف بحمد الله من الطب ما لا يعرفه غيرنا وقد اشتغلنا فيه من أيام الشبيبة إشتغالاً كثيراً وولدنا عمر الأشرف من العلماء بالطب ، وله كتاب جامع ليس لأحد مثله »[2] . كما أخذ علم الحديث عن عالم مكة المحدث الفقيه محب الدين الطبري[3] . وله كثير من المؤلفات منها « جمع أربعون حديثاً منتزع من كتاب

---

(١) ظفار : مدينة على ساحل بحر الهند بالقرب من صنعاء وتشتهر بشجر اللبان في جبالها ،ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ / ص ٦٠ ، وتقع على بعد ٤٦٠ ميلاً ، وهي جزء من سلطنه عمان ، غربي العاصمة مسقط وتشكل مساحتها ثلث مساحة سلطنة عمان ، يحدها شمالاً المملكة العربية السعودية وغرباً اليمن (الغساني ، عبدالقادر : أرض اللبان في سلطنة عمان ، مقال قدم تحت عنوان حصاد ندوه الدراسات العمانية ، نشر وزارة التراث القومي ، سلطنة عمان ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ج١ /ص١٦٧) .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤيه ، ج ١/ص ٢٧٧ - ص ٢٧٨

(٣) السبكي : عبد الوهاب بن علي : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبدالفتاح الحلو ، محمود الطناحي ، الطبعة الأولى (القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦ م) ، ج ٨ ، ص ١٩ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ١ / ص ٢٧٧ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٦٥ .

الترغيب والترهيب للمنذري »[1][2] . وله أيضاً « تيسير الطالب في تيسير الكواكب »[3] . وله أيضاً « المخترع في فنون من الصنع »[4] وكذلك ألف « البيان في كشف علم الطب للعيان »[5] و « العقد النفيس في مفاكهة الجليس »[6] .

كما كان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن عمر بن علي (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م)[7] ، عالماً مشاركاً في الفقه والحديث والنحو والأنساب والطب والفلك ، وصنف مصنفات كثيرة ،

---

(١) هو الإمام المحدث عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامه زكي الدين أبو محمد المنذري ، ولد سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥ م . وأخذ عن كثير من العلماء ورحل إلى مكة ودمشق وغيرها وتوفي سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وله الكثير من المصنفات منها : « الترغيب والترهيب من الحديث الشريف » ، وهو مطبوع في أربعة أجزاء بتحقيق مصطفى محمد عماره (انظر : المنذري : الترغيب والترهيب ، ص ٢٤ مقدمة المحقق) .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ١ / ص ٢٧٧ .

(٣) حاجي خليفه ، مصطفى بن عبد الله القسطنطني : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م)، ج ١ / ص ٥١٩ .

(٤) ذُكر أنه من تأليف الملك المجاهد (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢ م) . وحققه ، محمد عيسى صالحيه ، كلية الآداب ، الكويت (أخبار التراث العربي ، نشرة يصدرها معهد المخطوطات العربية ، الكويت . عدد ٢١ ، محرم ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م) ، ص ١٩ . والمخطوط مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ١٤٣ معارف عامة ، عن دار الكتب المصرية برقم ٦٠٧٩ .

(٥) يقول الزركلي أنه رآه بإحدى مكتبات الطائف في مجلدين (الاعلام : الطبعة التاسعة (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٩٠ م) ، ج ٨ /ص ٢٤٣ ، ص ٢٤٤ .

(٦) منه نسخة مخطوطة في خزانة مجلس الشورى بطهران (الزركلي : الاعلام ، ج ٨ / ص ٢٤٤) .

(٧) تولى الحكم سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م وحدث بينه وبين أخيه المؤيد عدة حروب ، وهو أول من قام بإحصاء النخل بواسطة المندوبين الواثق منهم ، (اليماني ، تاج الدين عبدالباقي : تاريخ اليمن المسمى « بهجة الزمن في تاريخ اليمن »، تحقيق ، مصطفى حجازي ، الطبعة الثانية (صنعاء ، دار الكلمة ، ١٩٨٥ م) ص ١٠٠ ـ ص ١٠١ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ١ / ص ٢٨٤ ، ص ٢٩٨) .

منهـا « الإبدال لما علم في الحـال »[1] و « الأسطـرلاب »[2]،و « طرفـة الأصـحـاب في معرفة الأنساب »[3] ، و « التـبـصـرة في علم النجـوم »[4] ، و « المعـتـمـد في الأدوية المفردة »[5] و « المغني في البيطرة »[6] و « الجامع في الطب »[7] . و « التفاحة في علم الفلاحة » و « ملح الملاحة في معرفة الفلاحة »[8] .

---

(١) مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ١٦٧ أدوية طب ، عن مكتبة الأحقاف باليمن برقم ١١١٠ / ١٠ .

(٢) وجدته بعنوان « منهج الطلاب في عمل الاسطرلاب » نسخة مصورة بجامعة حلب برقم ٨٣٩ ، عن نسخة إيران ، مجلس شورى برقم ١٥٠ (فهرس المخطوطات المصورة في مكتبة معهد التراث العلمي بجامعة حلب ، إعداد قسم الفهرسة والتصنيف ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م) ، ص ٢٣١ ، وانظر كذلك مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ٢١ ، ١٣٩٥ هـ ، ج ٢ / ص ١٩٤ .

(٣) قام بتحقيقه سترستين وطبع ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٤٩ م ، مصور بمقدمة في أربعين صفحة للأستاذ صلاح المنجد (الحبشي ، عبد الله محمد : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن (بيروت ، المكتبة العصرية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م) ص ٦٠٩ .

(٤) ورد ذكره في فهرس مكتبة الأميدولبان 586 - 1196 et. A. E. 1 I (الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٦٠٩ ، كما توجد نسخة خطية باكسفورد برقم ٢٣٣ -Hun tington) الأكوع ، إسماعيل بن علي ، المدارس الإسلامية في اليمن ، الطبعة الثانية ، بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م) ص ١٨٥ .

(٥) طبع سنة ١٣٢٧هـ بمطبعة الحلبي ، ثم أعادت طبعه نفس المكتبة بتحقيق مصطفى السقا (ن . م . س . ص ٦٠٩) .

(٦) يوجد منه عدة نسخ في مكتبات العالم ، ويأتي عنوانه أحياناً بـ « التذكرة في معرفة البيطرة » (انظر : الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٦١٠ ، فهرس المخطوطات المصورة بجامعة حلب ، ص ٢٩ .

(٧) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ / ص ٢٧٨ .

(٨) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ / ص ٣٣٨ ، ص ٣٦٢ ، كحالة : معجم المؤلفين ، ج ٨ / ص ٦ ، الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٦٠٩ .

ومن الوسائل التي اتبعها الملك المؤيد داود بن يوسف بن عمر (ت ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م)[١] : في النهوض بالمستوى العلمي ـ العناية بالكتب والإهتمام بجمعها وحيازتها من كل الأقطار ، وقد بلغ من حبه للكتب وشغفه بها أن أشتملت خزانته على مائة ألف مجلد[٢] كما كان لديه عشرة نساخ ينسخون الكتب ، وترفع إلى الخزانة بعد مقابلتها وتحريرها[٣] .

وتنسب إليه بعض الكتب ، وهي عبارة عن نقولات واختصارات ، منها « شرح طردية أبي فراس الحمداني » في الشعر ، و « مختصر كتاب الجمهرة في البيزرة »[٤] .

أما علي بن داود بن يوسف (٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)[٥] ، فقد كان له عدة مؤلفات : منها « الأقوال الكافية والفصول الشافية في علم البيطرة »[٦] ، و « التذكرة في معرفة

---

(١) ولد سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م ، وتولى الحكم سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦ م بعد وفاة الأشرف ، ومن مآثره المدرسة المؤيدية في تعز (انظر ترجمته في : اليماني : بهجة الزمن ، ص ١٠١ ، ص ١٣٣ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ١ / ص ٢٩٩ ، ص ٤٤٢ ، الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ / ص ٤٢٨ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٩٩).

(٢) الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٤٢٨ ، الدميري : حياة الحيوان ، ج ٢ / ص ٣٨٨ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٩٩ ، ص ١٠٠ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٥ / ص ٣٠٧ ، ص ٣٠٨ . ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ / ص ٥٥ .

(٣) اليماني : بهجة الزمن ، ص ١٢٨ .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ١ / ص ٤٤٢ .

(٥) ولد سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦ م وتولى الحكم سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١ م بعد وفاة والده المؤيد ، له كثير من المآثر في اليمن من عمائر ومساجد وقصور ومدارس في تعز (انظر ترجمته في : اليماني : بهجة الزمن ، ص ١٢٨ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ / ص ١ ، ص ١٢٦).

(٦) طبع بتحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، الطبعة الأولى (بغداد ، دار الغرب ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) .

البيطرة »[١] ، و « الإرشاد في علم الفلاحة »[٢] و « كتاب في الخيل وصفاتها وأنواعها وبيطرتهـا »[٣] و « ديوان شعر »[٤] كما كان الملك الأفضل ضرغام الدين العباس بن علي (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م)[٥] فقيهاً مشاركاً للعلماء في عدة فنون من العلم ، عارفاً بالنحو والآداب واللغة والأنساب ، وسير العرب وسير الملوك[٦] ، وصنف عدة كتب منها : « نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون »[٧] وكتاب « العطايا السنية والموارد الهنية في المناقب اليمنية »[٨] يحتوي على طبقات فقهاء اليمن وكبرائها وملوكها ووزرائها ، وله أيضاً كتاب

---

(١) مخطوط في كوبرلي برقم ١٢٢٥ (الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٦٢٥).

(٢) الأكوع ، محمد علي : اليمن الخضراء ، الطبعة الأولى (القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٩١م) ص ٧٤ ، الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٦٢٤ .

(٣) مخطوط بمكتبة الجامع بصنعاء (الكتب المصادرة » ومصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٠٧ (الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٦٢٥) .

(٤) بامخرمه ، عبدالله بن عبد الله : تاريخ ثغر عدن (ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٣٦ م) ، ج ٢ / ص ١٥١ ، الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٦٢٥ .

(٥) تولى الحكم سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م بعد وفاة والده ، وفي عصره خمدت جذوة الفتن وعاشت البلاد في حالة أمن واستقرار ، وله مآثر كثيرة ، منها مدرسة في تعز (الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ / ص ١٢٧ ، ص ١٦٣ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٩٤ ، ص ٩٥ ، ابن حجر : إنباء الغمر ، ج ١ / ص ٢١٠ ، ص ٢١١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٢ / ص ٢٥٧) .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ /ص ١٥٨ .

(٧) وهو ذيل على كتاب « العطايا السنية والموارد الهنية في المناقب اليمنية » مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ٣٤٦ ، عن مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٥١ .

(٨) ن . م . س .

« نزهة الأبصار في اختصار كنز الأخبار » واختصـر « تاريخ ابن خلكان »[١] ، وله أيضـاً كتاب « بغية الهمم في أنساب العرب والعجم »[٢] وكتاب في « الألغاز الفقهية »[٣] وله كذلك « بغية الفلاحين في الأشجار والرياحين »[٤] . و « نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء »[٥] .

أما الملك الأشرف اسماعيل ممهد الدين ابن العباس (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م)[٦] . فقد كانت له طريقة مميزة في التأليف ، فكان يقوم بكتابة أصول الكتاب الأولى ثم يدفعها إلى من يتمها ويهذبها ، فإذا عرضت عليه مرة أخرى زاد فيها أو نقص[٧] . وله من المؤلفات : كتاب « التاريخ »[٨] ، يقول عنه العيني أنه تاريخ لطيف في تراجم معاصريه[٩] ، وكتاب « العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في أخبار الخلفاء والملوك »[١٠] . وهو تاريخ موسع في أخبار بلاد اليمن والبلاد الإسلامية عامة ، وكتاب « فاكهة الزمن

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ / ص ١٥٨ .

(٢) منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع في صنعاء « الكتب المصادره » ونسخة أخرى بمكتبة المجمع العلمي بدمشق مخطوط عن برلين ١٨٩٠ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٩٦ .

(٤) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٥ زراعة .

(٥) طبع بتحقيق نبيلة عبدالمنعم داود ، الطبعة الأولى (بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م) .

(٦) ولد سنة ٧٦١هـ / ١٣٥٩م وتولى الحكم سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م . بعد والده الأفضل ، وكان محمود السيرة ، وأحدث تعديلات اجتماعية كثيرة منها « أمر النساء بعدم اتباع الجنائز » (الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ / ص ١٦٣ ، ص ٣٣٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ٢٩٩) .

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ٢٩٩ .

(٨) مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ١٨ عن مكتبة الأصفية بحيدر آباد ، الهند .

(٩) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ٢٩٩ .

(١٠) طبع بتحقيق شاكر محمود عبدالمنعم (بغداد : دار البيان ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م) .

ومفاكهة الآداب والفطن في أخبار من ملك اليمن »[1] ويسمى أيضاً «مرآة الزمن في تحالف أخبار اليمن» . وهو كتاب بدأه بظهور الإسلام إلى نحو سنة ٨٠٢هـ / ١٣٩٩ م)[2] .

ولقد سعى آل رسول إلى تقريب أولي العلم والمعرفة وقاموا بإكرامهم وتهيئة المناخ المناسب لهم ، لكي ينصرفوا إلى العلم والبحث العلمي في حقول المعرفة المختلفة . وهكذا يبدو واضحاً القدر العلمي العظيم لملوك بني رسول وكيف كان لحياتهم الحافلة بالعلم وحبهم للتأليف أثر كبير في علو مكانتهم العلمية .

وكان لتضلع الكثير من علماء الحجاز ومجاوروه في العلم ، أن جعلت من سلاطين بني رسول يستدعونهم إلى اليمن ليأخذوا عليهم بعض العلوم ، كما فعل الملك المظفر شمس الدين يوسف (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م) حينما استدعى محب الدين الطبري ، ليسمع عليه الحديث وبعض مروياته ومؤلفاته[3] . وكانت للمحب الطبري عند المظفر مكانة عظيمة ، وكان يحسن إليه كثيراً ، ورتب له في كل شهر خمسين ديناراً على التدريس بمدرسة والده بمكة ، والمعروفة بالمنصورية[4] .

كما أجاز المحب الطبري الملك المؤيد (ت ٧٢١هـ / ١٣٢١ م) ، في كتاب «البخاري» و « صحيح الترمذي » و « صحيح مسلم » وأجازه في باقي الأمهات من كتب الحديث[5] .

---

(١) منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ١٤٠٩ تاريخ .

(٢) الحبشي : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، ص ٦٣٣ .

(٣) اليافعي ، أبو محمد عبدالله بن أسعد : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان ، الطبعة الثانية (بيروت ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م)، ج ٤ / ص ٢٢٤ ، السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٨ / ص ١٩ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١ / ص ٣٤٧ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٦٥ .

(٥) الكتبي : فوات الوفيات ، ج ١ / ص ٤٢٨ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ١ / ص ٤٤١ ـ ص ٤٤٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٩٩ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٩ / ص ٢٥٣ .

وكان الملك الأشرف اسماعيل (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠ م) ، كثير الإكرام للعلماء ، وبلغ من اكرامه للعلماء أنه حينما صنف له الفيروز آبادي كتاباً وأهداه له على أطباق ، ملأها له دراهم[١] . كما ألزموا بعض العلماء المجاورين على الإقامة في اليمن ، فهذا محمد بن اسماعيل بن يوسف بن عثمان الحنفي الشيخ شمس الدين الناسخ المقريء (ت ٨١٤هـ / ١٤١١ م)[٢] ، ألزمه ملك اليمن على الإقامة عنده ، لأنه كان خبيراً بالقراءات السبع[٣] .

كما كان البعض من هؤلاء العلماء والفقهاء يتولى القضاء في اليمن ، ثم يعود إلى الحجاز ليتولى التدريس في بعض مدارسها ، أو يلي النظر في الأوقاف لأحد مدارسها ، وازدادت مكانة علماء الحجاز ومجاوروه عند ملوك آل رسول باليمن ، حتى قاموا بتوليتهم في مناصب كبيرة في الدولة ، مثل : محمد بن أبي بكر بن علي الذروي ويعرف بالجمال المصري (٨٢٠هـ / ١٤١٧م)[٤] الذي ولاه الأشرف حسبة زبيد ، حينما قدم اليمن رسولاً للأشرف ، وحدّث ودرّس الطلاب بمدينة زبيد التي أستوطنها وصار ملجأ للغرباء لاسيما أهل الحجاز[٥] .

كما قام بعض العلماء والمجاورين بالحرمين الشريفين بتصنيف وتأليف الكتب وقدموها لملوك آل رسول باليمن ، ومنهم محب الدين الطبري الذي ألف للملك المنصور (ت ٦٤٧هـ /

---

(١) مجهول : تاريخ المحمدين ، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ٨٨٨ ، ورقة ٢٤٢ أ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٤١٦ ص ٤١٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٤٣ ص ١٤٤ ، ابن طولون : الغرف العلية ، ورقة ٢٠٤ ب .

(٣) ابن طولون : الغرف العلية ، ورقة ٢٠٤ ب .

(٤) ولد سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م بالذروة من صعيد مصر (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٨١) .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ / ص ٢٢٣ ، ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٣ / ص ١٥١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٨٢ ، مجهول : تاريخ المحمدين ، ورقة ١٦٢ أ .

١٢٤٩م) كتاباً سماه « الدر المنثور للملك المنصور »[١] ، كما ألف لابنه المظفر (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م) كتاباً سماه « الطراز المذهب المحبر في تلخيص المذهب للملك المظفر »[٢] وذكر الفاسي أن هذا الكتاب لم ينقح ، ولم يخرج من المسودة ، ولم يؤلف إلا بمقتضى أمر السلطان المظفر[٣] . وكتاب « المحرر للملك المظفر » جمع فيه أحكام الصحيحين[٤] . كما ألف تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) كتاباً في بني رسول سماه « تقريب الأمل والسيول من أخبار السلاطين بني رسول »[٥] . وألف الفيروز آبادي كتاباً للملك الناصر (ت ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م)[٦] سماه « تسهيل الوصول إلى الأحاديث الزائدة على الأصول »[٧] حيث جمع فيه الأحاديث الضعيفة ليريحه من التفتيش عليها في كتب الحديث[٨] . وصنف للأشرف اسماعيل (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م) كتاباً سماه «الإصعاد إلى رتبة الاجتهاد »[٩] .

إن هذا الاهتمام من ملوك بني رسول لعلماء الحجاز ، وفقهائه ، وقضاته ، يعكس لنا مدى الترابط الثقافي بين الحجاز واليمن[١٠] ، كما يؤكد لنا ذلك المستوى العلمي الرفيع

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣/ ص ٦٤ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١/ ص ٣٤٧ ص ٣٤٨ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص٦٤ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١/ ص ٣٤٨ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٦٤ .

(٤) ن . م . س . ج ٣ / ص ٦٣ .

(٥) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٥ أ .

(٦) هو الملك الناصر أحمد بن الملك الأشرف إسماعيل ، تولى الحكم سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م ، وقام ببناء كثير من الحصون ، وينسب إليه الدار الكبير الناصري في مدينة زبيد (ابن الديبع ، عبدالرحمن بن علي : الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، تحقيق يوسف شلحد (صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث ، ١٩٨٣م) ص ١٠١ - ص١٠٨

(٧) مجهول : تاريخ المحمدين ، ورقة ٢٤٢ أ .

(٨) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٩٨ .

(٩) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ٢ / ص ٢٩٧ ، مجهول : تاريخ المحمدين ، ورقة ٢٤٢ أ .

(١٠) انظر الفصل الخاص بالعلاقات العلمية .

لسلاطين بني رسول ، وعلو مكانة العلماء لديهم وذلك دفعهم أيضاً إلى إقامة الكثير من المآثر الخيرية والعلمية في الحجاز ، ومن الجدير ذكره هنا أنه لم يكن لهم دروس في الحرمين الشريفين ، كما أن إنشاءاتهم العلمية تركزت بشكل خاص في مكة المكرمة ، ولعل السبب يعود في ذلك إلى قرب مكة من الطريق الموصل إلى اليمن . ويلاحظ أن أهم مآثرهم العلمية هو إنشاء المدارس وأهمها :

١ ـ المدرسة المنصورية بمكة ، وقد أنشأها المنصور نور الدين عمر بن علي (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) .

٢ ـ المدرسة المجاهدية بمكة ، وقد أنشأها المجاهد علي بن داود بن يوسف (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) .

٣ ـ المدرسة الأفضلية ، وقد أنشأها الأفضل عباس بن علي بن داود (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م)[١] .

وبعد سقوط دولة بني رسول في اليمن سنة ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م[٢] ، اهتم بنو طاهر[٣] بالحركة العلمية في الحجاز ، حيث يُذكر أنه كانت هناك مراسلات بين السلطان عامر

---

(١) سوف يأتي الحديث عنها بالتفصيل في الفصل الخاص بالمدارس .

(٢) ابن الديبع : الفضل المزيد ، تحقيق شلحد، ص ١٢١ .

(٣) ينسبون إلى جدهم طاهر بن معوضة بن تاج الدين القرشي الأموي العمري ، وأول من تولى حكم هذه الدولة الملك المجاهد شمس الدين علي بن عامر بن طاهر ، وظلت هذه الأسرة تحكم اليمن حتى سقوطها سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م بعد مقتل السلطان عامر بن عبدالوهاب (ابن الديبع : الفضل المزيد ، تحقيق ، شلحد ، ص ١٢١ ، ص ٣٧٣ ، العيدروسي : النور السافر ، ص١١٠) .

بن عبدالوهاب (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧ م)[١] وعالم مكة أبو السعود إبراهيم بن ظهيرة ، حيث أرسل إليه رسولاً يحمل إليه كتاب « فتح الباري » لابن حجر ، فأرسل إليه السلطان عامر رسولاً ، وأمر بإعانته في إقامة رباط البعداني بمكة وعمارته ، كما أمر أن يشتري له في المدينة ضياعاً[٢] لتكون وقفاً على مقدمه[٣] للقرآن التي بعثها إلى المدينة المنورة[٤] .

أما ملوك الهند وأمراؤها ، فإن دورهم في الاهتمام بالحركة العلمية في الحجاز لم يقلّ عن اهتمام سلاطين المماليك ، وآل رسول على الرغم مما كان يربط الأخيرين بالحجاز من علاقات سياسية وإقتصادية وإجتماعية مما لا نجده مع سلاطين الهند. فقد أهتم ملوك الهند وأمراؤها بإنشاء المدارس ، والأربطة ، وكذلك إقامة الدروس المقررة بالحرمين الشريفين ، فرغم إنتماءاتهم العرقية ، إلا أنهم ظلوا يشعرون دائماً بإنتمائهم إلى رابطة واحدة ، هي رابطة الدين الإسلامي الحنيف وكانوا غيورين على الإهتمام بهذا الدين ، وعلى الرغم من بعد مكة والمدينة عن بلدانهم ، فقد كان لهم دور بارز في المساهمة في نشر التعليم بالحجاز ، وكانت المدارس والأربطة جزءاً من هذه المساهمة ، فقد كان الملك المنصور غياث الدين أبي المظفر أعظم شاه

---

(١) هو الملك الظافر عامر بن عبدالوهاب بن داود بن طاهر ، تولى الحكم سنة ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م ، كان كثير الصدقات والمبرات ، وله الكثير من المآثر في اليمن من مساجد ومدارس وعمائر . (ابن الديبع : الفضل المزيد ، تحقيق شلحد ، ص ١٧٣ ، ص ٣٧١ ، العيدروسي : النور السافر ، ص ١١٠ ، ص ١١١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ١٦) .

(٢) ضياعاً : جمع ضيعة ، وهي المنازل ، وسميت ضياعاً لأنها إذا ترك تعهدها وعمارتها تضيع (ابن منظور : لسان العرب ، ج ٨ / ص ٢٣٠) ، وهي الأرض المغلة المربحة (المعجم الوسيط ، ج ١ / ص ٥٦٧) .

(٣) مُقدمه : كل شيء أوله ، ويعني هنا مقدمة الكتاب (ابن منظور : لسان العرب ، ج ١٢ / ص ٤٦٩ ، المعجم الوسيط ، ج ٢ / ص ٧٤٨) . أي أنه أرسل الأجزاء الأولى من القرآن لتقرأ في المدينة مُقدمتها .

(٤) ابن الديبع : الفضل المزيد ، تحقيق شلحد ، ص ٢٣١ ، ن . م . س ، تحقيق ، صالحيه ، ص ١٠٣ص١٠٤، العيدروسي : النور السافر، ص١٧، ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٨ / ص٢ .

(ت ٨١٤ هـ / ١٤١١ م)[١] صاحب بنجاله[٢] من بلاد الهند ، ملكاً جليلاً ، عالماً ، فقيهاً ، محباً للفقهاء وأهل الصلاح[٣] ، وكان يبعث دائماً بصدقات هائلة إلى الحرمين الشريفين ، يعم بها النفع للجميع[٤] . وقام ببناء مدرسة في مكة ، ومدرسة أخرى في المدينة ، وأوقف عليهما الأوقاف اللازمة ، ليصرف إيرادها على هاتين المدرستين[٥] .

---

(١) الفاسي : الزهور المقتطفة ، ورقة ٦٧ ، ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٢ / ص ٤٩٦ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٢ / ص ٤٥٩ ، وذكر وفاته سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢ م ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ٣١٣ ، التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ٣٣٣ ، الداري ، تقي الدين عبدالقادر التميمي : الطبقات السنية في تراجم الحنفية ، تحقيق عبدالفتاح الحلو ، الطبعة الأولى (الرياض ، دار الرفاعي للنشر ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ، ج ٢ / ص ١٣ .

(٢) بنجاله : وصفها ابن بطوطة وقال : « وهي بلاد متسعة كثيرة الأرز ، ولم أر في الدنيا أرخص أسعاراً منها لكنها مظلمة ، وأهل خراسان يسمونها « دوزخست » أي جهنم ملأى بالنعيم ، وأعظم مدنها مدينة سد كاوان (تحفة النظار ، ص ٦٠٠). وتقع في آسيا الجنوبية بين جبال الهملايا وخليج البنغال ، وكانت من أكبر ولايات الهند البريطانية وأكثرها سكاناً ، وهي المعروفة الآن ببنجلاديش وعاصمتها دكا (ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٥/ ص ١٩٢ ، الهامش ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٤ / ص ٢٢٤ – ص ٢٢٧) ، والمعروف عن ملوك بنجاله ، كما يسميها ابن بطوطة وابن تغري بردي أنهم حكموا إحدى الدول الإسلامية السبع التي انقسمت إليها امبراطورية محمد بن طغلق (ت ٧٥٢هـ / ١٣٥١م) وكان حكام بنجالة يحكمون أولاً من قبل سلاطين دهلي ، ولما استقلت بنجالة صار هؤلاء الحكام يلقبون أنفسهم بالسلاطين ، وهذه الأسرة التي حكمت ترجع إلى راجه كانس (تحفة النظار ، ص ٦٠١ ، النجوم الزاهرة ،ج ١٥ / ص ١٩٢) .

(٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٢ / ص ٤٥٨ ، ص ٤٥٩ .

(٤) ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٢ / ص ٤٥٩ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٤٨١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ٣١٣ ، طبقات الحنفية ، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ٣٣٥ ، عن مكتبة الأحمدية بحلب برقم ٥٤٦ ، ورقة ٦٧ ، الداري : الطبقات السنية ، ج ٢ / ص ٢١٣ .

(٥) سوف يأتي الحديث عنها وعن غيرها من المدارس الهندية في الفصل الخاص بالمدارس .

أما السلطان أحمد شاه بن أحمد شاه بن حسن شهاب الدين أبو المغازي (ت ٨٣٨هـ / ١٤٣٤هـ)[١] صاحب كلبرجه[٢] ، فقد كان من أجل ملوك الهند ديناً ، وخيراً ، وعزماً ، وحزماً ، أنشأ بمكة رباطاً كبيراً ، وتصدق بصدقات كثيرة بالحرمين الشريفين[٣] ، وأنشأ بالحجاز مدرستين إحداهما في مكة والأخرى بالمدينة المنورة .

كما قام السلطان غياث الدين محمد شاه بن السلطان ناصر الدين أحمد شاه بن السلطان غياث الدين محمد شاه ، صاحب كنباية[٤] بإنشاء مدرسة في مكة سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦١م[٥] .

كما قام محمود بن مغيث الخلجي (ت ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م)[٦] صاحب مندوه[٧] من بلاد الهند ، بإنشاء مدرسة في مكة ، واستقر بعده في السلطنة ابنه غياث الدين الذي كانت

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٤ / ٢ ص: ٧٧٥ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ١٥ / ص ١٩٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ / ص ٢١٠ ، التحفة اللطيفة : ج ١ / ص ٢٧٧ .

(٢) كلبرجه : أو كلبركا ، أو كلبرقه : ولاية من ولايات الهند ، تقع بأقليم الدكن ، ويحكمها في ذلك الوقت ملوك آل بهمان وهم مسلمون وساحلها دابور الديبل ، وترد منها البيارم والشاشات (ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ١٥ / ص ١٢٩ ـ ص ١٩٤ ، الهامش ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٤ / ص ٦ الهامش) .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ / ص ٢١٠ .

(٤) كنباية أو كنبابيت : مدينة عظيمة في السواحل الهندية ، يقصدها التجار ، وهي مدينة حسنة ، أكبرمن المعره ، كانت مملكة قائمة بذاتها (أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٣٥٧ ، الحميري : الروض المعطار ، ص ٤٩٦) .

(٥) النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٤ / ص ٤٣٢ .

(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ١٤٨ ـ ص ١٤٩ .

(٧) منـدوه : ذكرها ياقـوت (منـدكؤر) وهي قصـبة لاهور من نواحي الهنـد ، ومندل : بلد من الهنـد يجلب منه العود الفائق الذي يقـال له المندلي (معجـم البلـدان . ج ٥ / ص ٢٠٩) .

له دشيشه هائلة بمكة ، وقد انقطعت بعد وفاته[١] . وكذلك أنشأ السلطان أبو الفتح محمود شاه[٢] بن محمد بن أحمد (ت ٩١٦هـ / ١٥١٠م)[٣] ، صاحب كجرات[٤] من بلاد الهند رباطاً بمكة مجاوراً لباب الدريبة[٥] ، وعرف بالكنبائية ، وقرر به جماعة ودروساً ، وغير ذلك ، وكان يرسل لهم مع أهل الحرمين عدة صدقات ، ثم قطعها لما بلغه استيلاء النظار عليها[٦] .

وبالإضافة إلى إنشاءات السلاطين التعليمية في الحجاز فقد كانوا يرحبون بعلماء الحجاز ويلقون كل رعاية وتكريم حينما يقومون بزيارة بلدانهم[٧] .

كما أن مكانة الحرمين الشريفين في قلوب المسلمين ، والرغبة في مجاورة الحرمين الشريفين للأخذ من علوم الدين ، جعلت الكثير من أصحاب المناصب الدنيوية العالية يتركون مناصبهم تلك رغبة في المجاورة ، والاستزادة من العلم والمعرفة ، مثل نصر الدين سالم

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ١٤٨ ، ص ١٤٩ .

(٢) ذكره ابن العماد : أحمد بن محمد ، (شذرات الذهب ، ج ٨ / ص ٧٣) .

(٣) ولد سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤ م وتولى الحكم سنة ٨٦٣هـ / ١٤٥٨ م ، وعمره خمسة عشر عاماً (العيدروسي : النور السافر ، ص ٨٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٨ / ص ٧٣ ، ص ٧٤) .

(٤) ولاية من ولايات الهند ، انقسمت من مملكة دهلي ، وكانت مدينة كنبايه إحدى ممالكها (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ١٤٤) .

(٥) باب الدريبة : أحد أبواب المسجد الحرام الشمالية ، بالقرب من باب السلام (الأزرقي : أخبار مكة ، ج ٢ / ص ٩٤ ، باسلامه ، حسين عبدالله : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، الطبعة الثالثة (جدة ، تهامة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م) ، ص ١٣٣ .

(٦) العيدروسي: النور السافر ، ص ٨٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٨ / ص ٧٤ .

(٧) سوف نتحدث عن ذلك في العلاقات العلمية .

(ت ٦٩٨هـ / ١٢٩٨ م)[١] الذي كان ناظراً للدواوين والخزانة ، فترك ذلك وحج وجاور بمكة[٢] ، وأحمد بن مالك الجوكندار[٣] (ت ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م)[٤] الذي تأمر في أيام الناصر ناصر الدين حسن المملوكي ، ثم تنقل في الولايات ، كغزة[٥] وغيرها ، وأخيراً اتجه للمجاورة ، بل تزهد حتى قيل عنه ، أنه لبس زي الفقراء[٦] . بل بلغ الأمر ببعض الأمراء إلى التخلي عن الملك والمجاورة بالحرمين الشريفين ، كالملك الصالح الأيوبي[٧] . صاحب حصن كيفا[٨] ، الذي أظهر تلك الرغبة عندما حج سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م لولا نصح بعض أمرائه بتأجيل ذلك خوفاً على مصلحة قومه بالحصن[٩] .

---

(١) هو سالم بن محمد بن سالم بن هبة الله بن محفوظ بن صصري التغلبي ، وقد سمع الحديث وأسمعه ، ومات بدمشق (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ / ص ٧) .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ / ص ٧ .

(٣) الجوكندار : ويطلق كذلك الجوكاندار ، وجكندار ، وهو لقب على الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة ، ويجمع على جوكان دارية ، وهو مركب من لفظتين فارسيتين أيضاً : إحداهما جوكان ، وهو المِحْجَن (العصا المعوجة) التي تضرب به الكرة ، ويعبر عنه بالصولجان أيضاً ، والثانية دار ، ومعناه ممسك ، فيكون المعنى ممسك الجوكان (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ / ص ٤٣٠) .

(٤) ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٣ / ص ٨٤ .

(٥) غَزَّه : بفتح أوله ، وتشديد ثانيه وفتحه ، مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر ، وبينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل ، وهي من نواحي فلسطين ، وبها مات جد الرسول صلى الله عليه وسلم هاشم بن عبد مناف (ياقوت : معجم البلدان ج ٤ / ص ٢).

(٦) ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٣ / ص ٨٤ .

(٧) هو الملك الصالح أبو بكر بن العادل غازي بن العادل مجير الدين محمد بن الكامل الأيوبي ، تنازل عن الحكم في سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨ م لأخيه سليمان (ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ١ / ص ٦ ، ص ١٠١ ، ص ٢٧٦).

(٨) حصن كيفا : مدينة من ديار بكر على نهر دجلة بين جزيرة ابن عمر وبين ميافارقين (أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٢٨١) .

(٩) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ١ / ص ١٠١ ، الجزيري : الدرر الفرائد المنظمة ، ج ٣ / ص ١٧١٧ .

ثالثا : دور العلماء والعالمات والأعيان والعامة في تنشيط الحركة العلمية :

أ - المجاورون:

على الرغم من الأحوال السياسية المضطربة في كثير من الأحيان بالحجاز ، فقد كانت هناك حياة علمية مزدهرة . التقت فيها جهود المكيين والمدنيين والمجاورين بجهود القادمين للحج والزيارة فتكونت نهضة علمية ضاهت المراكز العلمية الأخرى في العالم الإسلامي.

فقد كان للمجاورين دور كبير في الحركة العلمية بالحجاز ، وهؤلاء المجاورون هم الذين أرادوا البقاء في مكة أو المدينة النبوية بجوار الحرمين الشريفين ، وكان بقاؤهم إما لدوافع دينية أو علمية أو اقتصادية أو سياسية . ولقد نشطت حركة المجاورة في الحرمين الشريفين نشاطا ملحوظا في العصر المملوكي ويتضح ذلك من خلال كتب التراجم التي زخرت بها كتب الطبقات والتراجم في ذلك العصر ، والتي حرص مؤلفوها على الإشارة لمن جاور في هذه الفترة.(١)

وكان أكثر المجاورين بالحرمين الشريفين من مصر وبلاد الشام ، ويعود ذلك إلى إشراف المماليك السياسي على الحجاز من جهة ، وإلى قرب الديار المصرية من الحجاز وسهولة الوصول إليها من جهة أخرى(٢) كما كان هناك مجاورون من العراق(٣) والمغرب(٤) وكان أكثر المجاورين من العلماء والزهاد ، أما القلة الباقية الذين نفاهم السلطان بمصر فجاؤوا سرا ، أو من كبار الدولة الذين جاؤا يقضون ما تبقى من حياتهم بجوار البيت الحرام والمسجد

---

(١) انظر أمثلة على ذلك : ابن حجر : الدرر الكامنة ، الفاسي : العقد الثمين ، السخاوي : الضوء اللامع ، التحفة اللطيفة ، ابن فهد : معجم الشيوخ.

(٢) السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص٢٣٠ - ص ٢٣١.

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ /ص١٧- ص١٩.

(٤) ابن حجر الدرر الكامنة ، ج ٤/ص٨٣ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦/ص٣٢، السليمان: العلاقات الحجازية المصرية ، ص٢٣٠.

النبوي ، لذا فقد كان هؤلاء المجاورون خيرا على مكة والمدينة. سواء كانوا علماء أو تجاراً بعلمهم الذي حرم الله أن يكتم[1] .

وكان المجاورون يبتغون الراحة النفسية في ظلال البيت الحرام والإقامة في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذه الراحة النفسية جعلت الكثير منهم يصنفون تصانيف كثيرة ويؤلفون مؤلفات ضخمة أثروا بها المكتبات الإسلامية. ويلاحظ من خلال كتب التراجم أن المجاورين كانوا قليلين في القرن السابع ثم ازدادت أعدادهم في القرن الثامن حتى أضحوا يمثلون كماً كبيرا من المجتمع الحجازي في القرن التاسع الهجري.[2]

وساعد على حركة المجاورة ما قام به السلاطين من إنشاء المدارس ، والأربطة ، والمقامات ، وإقامة الدروس في الحرمين الشريفين ، وإيقاف الأوقاف الضخمة على الكتب والمدارس والأربطة والزوايا ، وما أنفقوه على المجاورين ، وما قاموا به من تنظيم بحيث لم يعد المجاور يخشى ألا يجد مأوى أو طعاما ، إذا ضاقت به سبل العيش بجوار البيت.[3]

لذلك فقد حرص كثير من علماء المسلمين على المجاورة في الحرمين الشريفين لتوفر الجو العلمي بهما ، حيث يتم الإلتقاء بين علماء المسلمين من المشرق والمغرب المتعددي الثقافات والمذاهب ، وكان هذا اللقاء بمثابة فرصة جيدة لنشر علومهم ، وإبراز معارفهم عند بعضهم البعض ، وكذلك فقد كانت تمنح الإجازات للتلامذة ، وكان نتيجة ذلك وحدة ثقافية ومعرفية بين أطراف العالم الإسلامي ، لأن بعض هؤلاء المجاورين يعودون إلى بلدانهم مزودين بالعلم والمعرفة ، فقدموا لنا إنتاجًا فكريًا عاليًا تجلى في أمهات الكتب العظيمة التي أثروا بها المكتبة الإسلامية.

هذا وقد كان تفاعل هؤلاء العلماء المجاورين مع علماء الحرمين الشريفين كبيرا ومؤثرا على الطرفين ، إذ سمعوا وأجاز بعضهم للبعض ، فاستزادوا بذلك علما وفضلاً.[4]

---

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص١٢٤-ص١٢٥.

(٢) السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص٢٣١.

(٣) ن.م.س ، ص٢٤٣.

(٤) المراكشي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري : الذيل والتكمله لكتابي الموصول والصلة، تحقيق، محمد بن شريفة (الرباط، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ج١/ص٢١٠-ص٢٣٧، التجيبي: مستفاد الرحلة والإغتراب، ص٤٣١.

كما أن بعض هؤلاء العلماء المجاورين كانوا يصطحبون معهم جلّ كتبهم إلى الحرمين الشريفين مما ساعد على تنشيط الحركة العلمية في الحجاز.[1]

ويتضح لنا نشاط الحركة العلمية في الحرمين الشريفين من خلال الرحلات التي قام بها بعض الرحالة المسلمين للحجاز ، أمثال ابن جبير ، وابن بطوطة ، والتجيبي ، وغيرهم .

هذا وقد اهتم العلماء المجاورون بتدريس العلوم الشرعية خاصة علم الحديث وعلم القراءات ، والفقه والتفسير وغيرها من العلوم الشرعية والعلوم الأخرى ، ويطالعنا في هذه الفترة أعداداً هائلة من العلماء المجاورين بالحرمين الشريفين ، منهم :-

محمد بن يوسف بن موسى بن مسدي الجمال أبو بكر الأزدي المهلبي الغرناطي (ت٦٦٣هـ/١٢٦٤م)[2] الذي عنى بعلمي القراءات والحديث ، وسمع الكثير بالبلاد الأندلسية والمغربية والمصرية والشامية والحجازية ، وصنف وخرّج ، وجاور بمكة سنين ، سمع منه الكثير من علماء الحرمين الشريفين واستفادوا من علمه.[3]

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢/ص٤٠٠ ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج٤/ص٣٩٢.

(٢) انظر ترجمته في الذهبي ، أبي عبد الله محمد بن أحمد : ميزان الإعتدال في نقد الرجال ، تحقيق علي البجاوي (بيروت ، دار المعرفة ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م) ، ج٤/ص٧٣، الصفدي ، صلاح الدين : الوافي بالوفيات، الطبعة الثانية ، باعتناء س. ديدرينغ (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ، ج٥/ص٢٥٤ ، اليافعي : مرآة الجنان ، ج٤/ص١٦٢ ، ابن فرحون ، إبراهيم بن علي : الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور (القاهرة ، دار التراث ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ، ج٢/ص٣٣٣ ، الفاسي: العقد الثمين ،ج٢/ص٤٠٤ ، ابن الجزري ، محمد بن محمد : غاية النهاية في طبقات القراء ، عني بنشره : ج . برجستراسر ، الطبعة الثالثة (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ، ج٢/ص٢٨٨ ، ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج٢/ص٧١٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٥/ص٣١٣).

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢/ص٤٠٤ ، ص٤٠٨ ، ابن الجزري : غاية النهاية ، ج٢/ص٢٨٨.

كما جاور عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن محمد بن محمد بن عساكر(ت٦٨٦هـ ، ١٢٨٧م)(١) الذي قطن مكة أربعين سنة ، وكان مشاركا في العلوم ، خاصة في علم الحديث.(٢)

وعفيف الدين عبد السلام بن محمد المصري الحنبلي(ت٦٩٦هـ ، ١٢٩٦م)(٣) الذي جاور بالمدينة خمسين سنة ، وبها درَس ودرّس(٤) . كما انتفع طلاب المدينة بكتب عبد الله بن حجاج أبو محمد المغربي(ت٧٠١هـ / ١٣٠١م)(٥) الشهير بمكشوف الرأس ، الذي كان من العلماء والحكماء المجدين المطلعين على علوم الأولين من حكمة ومنطق وهندسة وفلسفة(٦)، كما أتقن علم القراءات عثمان بن محمد التوزري(٧)، المالكي(ت٧١٣هـ/١٣١٣م)(٨).

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥/ص٤٣٢ ،ص ٤٣٣ ، التقي بن فهد : لحظ الالحاظ ، ص٨١-ص٨٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٥/ص٣٩٥-ص٣٩٦.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥/ص٤٣٣ ، التقي بن فهد : لحظ الالحاظ ، ص٨٢.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥/ص٤٢٩-ص٤٣٠ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣/ص٢٣٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ،ج٥/ص٤٣٥.

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ،ج٥/ص٤٣٥.

(٥) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢/ص٣١٠-ص٣١١ .

(٦) ن.م.س ، ج٢/ص٣١٠.

(٧) نسبة إلى توزر بفتح التاء المثناه ، وسكون الواو وفتح الزاي ، بلدة من بلاد قسطيلية وهي أعظم مدنها (ياقوت : معجم البلدان ، ج٢/ص٥٧ ، الحميري : الروض المعطار ، ص١٤٤).

(٨) انظر ترجمته في : التجيبي : مستفاد الرحلة والإغتراب ، ص٤١٥ ، الذهبي : الإعلام بوفيات الأعلام ، تحقيق ، مصطفى بن علي عوض ، ربيع أبو بكر عبد الباقي ، الطبعة الأولى (مكة، المكتبة التجارية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ، ج٢/ص٤٨٨ ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، تحقيق ، بشار معروف ، شعيب الأرناؤوط ، صالح عباس ، الطبعة الأولى (بيروت، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ، ج٢/ص٧٣٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤/ص٦٩، الفاسي : العقد الثمين ، ج٦/ص٤١ ، ابن الجزري : غاية النهاية ، ج١/ص٥١٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢/ص٤٤٩.

وترك كثيرا من تلامذته في الحرمين الشريفين.[١]

ويعد القاضي سراج الدين عمر بن أحمد بن خضر بن ظافر بن طراد المصري الشافعي(ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)[٢] أول قاضٍ سني بالمدينة على مدى ثلاثين سنة ، كما كان يواسي الضعفاء ، ويتفقد الأرامل والأيتام ببره وزكاته ، ولا يرد طالب قرضٍ إذا جاء يقترض، كما كان له دروس بالمسجد النبوي ، يلقي فيها علمه في الحديث والفقه ، حضرها الجمال المطري والشيخ أبو عبد الله النحوي والعز يوسف الزرندي وغيرهم من طلبة العلم بالمسجد النبوي.[٣]

كما حدث بالحرمين الشريفين محمد بن جابر بن محمد بن قاسم القيسي الوادآشي الأصل التونسي ويعرف بابن جابر(ت٧٤٦هـ ، ١٣٤٥م)[٤] ، وسمع منه ابن فرحون (موطأ مالك) رواية يحيى بن يحيى في الحرم النبوي سنة٧٤٦هـ/١٣٤٥م.[٥] وكذلك عمر بن علي الدينوري(ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)[٦] ، نزيل مكة ، سمع من حسن بن عمر الكردي ، والرضى الطبري ، وحدّث وبرع في النحو والقراءات والحديث ، وممن

---

(١) الذهبي : معرفة القراء الكبار ، ج٢/ص٧٣٤ ، ابن الجزري : غاية النهاية ، ج١/ص٥١٠.

(٢) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣/ص٣١٥.

(٣) ن.م.س ، ج٣/ص٣١٥-ص٣١٦.

(٤) انظر ترجمته في : الوادي آشي ، محمد بن جابر التونسي : برنامج ابن جابر الوادي آشي ، تحقيق ، محمد الحبيب الهيلة ، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى . (١٤٠١هـ/١٩٨١م) ، ص١١ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٢/ص٢٨٣ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج٢/ص٢٩٩- ص٣٠٠ ، ابن الجزري : غاية النهاية ، ج٢/ص١٠٦ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣/ص٤١٣- ص٤١٤.

(٥) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج٢/ص٢٩٩- ص٣٠١.

(٦) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣/ص١٨٨.

أخذ عنه البقاعي علم التجويد.[١] . كما قَدِم مكة العالم المحدث أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن أبي بكر الحرازي الشافعي(ت٧٥٥هـ / ١٣٥٤م)[٢] وطلب العلم بها. وقرأ كتب الصحاح على كثير من العلماء ، وكان له معرفة بالفقه ومشاركة في غيره ، وأقام بمكة يفتي ويدّرس إلى أن توفي.[٣]

وكذلك محمد بن عبد الله الدمشقي القلعي المقرئ المعروف بالعقيبي نسبة إلى العقيبة موضع بدمشق(ت٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)[٤]، الذى كان إماماً في علم القراءات ، وانفرد بهذا العلم في مكة ، وكان عنده حدة عظيمة على الطلبة وهيبة عليهم.[٥]

كما جاور بالمدينة المنورة جمال الدين محمد بن محمد السالي(ت٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)[٦] الذي كان يتميز بنزعة صوفية ، وحببت إليه مجاورة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى توفي[٧] . حيث تميزت المدينة النبوية بوجود قبر الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يلهم الصوفية كثيرا من الإشتياق الروحي ، فكانوا يحرصون على زيارة المدينة والمجاورة بها ، كما فعل السالي وغيره ، وحيث أن أمير المدينة وسكانها الأصليين من الشيعة الأمامية في أيام المماليك ، لذا فقد قصدها علماء الشيعة أو السنة المحبين لآل البيت ، كضياء الدين عبد الله بن سعد القزويني(ت٧٨٠هـ / ١٣٧٨م)[٨] .

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنه ، ج٣/ص١٨٨-ص١٨٩.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣/ص١١٦-ص١١٧ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١/ص٢٣٥ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج٢/ص٦١-ص٦٢.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣/ص١١٦- ص١١٧ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي، ج٢/ص٦١-ص٦٢.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢/ص٦٣-ص٦٤.

(٥) ن.م.س ، ج٢/ص٦٤.

(٦) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٦/ص٢٦٣.

(٧) ن.م.س ،ج٦/ص٢٦٣.

(٨) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٦/ص٢٦٦.

ومن المجاورين كذلك أحمد بن محمد بن موسى الدمشقي ، شهاب الدين الشوبكي(ت٨٠٠هـ / ١٣٩٧م)[١] ، الذي أتقن القراءات وجاور بمكة والمدينة ، وقرأ عليه كثير من الطلبة[٢]. كما كان محمد بن سعيد بن مسعود النيسابوري(ت٨٠١هـ /١٣٩٨م)[٣] بارعا في علوم اللغة العربية ، ومشاركا في الفقه ، وكان يجيد تعليم الطلاب ، وانتفع به أهل مكة في هذه العلوم.[٤]

ومحمد بن علي بن ضرغام بن عبد الكافي البكري ، شمس الدين أبو عبد الله ابن سكر الحنفي المصري(ت٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)[٥] ، نزيل مكة ، الذي طلب الحديث والقراءات ، وكان إذا قدم الركب مكة ، طاف على الناس في رحالهم ومنازلهم يسأل عمن له رواية أو له حظ من علم فيأخذ عنه ، وكتب بخطه ما لا يحصى من كتب الحديث والفقه والأصول والنحو وغيرها ، سمع منه ابن حجر في مكة أثناء تدريسه لعلم القراءات[٦] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣/ص١٧٥ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج٢/ص٢٤ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج١/ص٢٧٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٦/ص٣٦٤.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣/ص١٧٥ ، ابن حجر: أنباء الغمر ، ج٢/ص٢٤.

(٣) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج٢/ص٨٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٧/ص١٠.

(٤) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج٢/ص٨٤.

(٥) انظر ترجمته في : الفاسي : العقد الثمين ، ج٢/ص٢٠١-ص٢٠٦ ، ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد ، تحقيق ، محمد صالح عبد العزيز المراد ، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، الطبعة الأولى (مكة ، جامعة أم القرى ، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م) ، ج١/ص٣١٥-ص٣١٦ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج٤/ص٨٥، مجهول: تاريخ المحمدين ، ورقة ١٩٧ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٩/ص١٩.

(٦) مجهول : تاريخ المحمدين ، ورقة ١٩٧ب.

كما قدم مكة للمجاورة شمس الدين محمد بن محمود بن نون الخوارزمي الحنفي المعروف بالمعيد(ت٨١٣هـ / ١٤١٠م)[١] نزيل مكة وإمام مقام الحنفية ، جاور بمكة أربعين سنة أو أكثر ، وسمع الحديث وتفقه وبرع وأفتى ودرّس ، واستقر معيدا يدرّس المذهب الحنفي بمكة ، وكان بارعا في الفقه والأصول والعربية ، وتصدر وجلس للتدريس بالمسجد الحرام عدة سنين وانتفع الطلاب وعامة الناس من علمه[٢] . كما جاور بالحرمين الشريفين الحسن بن خاص بيك ، العلامة بدر الدين(ت٨١٣هـ / ١٤١٠م)[٣] ، حيث تصدر للإفتاء والتدريس في الفقه والأصول ، وانتفع منه الطلاب في هذه العلوم ، وأثنى عليه المقريزي ، حيث ذكر أنه سمع منه في سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م الصحيحين.[٤]

وعمر بن عبد الله الهندي سراج الدين الفأفأ بفاي كان يكثر النطق بالفا ، (ت٨١٥هـ/ ١٤١٢م)[٥] فلقب بذلك ، أقام بمكة أكثر من أربعين سنة ، وأفاد الناس في علوم الفقه والأصول واللغة العربية[٦] .

وكذلك محمد بن أحمد بن خليل العراقي(ت٨١٦هـ/ ١٤١٣م)[٧] ، الذي كان من شيوخ الأزهر ، وأتقن علم الفرائض ، ولكنه سمع بالحركة العلمية التي قامت بمكة والمدينة ، فحج وجاور وأخذ عن علماء الحرمين الشريفين ، وظل بمكة يحدّث حتى توفي[٨]

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢/ص٣٤٩-ص٣٥٢ ، ذيل التقييد ، ج١/ص٤٤٤ ، ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج٢/ص٧٠٤ ، النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٤أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج١٠/ص٤٥.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢/ص٣٤٩-ص٣٥٢ ، ذيل التقييد ، ج١/ص٤٤٤.

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٣/ص١٠٠ ، الداري : الطبقات السنية ، ج٣/ص٥٣-ص٥٤.

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٣/ص١٠٠.

(٥) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة١٥٩أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٦/ص٩٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٧/ص١١١.

(٦) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٥٩أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٦/ص٩٨.

(٧) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج٧/ص١٣٩-ص١٤٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٧/ص١٢٢.

(٨) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج٧/ص١٤٠.

كما اعتنى بالعلم أتم عناية محمد بن أحمد بن عثمان بن عمر أبو عبد الله التونسي المالكي المعروف بالوانوغي(ت٨١٩هـ /١٤١٦م) وكان عارفا بالتفسير والأصلين والمنطق واللغة العربية والفرائض والحساب والجبر والمقابلة وغيرها ، وقد درّس وأفتى وحدّث بالحرمين الشريفين.[١]

ومن أبرز العلماء المجاورين في الحرمين الشريفين ، والذين كوّنوا مدرسة علمية في مكة والمدينة النبوية اللغوي الكبير محمد بن يعقوب الفيروزآبادي(ت٨١٧هـ/١٤١٤م) فقد جاور بمكة وسمع بها (الموطأ) و(صحيح مسلم) وحدث بها ، وسمع منه التقي الفاسي بمنزله بمنى « جزء[٢] ابن عرفة » و« المائة المنتقاة من مشيخة ابن البخاري » وسمع منه بها علي بن محمد بن أحمد القسطلاني الأول من (مسلسلات العلائي) و(مسلسلات السرمدي العشرة) و(مسلسلات العراقي) ، وخرّج له الجمال محمد بن موسى المراكشي مشيخة حسنة عن شيوخه ، وله تصانيف كثيرة في الحديث والتفسير واللغة والأدب والتاريخ.[٣]

وهناك شمس الدين محمد بن محمد بن محمد ابن الجزري(ت٨٣٣هـ /١٤٢٩م) ، شيخ المقرئين ، وصاحب التصانيف والمؤلفات العديدة في علم القراءات . فقد كانت له مشاركة في الحديث وعلومه وله فيها مؤلفات كذلك ، وجاور بمكة وحدّث بها بالمسند[٤]، وبكتابه (المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد)[٥] ، وحدّث أيضا بكتابه (أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب) ، سمعه عليه سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م مقبل بن عبد الله بن عبد الرحمن البغدادي المكي(ت٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م)[٦] ومحمد بن مفتاح

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٧/ص٣ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٧/ص١٣٨.

(٢) الجزء في مصطلح المحدثين : تأليف الأحاديث المروية عن رجل واحد من الصحابة أو من بعدهم (الكتاني، محمد بن جعفر : الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة ، الطبعة الثانية (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ص٦٤.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢/ص٣٩٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج١٠/ص٧٩.

(٤) ابن الجزري : غاية النهاية ، ج٢/ص٢٤٧ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٩/٢١٤.

(٥) نشر هذا الكتاب ، أحمد شاكر في مقدمة مسند الإمام أحمد المحقق.

(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ج١٠/ص١٦٧.

القباني (ت٨٤٦هـ/١٤٤٢م)[١] .

وحدّث أيضا بكتابه « التكريم في العمرة من التنعيم» سمعه عليه محمد بن محمد الدميري (ت ٨٣٧ هـ/١٤٣٣م)[٢] . وغيرهم من طلبة الحرمين الشريفين.

ومن علماء المغرب الذين شاركوا في النشاط العلمي بالحجاز ، المحدث المسند محمد بن أحمد بن محمد العجيسي التلمساني المالكي (ت ٨٤٢هـ/١٤٣٨م)[٣] المعروف بابن مرزوق ، فقد حج سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م ولقيه بعض علماء مكة وقرأوا عليه « ثلاثيات البخاري» وله عدة مؤلفات[٤] في الحديث واللغة العربية وغيرها من العلوم[٥]. لكن نشاطه العلمي في مكة لم يكن كبيرا لأن إقامته فيها كانت قصيرة.

كما جاور المؤرخ الشهير تقي الدين أبو العباس بن علاء الدين المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) الذي حج في سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م وجاور بمكة سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م ، كما جاور سنة ٨٤٤هـ/١٤٤٠م[٦] وأخذ عن علمائها وسمع من العفيف النشاوري والجمال الأسيوطي وأبي الفضل النويري وسعد الدين الأسفرائيني ، وأبي العباس بن

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع، ج١٠/ص٥٢.

(٢) ن.م.س ، ج ٩/ص ٢٣٤ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧/ص ٥٠، التنبكتي ، أحمد بابا : نيل الإبتهاج بتطريز الديباج. (القاهرة مطبعة السعادة ، ١٣٢٩هـ)، ص ٢٩٣ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج٢/ص١١٩.

(٤) من تصانيفه « المتجر الربيح والمسعى الرجيح» و « إظهار المودة في شرح البردة» و « الذخائر القراطيسية في شرح الشقراطيسية» وغيرها. (السخاوي : الضوء اللامع ، ج٧/ص ٥٠- ص٥١).

(٥) ن.م.س. ج ٧/ص ٥٠ .

(٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق ، جمال الدين الشيال (القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) ص ١١. النجم بن فهد : معجم الشيوخ، ص ٦٥، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢/ص ٢١- ص ٢٢.

عبدالمعطي، وجماعة ، وأجاز له الجمال الأسنوي والشهاب الأذرعي والبهاء أبو البقاء السبكي ، وعلى بن يوسف الزرندي، وآخرون [١] ، وحدث بقطعة من « صحيح مسلم » سمعه عليه عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الحضرمي [٢] ، كما حدّث بجميع كتابه « إمتاع الإسماع » [٣]. والتقي المقريزي إلى جانب كونه من من أكبر مؤرخي العصر فهو عالم مشارك في عدة علوم أخرى . منها الحديث.

كما جاور عمدة المحققين العلامة أحمد بن على بن محمد الكناني الشهير بابن حجر (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) الذي جاور بمكة سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م وسمع بها « صحيح البخاري » علي العفيف النشاوري. وهو أول شيخ سمع عليه الحديث [٤] . كما حضر مجلس الختم للشيخ جمال الدين الأميوطي. وبحث في فقه الحديث على عالم الحجاز الحافظ أبي حامد بن ظهيرة في كتاب « عمدة الأحكام » للحافظ عبدالغني المقدسي [٥]، ولاشك أن قدومه إلى مكة كان حافزاً له على التعلق بدراسة الحديث والإنكباب على استيعابه ، والتحقق من رجالاته وأسانيده ، حتى أضحى بعد ذلك المحدث والحافظ وأمير المؤمنين في الحديث [٦] . وكذلك حج وجاور بعض سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م وسمع بمكة والمدينة وينبع ، وعاد إلى جدة وقرأ بها في المحرم سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م ، وعاد إلى بلده،

---

(١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٦٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢/ ص ٢١ - ص ٢٢، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧/ ص ٢٥٤ - ص٢٥٥

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥/ص ٥٢

(٣) طبع بتحقيق محمود محمد شاكر، الطبعة الأولي ، القاهرة ، ١٩٤١م.

(٤) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٧١ ، معجم ابن فهد ، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ميكروفيلم رقم ٢٦٠ ، تراجم عن مكتبة الأسكوريال باسبانيا برقم ٢٤٢٩، ورقة ٤٠ أ.

(٥) التقي بن فهد : لحظ الإلحاظ ، ص ٣٢٦، النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٧١. السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢/ص ٣٦

(٦) الشوادفي ، جميل أحمد : منهج ابن حجر في كتابه فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، رسالة دكتوراه ، القاهرة جامعة الأزهر ، برقم ٥٦٦ ، ص ٤٨.

ثم جاور سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م وكان نشاطه محدوداً في هذه المجاورة حيث حدّث بكتابه «نخبة الفكر»[١]، قرأها عليه نزيل مكة أبو الحسن الابي (ت ٨٥٩هـ/١٤٥٤م)[٢] وازداد نشاطه العلمي في سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م حيث حدّث «بالمسلسل» سمعه منه، غانم بن مقبول السعدي الطائفي[٣]، وحدّث «بالمتباينات» من تآليفه سمعها عليه محمد بن عيسى بن محمد السلامي الطائفي بمنى[٤]، واسماعيل بن محمد الأمين المليكي الشافعي نزيل مكة، سمع عليه في السنة نفسها «المتباينات» و «تخريج أربعي النووي» وغيرهما من تآليفه[٥].

ومن العلماء المجاورين بالحرمين الشريفين الذين أفادوا الطلاب كثيرا، وكوّن مدرسة علمية، عبدالرحمن بن أحمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن عياش، زين الدين الدمشقي (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م)[٦]. جاور بمكة مدة طويلة من سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م وتصدى لتدريس الطلبة في الحرمين الشريفين ليلاً ونهاراً، فانتفع به كثيراً من أهل مكة والقادمين إليها، وصار شيخ القراء. قال عنه ابن حجر «أنه مقريء الحرم» وكان مع ذلك يدرّس الطلاب «ألفية ابن مالك»[٧]. وترجم ابن فهد له في الدر الكمين وأثنى

---

(١) توجد منه نسخة خطية بمكتبة شستربتي تحت رقم ٤٣٨٤، وهي ضمن مجموعة من الورقة ١ إلى الورقة ٥٣. وتوجد كذلك نسخة أخرى لهذا الكتاب بالمكتبة الوطنية باسطنبول (خزانة فيض الله أفندي) ضمن مجموعة رقم ٢٥٣. وتقع في ١٠٥ ورقة، تاريخ نسخها سنة ٨٤٧هـ.

(٢) السخاوي، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، تحقيق، حامد عبدالمجيد، طه الزيني، (القاهرة، منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ج ١/ص ٢٤٦، الضوء اللامع ج ٥/ص ١٥٣.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦/ص ١٦٠.

(٤) ن.م.س. ج ٨/ص ٢٧٦.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٢/ص ٣٠٦.

(٦) أنظر ترجمته في: النجم بن فهد: الدر الكمين، ورقة ١١٦ ب، ورقة ١١٧ أ، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤/ص ٥٩ - ص ٦١، التبر المسبوك (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، بدون ت)، ص ٢٨٠، ص ٢٨١، السيوطي: نظم العقيان في أعيان الأعيان، حرره فيليب حتي، (بيروت، المكتبة العلمية، بدون ت). ص ١٢٢، وابن العماد: شذرات الذهب، ج ٧/ص ٢٧٧.

(٧) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤/ص ٥٩

عليــه فــقــال عنه «أنه انقطع بمكة من سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م وتردد على المدينة المنورة ، وانتفع به طلاب العلم في الحرمين الشريفين وغيرهم من المجاورين » .[١]

وجــاور من أهل اليــمن بدر الدين حــسين بن عــبــد الرحــمن بن مــحــمــد الأهدل (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)[٢] ، وأسرة الأهدل من الأسر الشهيرة بالعلم والصلاح في اليمن ، وقد قطن مكة مدة ، وأخذ عنه غير واحد من أهلها والقادمين إليها ، وكان مما أقرأه فيها «الموطأ» للإمام مالك ، قرأه عليه محمد بن عبدالرحمن بن حسن الكناني المالكي[٣] ، وله مؤلفات في الحديث وغيره من العلوم[٤] .

ومن أشهر المؤرخين الذين جاوروا بالحرمين الشريفين محمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) ، الذي حج بعد وفاة شيخه ابن حجر مع والديه ولقي جماعة من العلماء وأخذ عنهم، كالبرهان الزمزمي ، والتقي بن فهد ، وأبي السعادات بن ظهيره وغيرهم[٥] . ثم رجع إلى القــاهرة ولازم الإشــتــغــال والتــأليف ، ثم حج سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٥م ، وحج وحــدّث بأشــيــاء من تصــانيــفــه وغــيــرها[٦] ، ثـم حج سـنـة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م ، وجــاور سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م وسنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م. ثم حج سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م، وجــاور إلى سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م ، ثم توجــه إلى المدينة ، وجــاور بها[٧] ، إلى أن مات.

---

(١) الدر الكمين ، ورقة ١١٦ ب، ورقة ١١٧أ .

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٠٧ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣/ص ١٤٥ ، التبر المسبوك ، ص ٣٥٨، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١/ص ٢١٨ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧/ص ٢٨٧ .

(٤) من مؤلفاته ، « مفتاح القارىء لجامع البخاري» ،« اللمعة المقنعة في ذكر فرق المبتدعة» و « الرسالة المرضية في نصرة مذهب الأشعرية» و « الكفاية في تحصين الرواية». (النجم بن فهد: معجم الشيوخ، ص ١٠٨).

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨/ص ١ - ص ٨.

(٦) ن.م.س. ج ٨/ص ١٤ .

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨/ص ١٤ .

وفي مجاوراته هذه حدّث بالكثير من كتبه ومروياته ومصنفاته ، وأملى بعض المجالس، وتزاحم عليه الطلبة ، يعرضون عليه ما يحفظون بمفردهم ، أو برفقة آبائهم،وكذلك كثر السامعون عليه ، وطلبوا الاجازة منه ، حتى بلغ عدد السامعين عليه بمكة وظاهرها على خمسمائة طالب[١] ، وهو نشاط كبير فاق نشاط المكيين أنفسهم ، وهؤلاء غير تلاميذه الذين سمعوا عليه أو أجازهم في مصر والشام والمدينة، وترك السخاوي المئات من التلاميذ والمؤلفات، فقد ألف في شتى فنون العلم ،في الحديث وعلومه ، وله مؤلفات في التاريخ ، والطبقات ، والتراجم والسير، والمناقب ، والفضائل ، ورتب كثيراً من الكتب السابقة التي يعسر الوصول إلى ترجمة منها ، رتبها على حروف المعجم، وله أيضًا مؤلفات في الفقه والنحو والعقائد ، وفي أبواب ، ومسائل مختلفة ، وقد زادت مؤلفاته على المائة وثمانين كتابًا[٢] . كما ترك السخاوي في المدينة النبوية عدداً من التلاميذ أشهرهم ، سلامة الحسيني[٣] ، وحسين بن علي المكي (ت ٨٩٧هـ/١٤٩١م)[٤] ، وإبراهيم بن أحمد بن محمد المدني الشافعي (المولود سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م)[٥]الذي دَرس على السخاوي بالقاهرة والمدينة واهتم بعلم الحديث[٦] .

ومن الذين استوطنوا المدينة ،علي بن عبدالله بن أحمد السمهودي[٧]

---

(١) العيدروسي: النور السافر ، ص ١٦، الغزي ، الكواكب السائرة ، ج ١/ص ٥٣ ، ابن العماد: شذرات الذهب ، ج ٨/ص ١٥ ، الشوكاني ، البدر الطالع ، ج ٢/ص ١٨٤، الكتاني ، عبدالحي بن عبدالكبير: فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والسلسلات ، باعتناء ، احسان عباس، (بيروت ، دار الغرب الاسلامي ، بدون ت)، ج ٢/ص ٩٨٩.

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨/ص ١٥- ص ٢١.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٢٩٨.

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥/ص ١٩.

(٥) ن.م.س. ج ١/ص ٢٥ .

(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١/ص ٢٥.

(٧) نسبة إلى سمهود : بفتح السين المهملة ، قرية كبيرة على شاطيء غربي النيل بالصعيد ، ويقال لها: سمهوط أيضًا بالطاء المهملة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣/ص ٢٥٥).

(ت٩١١هـ/١٥٠٥م)[١]، الذي سمع بمكة، وانتفع به جماعة من الطلبة في الحرمين الشريفين، ثم استوطن المدينة، وبنى بها داراً، وأشرف على مدارسها، ودرّس فيها وكان يصرف له من أوقاف الأشرف قايتباي على المدارس والأربطة[٢].

وكان لنزيل مكة عبد الله بن أحمد بن محمد الحضرمي اليماني الشافعي (ت٩٢٥هـ/١٥١٩م)[٣]، المعروف بأبي كثير، نشاط في دفع عجلة التعليم في الحجاز. فقد مكث في مكة ثلاثًا وخمسين سنة، وكان من عادته أن يجلس كل يوم بالحرم الشريف يقريء الناس في عدة علوم إلى قبيل الظهر، ومن بعد صلاة الظهر في الحديث إلى العصر، ومن بعد صلاة العصر يقريء آخرين في التصوف، ومن بعد صلاة المغرب إلى العشاء يطوف[٤]. وقد أخذ عنه كثير من العلماء في الحرم المكي الشريف[٥].

ولم تقتصر مشاركة بعض العلماء البارزين على المشاركة في تنشيط الحركة العلمية بالحجاز في هذه الفترة على التدريس، بل كان لهم مشاركة جاده في التصنيف، والتأليف وأصبح ذلك عادة لدى الكثير منهم، الذين فضلوا وضع تآليف بالحرمين الشريفين. منهم على سبيل المثال، شمس الدين محمد بن محمد الجزري (ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، الذي أقام بالمدينة المنورة سنة ٨٢٣هـ/١٤٢٠م[٦]، وألف فيها كتاب «نشر القراءات

---

(١) انظر ترجمته في: السخاوي: الضوء اللامع، ج٥/ص ٢٤٥، ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨/ص ٥٠- ص٥١، العيدروسي: النور السافر، ص ٥٤ - ص٥٦، الشوكاني: البدر الطالع، ج١/ص ٤٧٠ - ص ٤٧١، وذكر وفاته سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م.

(٢) العيدروسي: النور السافر، ص ٥٦.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٥/ص ١١، الغزي: الكواكب السائرة، ج ١/ص ٢١٧، ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٨/ص ١٣٦، العيدروسي: النور السافر، ص ١١٦.

(٤) الغزي: الكواكب السائرة، ج ١/ص ٢١٧.

(٥) ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٨/ص ١٣٦، العيدروسي: النور السافر، ص ١١٧.

(٦) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢/ص ٢٥١.

العشر »[١]، في مجلدين. وحينما جاور المؤرخ المصري المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، صنف كثيراً من كتبه أثناء مجاورته في مكة، فقد حج في سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م، وجاور هناك خمس سنوات[٢]، إذ كان كما يقول السخاوي. يحب أن يكتب بمكة. فقد كتب نسخة من كتابه «إمتاع الإسماع في ما للنبي ﷺ من الحفده والمتاع» في مكة أثناء مجاورته، وحدّث به[٣].

كما ألف السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، أثناء إقامته بالمدينة المنورة كتابه « التحفة اللطيفة »[٤]، وألف السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)[٥] كتاب « التحفة المسكية والتحفة المكية »[٦] أثناء إقامته بمكة، حيث أخذ عن كثير من العلماء المكيين[٧].

ولاشك أن هذه المؤلفات والكتب كانت تمثل مظهراً من مظاهر النشاط العلمي بالحجاز، وربما قام مؤلفوها بتدريسها، إما في الحرمين الشريفين، أو في المدارس التي كانوا يقومون بالتدريس فيها، أو في الأربطة التي كانوا مشايخها، ويجب أن نبيّن بأن

---

(١) طبع بتحقيق محمد أحمد دهمان بدمشق سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ص ١١، السخاوي : الضوء اللامع، ج٢/ص ٢٢ .

(٣) الضوء اللامع، ج ٢/ ص ٢٢ .

(٤) السخاوي : التحفة اللطيفة، ج ١/ص ٢٢ .

(٥) السخاوي : الضوء اللامع، ج ٤/ص ٦٥ - ص ٦٨، السيوطي : حسن المحاضرة، ج ١/ص ٣٣٥ - ص ٣٤٤، الغزي : الكواكب السائرة، ج ١/ص ٢٢٦ - ص ٢٣١، ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٨/ص ٥١ - ص ٥٥، العيدروسي: النور السافر، ص ٥١ - ص ٥٤، الشوكاني : البدر الطالع، ج ١/ص ٣٢٨ - ص ٣٣٥ .

(٦) يوجد منه عدة نسخ في : الأوقاف بالموصل، مجاميع ١٩/٢٣، ونسخة في مكتبة الشيخ سليمان الصالح البسام - المملكة العربية السعودية، مجلة البحث العلمي، عدد ٢، سنة ١٣٩٩هـ، ونسخة في الظاهرية، رقم ٤٢٥٥، ونسخة في الأسكوريال. (انظر : دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها، أحمد الخازندار، محمد ابراهيم الشيباني، الطبعة الأولي (الكويت، مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ٢٨٠ .

(٧) السخاوي : الضوء اللامع، ج ٤/ص ٦٨.

هذا المستوى العلمي المتميز لهؤلاء المجاورين لا ينطبق عليهم جميعًا ، بل أن هناك من المجاورين لم يكن يقرأ أو يكتب ، ومثال ذلك ، عبداللطيف بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي الهاشمي المكي النجار (ت ٨٥٩هـ/١٤٥٤م)[١]. الذي أجاز للسخاوي ، وسمع كثيراً من العلماء ، وأجازوه.[٢]

كما عرف عن بعض العلماء المجاورين الإشتغال بالتجارة ، ولكن ذلك لم يمنعه من أداء واجبه العلمي والقيام بالتعليم والتدريس ، فقد كان حسن بن أحمد بن ميمون التونسي المغربي (توفي قريباً من سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م)[٣] بزازاً بالقيسارية[٤] المعروفة بدار الإمارة بمكة، أجاز له التوزري ، وأجاز للفاسي[٥]. وكذلك أحمد بن محمد بن عبدالله الشهاب النفطي (ت ٨١٠هـ/١٤٠٧م)[٦] ، الذي سمع على كثير من علماء المدينة المنورة ، وكان يتكسب في عمل المراكب[٧]. وحسن بن علي بن الزكي محمد بن موسى بن سراج المكي (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م)[٨] ، سمع على جماعة من العلماء ، ولم يحدّث ، ولكنه أجاز في بعض الاستدعاءات ، وكان عطاراً بزازاً بقيسارية دار الامارة[٩]. ومحمد بن أحمد بن علي بن عبدالله الشريف المصري المعروف بالحجازي (ت

---

(١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٤٤، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ /ص ٣٣٢.

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤/ص٣٣٢، ومن الذين أجازوه ، العلامة ابن خلدون ، صاحب المؤلفات العديدة (النجم بن فهد : معجم الشيوخ، ص ١٤٤).

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤/ص ٦٧.

(٤) قيسارية : جمعها قياسر : السوق المسقوفة ، وأطلقت أيضًا على الخان أو الوكالة ، وهي البناء الذي يحتوي على غرف ومخازن للتجار ، ويعلوه طباق للسكنى بارتفاع دورين أو ثلاثة (عاشور: العصر المماليكي ، ص ٤٤١).

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤/ص ٦٧.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣/ص ١٤٧، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢/ص ١٣٩، التحفة اللطيفة، ج ١/ص ٢٣٩.

(٧) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١/ص ٢٣٩.

(٨) الفاسي: العقد الثمين ، ج ٤/ ص ١٦٤ - ص ١٦٥، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٣/ص ١١٦.

(٩) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤/ص ١٦٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣/ ص ١١٦.

٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م)[١]، ولي مشيخة المقرئين بالمسجد الحرام ، وكان عطاراً بباب السلام[٢] . وكان علي بن عبدالله بن اسماعيل البحيري الديروطي المالكي (ت٨٧٢هـ/١٤٦٧م)[٣] شيخ مكة في القراءات، وتصدر للإقراء ، فقرأ عليه جمع كثير وكان يمارس التجارة ويقتنع بما يكسبه[٤] . وعمر بن أبي بكر بن محمد بن عثمان الزين الحلبي الأصل الدمشقي العبي ، الذي قدم مكة قريبًا من سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م ، فقطنها مكتسبًا من عمل العبى ، وكان يتردد إلى الحرم المكي ليسمع على علمائها . وقد سمع « البخاري » على السخاوي[٥] .كما أن عبدالله بن إبراهيم بن أحمد المغربي (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)[٦] ، ويعرف بالزعبل ، كان يعمل بدهن السقوف ، ولم يمنعه عمله من ملازمة جماعة من العلماء والأخذ عنهم[٧] .وأحمد بن محمد بن حمزة بن عبدالله الحراني المدني (كان حيًا سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)[٨] ، الذي حضر كثيراً من مجالس العلم في المسجد النبوي. وكان يتكسب من عمل الشمع[٩] .

كذلك كان بعض المجاورين يقومون بتأديب الأطفال وإقرائهم في الحرمين الشريفين ، فمن خلال التراجم تبين أن تأديب الأطفال بالحرمين الشريفين يكاد يكون مقتصراً على هؤلاء المجاورين[١٠] .

---

(١) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٥ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ /ص ١٥.

(٢) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٥ ب.

(٣) ن.م.س. ورقة ١٥٦ أ.

(٤) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٥٦ أ.

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٧٧.

(٦) ن.م.س. ج ٥/ص ٢.

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥/ ص ٢.

(٨) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١/ص ٢٣١.

(٩) ن.م.س. ج١/ص ٢٣١.

(١٠) انظر المبحث الخاص بالكتاتيب.

كما كان هؤلاء المجاورون يلقون كل عناية ورعاية واحترام من تلاميذهم في الحرمين الشريفين. فقد كان الجمال المطري ، يقوم بخدمة علي الواسطي (ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م)[١]. إذا قدم المدينة المنورة ، ولعل في ذلك صورة واضحة من صور الإخلاص للمعرفة وإشارة مهمة إلى ما كان يتمتّع به هذا العالم من مكانة علمية مرموقة. كما كان ، سليمان أبو الربيع الغماري المالكي (ت تقريبًا في القرن الثامن الهجري)[٢] فقيه المدينة ومفتيها « إذا سئل عن مسألة ، يقول للسائل : هل سألت الشيخ أبا عبدالله بن فرحون؟ فإن قال : لا ، يقول له : اذهب واسأله وأخبرني بما يقول لك وإن قال : سألته ، يقول له : ماذا قال لك؟ فإذا أخبره، نظر. فإن كان مما اتفق عليه. أمر السائل به ، وإن كان مخالفة ما قال . قال له: إذهب حتى أجتمع به ، فيجتمعان ويحرران المسألة ، ثم يأمران جميعًا السائل بما يتفقان عليه»[٣]. وفي هذا النص دلالة على احترام العلماء بعضهم لبعض ، ومناقشتهم ومدارستهم لحل المسائل الفقهية وإصدار الفتاوى ، التي تدل على عمق الإخلاص للعلم والمعرفة.

كما كان أحمد بن إسماعيل بن أبي بكر بن عمر بن بريدة ، الشهاب الأبشيطي الأزهري (ت ٧٨٣هـ/١٣٨١م[٤] نزيل المدينة، يمتنع عن التحديث في المدينة النبوية ، أدبًا واحترامًا لأبي الفرج المراغي[٥].

وكان بعض العلماء المجاورين لا يخافون في الله لومة لائم ، فقد وقف بعضهم في وجه الأمراء ، وكان وقوفهم هذا عندما يرون منكراً ، فقد وقف محمد بن محمد بن سعيد الهندي الصاغاني (ت ٧٨٠هـ/١٣٧٨م)، في وجه أمير المدينة جماز بن منصور بن جماز

---

(١) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣/ص ٢٧٩.

(٢) ن.م.س. ، ج ٢/ص ١٨٧.

(٣) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ /ص ١٨٧ - ص ١٨٨.

(٤) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٣٩ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ / ص ٢٣٥ ، السيوطي : نظم العقيان ، ص ٣٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧/ص ٣٣٦ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١/ص ٣٧.

(٥) الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١/ ص ٣٧.

(ت٧٥٩هـ/١٣٥٧م) حينما وقع منه كلام في حق أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فكفّره وقام من المجلس ولكنه لم يسلم من غضب الأمير ، فنهبت داره ، مما اضطره إلى التحول إلى مكة[١] للإقامة بها . وكما فعل أحمد بن محمد بن علي الصاحب زين الدين (ت٧٠٤هـ/١٣٠٤م)[٢]المجاور بالمدينة المنورة. الذي أمر بقلع الشجرة القريبة من الروضة الشريفة ، لما كان ينشأ عنها من الفتنة والتشويش لمن يكون بالروضة حين اجتماع النساء والرجال عندها، اعتقادا منهم ببركتها[٣] .

وكان معوضة الفقير (ت٨١٦هـ/١٤١٣م)[٤] « لا يرى منكرا إلا غيّره ولا يهاب أحدا كائنا من كان ، بحيث صارت له هيبة ، ولا يخالفه أحد ، وكان يحمل عصا بيده يضرب بها من يخالفه ، ويقوم بها في المطاف ، فيحول بين الرجال والنساء ، ويدفع أهل الدكاكين في المسعى توسعة للساعين، وأنكر على الأمير بيسق (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)[٥]وهو يعمر في الحرم، أمورا فرجع إليه. ولما أراد طواشي[٦] صاحب بنجاله بناء مدرسة لأستاذه بمكة عند باب المسجد المعروف بباب أم هانئ[٧] ،

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢/ص ٢٩١ ، ابن حجر . إنباء الغمر ، ج١/ص ٢٩٣ - ص ٢٩٤، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥/ ص ٢٦٩.

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة ، ج ١/ ص ٢٤١.

(٣) ن.م.س. ، ج ١/ص ٢٤١.

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ١٦٤.

(٥) الأمير بيسق الشيخي البرقوقي ، أمير أخور - هو الذي يتحدث على اصطبل السلطان أو الأمير - (القلقشندي : صبح الأعشى، ، ج ٥ / ص٤٣٣) ، له آثار بمكة ، كعمارة الرواق الغربي من المسجد الحرام ، مات بالقدس (ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج ١ / ص.٢١٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ /ص ٢٢) .

(٦) طواشي : وجمعه طواشية ، وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية ، وفي الحريم السلطاني ، وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة ، ويعد شيخهم من أعيان الناس . (انظر المعجم الوسيط ، ج ٢ / ص ٥٩١ ، عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٤٣٣).

(٧) باب أم هانئ: في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام، أنشأه وأحدثه الخليفة المهدي سنة ١٦٤هـ.٧٨٠م وأم هانيء هي أخت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .(الأزرقي : أخبار مكة، ج ٢/ص ٩١ ، الهامش ، الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ / ص ٢٣٩ ، باسلامه : تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ١٢٤ - ص ١٢٥) .

وأراد الخروج بالجدار الذي يلي الشارع إلى حذاء مدرسة الشريف عجلان من ذلك - اضطجع في محل البناء - وقال : ابنوا فوقي ، فبذل الطواشي لحكام مكة مالا فعجزوا عن دفعه »[1]

كما قام العديد من هؤلاء المجاورين بأعمال وإصلاحات في الحرمين الشريفين ، كتعبيد الطرق والعناية بها[2] ، وتعمير العيون وإجراء المياه ، خاصة بمكة المكرمة ، وبناء الأربطة للحجاج والزائرين والمجاورين بالحرمين الشريفين . فقد قام دانيال بن علي بن سليمان اللرستاني[3] الكردي (توفي قريبا من سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م)[4] ، وهو من كبار شيوخ العجم المجاورين بمكة بتعمير عين بازان في سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م[5] . كما أوقف العز إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني (ت ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م)[6] في سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م الرباط المعروف به بزقاق الحجر على الفقراء والمساكين والمجاورين من أهل الخير والديانة من أي صنف كانوا ، من العرب والعجم ، وأوقف على هذا الرباط حجرتين ، يصرف إيجارهما على الرباط وعمارته وسقايته وما يحتاج إليه.[7]

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ١٦٤.

(٢) النجم بن فهد : إتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٥٢٢.

(٣) نسبة إلى لرستان : كورة واسعة بين خوزستان وأصبهان ، ويسكنها جيل من الأكراد يقال لهم : اللُّر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ / ص ١٦).

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ / ص ٣٤٣.

(٥) ن. م. س، ج ٣ / ص ٤٤٦ ، ج ٤ / ص ٤٤٣ ، شفاء الغرام ، ج ١ / ص ٣٤٧ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٢٣٩ - ص.٢٤٠.

(٧) ن. م. س، ج ٣ / ص ٢٤٠ ، شفاء الغرام ، ج ١ / ص ٣٣٤ ، الزهور المقتطفة ، ورقة ٦٩ ، ورقة ٧٠ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ / ص ٧٢ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ٢٣٨ - ص ٢٣٩.

كما قام محمد بن عبد الله اليمني البعداني (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) بتعمير رباط دكالة بالمدينة المنورة وسعى في ذلك عند أصحاب الأموال لتعميره[1]. وقام القاضي محيي الدين عبد الرحيم بن علي البيساني بإنشاء رباط للرجال في المدينة المنورة[2]. إضافة إلى كثير من الأربطة والزوايا التي قام المجاورون إما بإنشائها أو بعمارتها أو بالصرف عليها.

وفي الحقيقة فإن المجاورين كان لهم دور كبير سواء في الحياة السياسية أو الإقتصادية، أو الإجتماعية ، أو العلمية ، ويكاد يكون تأثيرهم العلمي في الحجاز أقوى من تأثير علماء الحجاز أنفسهم ، ولولا كثرة المجاورين لما احتاج الأمر إلى شيخ ينظم أمورهم من خلال الأربطة التي تولوا مشيختها.[3]

ولا يعني ذكر هؤلاء فقط أنهم المجاورون وحدهم ، فإن المؤرخين لم يذكروا من المجاورين إلا العلماء الذين اشتهروا في الحرمين الشريفين بخصلة أو حادثة معينة ، أو العلماء المغمورين الذين ارتبطت أسماؤهم بمشاهير العلماء العظام في ذلك العصر، وقد ذكر ابن بطوطة الذي زار مكة في القرن الثامن الهجري ، عددا كبيرا من المجاورين لم يرد لهم ذكر في أي مصدر آخر ، وذلك لأنه شاهدهم عن كثب ، ولم يكونوا مشهورين بحيث لم يهتم بذكرهم المؤرخون.[4]

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ٨٨ ، التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٥٩٧.

(٢) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ / ص ٥٧٢.

(٣) النجم بن فهد : الدر الكمين ، الورقات ، ٢٤ ب ، ٧٩ أ ، ١٠٥ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٢ / ص ٣٣١.

(٤) تحفة النظار ، ص ١٤٤ - ص ١٤٦ - ص ١٤٧.

ب - الأسر العلمية في الحجاز ودورها في تنشيط الحركة العلمية :

إن المتتبع لمسيرة الحركة العلمية في التاريخ الإسلامي ، يلحظ ظاهرة تستحق الوقوف عندها للدراسة والتأمل ، هذه الظاهرة هي وجود أسر[1] إهتم أفرادها بالعلم ، وربت أبناءها على حبه والإهتمام به ، ولست أعني هنا تلك الأسرة المكونة من ثلاثة أشخاص ، الأب والإبن والجد فقط ، ثم تنقطع السلسلة بعد ذلك ، فإن هذا كثير جدا في مرحلة الدراسة ، وإنما عنيت هنا بالأسرة العلمية التي امتد أثرها ونشاطها العلمي على مدى قرن من الزمان فأكثر ، وانتسب أفرادها إلى أصل واحد ذوي فروع متعددة.

وفي الحجاز نلحظ هذه الظاهرة بشكل واضح بحيث لا يستطيع الباحث أن يتجاوزها ، لأن أفراد هذه الأسر توارثوا مناصب القضاء ، وإمامة وخطابة الحرمين الشريفين كل حسب مذهبه الذي يتبعه.

وتعد الأسر المكية والمدنية مظهراً من المظاهر التي ساعدت في إثراء الحركة العلمية، وتنشيطها ، فقد تخصصت بعض البيوت المشهورة في مكة والمدينة في طلب العلم والتأليف ، وحظيت بنصيب وافر من المعرفة ، وعدد أكبر من العلماء عرفوا بحبهم للعلم . وعند تتبع تلك الأسر العلمية التي تتابعت حلقاتها قرنا بعد قرن نجد أن البعض منها نشأت منذ قرون عديدة وامتدت حتى القرن التاسع والعاشر ، ومن أهم هذه الأسر : -

---

(١) من هذه الأسر خارج الحجاز ، أسرة ال الجراح وهي أسرة كتاب ووزراء ظهر منها ما بين أواسط القرن الثالث وأواسط القرن الرابع عدة كتاب مؤرخين . كداود بن الجراح كاتب المستعين ، ثم ابنه محمد وحفيده علي وغيرهم. وأسرة السمعاني وأشهرهم عبد الكريم بن محمد (ت٥٦٤هـ/١١٦٨م) ، وأسرة آل البنا البغدادية ، وأسرة آل المقدسي ، وأسرة آل عساكر . (مصطفى ، شاكر : التاريخ العربي والمؤرخون ، دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام ، الطبعة الأولى (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٨م) ، ص ٢٨١ - ص ٢٨٢ ، وللحافظ الذهبي كتاب في أسرة آل منده. معروف ، بشار عواد : الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام (القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٧٦م) ، ص ١٨٧.

أسرة الطبري[1]:

هي من أكبر الأسر العلمية العريقة المجاورة في مكة المكرمة ، من حيث عددها ومن حيث امتدادها ستة قرون ، واضطربت الأقوال في تحديد ومعرفة أول جد لهذه الأسرة جاور بمكة . فقال التقي الفاسي في ترجمة الحسين بن علي بن الحسين الطبري الشافعي (ت٤٩٨هـ/١١٠٤م)[2] : « ومن أولاده أعقابه المشار إليهم قضاة مكة الشيبانيون ، وقد ذكر غير واحد أنهم طبريون»[3]

وقال في ترجمة أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري (ت ٦١٣هـ / ١٢١٦ م)[4]، «جاور بمكة مستوطنا بها ، ورزق بها أولادا نجباء ، وأنجب من ذريته جماعة صاروا علماء مكة ورواتها وقضاتها وخطباءها وأئمتها »[5] ، وأكد ذلك علي بن عبد القادر الطبري في كتابه (الأرج المسكي في التاريخ المكي) حيث قال : « وأقدم البيوت بمكة جماعتنا الطبريون ، فإن الشيخ نجم الدين عمر بن فهد ذكر في كتابه (التبيين في تراجم الطبريين) أن أول من قدم منهم مكة الشيخ رضي الدين أبو بكر بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن علي بن فارس الحسيني الطبري قبل سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م وقيل في أول التي تليها، وانقطع

---

(١) نسبة إلى طبرستان من بلاد خراسان ، وهي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الإسم مثل دهستان واستراباذ وآمل ، وهو بلد عظيم كثير الحصون والجبال ، فتحت سنة ١٤٢هـ / ٧٥٩م (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ / ص ١٣ ، الحميري : الروض المعطار ، ص٣٨٣).

(٢) ولد سنة ٤١٨هـ / ١٠٢٧م في آمل طبرستان ، وبرع في المذهب الشافعي ، وأخذ عنه كثير من العلماء ، ودرس في نظامية بغداد قبل الغزالي ، وكان يدعى إمام الحرمين ، لأنه جاور بمكة نحواً من ثلاثين سنة يدرس ويفتي . (انظر ترجمته في : السبكي ، تاج الدين أبو النصر : طبقات الشافعية ، تحقيق ، عبد الفتاح الحلو ، محمود الطناحي ، (القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م) ، ج ٤ / ص ٣٤٩ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ / ص ٢٠٠ ، ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية ، ج ١ / ص ٢٧٠ - ص٢٧١).

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ / ص ٢٠٠.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٠.

(٥) ن . م . س ، ج ٨ / ص ٢٠.

بعدها بمكة ، وسرد نسبهم الشريف إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنهم[1] ، وذكر ذلك المحبي أيضا في ترجمة (عبد القادر بن محمد بن يحيى الطبري[2]). ووافقه في ذلك أبو الخير.[3]

بينما ذكر الأستاذ أحمد السباعي[4] : أن أول من قدم منهم هو أبو معشر الطبري[5]. فقد جاور بمكة ، و جلس للإقراء بها عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م ، واشتهر منهم في القرن السادس : رضي الدين بن أبي بكر ، وظل أحفاد هذا البيت يخدمون العلم في مكة إلى أن انقرضوا.[6]

ويبدو لنا من خلال كتب التراجم التي ترجمت للأسرة الطبرية بمكة المكرمة ، أن الطبريين ليسوا كلهم من أصل واحد وإنما هم : طبريون ينتسبون إلى عمرو بن العلاء الشيباني فهم شيبانيون ، وطبريون ينتسبون إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وطبريون معروفون بابن النجار وهم أربعة أشخاص فقط لا غير[7]. أما

(١) الأرج المسكي ، ورقة ١٢٩ - ورقة ١٣٠.

(٢) المحبي ، محمد أمين : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . (القاهرة ، المطبعة الوهبية ، ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م) ، ج ٢ / ص ٤٥٧.

(٣) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، ص ١٠٠.

(٤) تاريخ مكة ، ص ٢١٨.

(٥) هو عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد بن علي بن محمد القطان الطبري المتوفي سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م (انظر ترجمته في : الذهبي : ميزان الإعتدال في نقد الرجال ، ج ٢ / ص ٦٤٤ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥/ ص ٤٧٥ ، ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ، ج ١ / ص ٤٠١ ، ابن حجر : لسان الميزان ، (بيروت ، دار الفكر ، بدون تاريخ) ، ج ٤ / ص ٤٩ ، الداودي ، شمس الدين ، طبقات المفسرين ، تحقيق ، علي محمد عمر ، (القاهرة ، مكتبة وهبة ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) ، ج ١ / ص ٣٢٢ ، البغدادي : هدية العارفين ، ج١/ ص ٦٠٨).

(٦) تاريخ مكة ، ص ٢١٨.

(٧) وهم : محمد بن علي بن الحسين بن علي بن عبد الملك الطبري المكي المعروف بالنجار (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م) ، ترجمته في الفاسي : العقد الثمين، ج ٢ / ص ١٥١، وأولاده في العقد الثمين : عبد الله (ت ، بعد ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م) ، ج ٥ / ص ٢٤٨ ، وعبد الرحمن (ت،٧٠١هـ/١٣٠١م) ، ج ٥ / ص ٤٠٣ ، ويحيى (ت ، ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م)، ج٧/ ص٤٤٩، وابن أخيه محمد بن عبد الرحمن كان حيا سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م ، ج ٢ / ص ١١٠.

أبو معشر الطبري الذي ذكره السباعي فليس من هؤلاء جميعا وإنما يلقب بالقطان .

ومما ساعد على معرفة أصل هذه الأسر ما ذكره الفاسي في «العقد الثمين» حين الترجمة لأحد الأعلام ، فيذكر في ترجمة الطبري ، إما الحسيني أو الطبري الشيباني(١) .

وبعد ذلك يمكننا القول بأن أول طبري حسيني قدم مكة هو رضي الدين أبو بكر بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن علي بن فارس بن يوسف بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الواحد بن موسى بن إبراهيم بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه(٢) . كما ذكر هذه الأسرة جمال الدين محمد بن علي الشيباني في كتابه « الشرف الأعلى في ذكر قبور مقبرة المعلاة »(٣) حين ترجم لأحمد بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر الطبري (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) . فذكر أن أبناء أبي بكر سبعة ، وهم : محمد ، وأحمد صاحب الترجمة ، وإبراهيم ، وعلي ، وإسماعيل، وإسحاق ، ويعقوب(٤) . وبعد هؤلاء توالت الأسرة الطبرية ، حيث كان لها نشاطٌ ملموس في العلوم الشرعية ، خاصة علم الحديث ، وقاموا بالتدريس في الحرمين الشريفين والمدارس ، والأربطة.

---

(١) انظر فهارس أجزاء العقد الثمين.

(٢) نقلت نسبه إلى منتهاه من (المحبي : خلاصة الأثر ، ج ٢ / ص ٤٥٧ ، ترجمه عبد القادر ابن يحيى بن مكرم الطبري) . وفي رسالة جار الله بن فهد المكي ، (القول المؤتلف في نسبة البيوت الخمس إلى الشرف) ذكر هذا النسب ، إلا أن الناسخ وهو السنجاري أسقط : (موسى بن إبراهيم بن جعفر بن محمد ، وهي رسالة مخطوطة في خمس صفحات ، مكتبة الحرم المكي الشريف ، رقم ٢٨١٦ ، وانظر كذلك (أبو الخير : المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، ص ٢٦٧ - ص ٢٦٨).

(٣) مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ٩٧٤ ، عن مكتبة حسن حسني عبد الوهاب بتونس ، برقم ١٨٣٢٥.

(٤) الشرف الأعلى ، ورقة ١٥أ.

ومن أشهر علماء هذه الأسرة : أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبري المكي الشافعي (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م)[١] ، ويلقب بمحب الدين ، سمع بمكة على كثير من العلماء . وأجاز له خلق من بغداد والشام ، ومصر ، وتفقه وحدّث و درّس ، وأفتى إلى أن صار شيخ الحجاز في عصره بلا منازع ، روى عنه وسمع منه غير واحد من الأعيان ، وأجاز لجماعة آخرين وكتب إلى الحافظ الذهبي بمروياته[٢] ، وذكر ابن رشيد في رحلته أن المحب أجازه جميع ما رواه وألفه ، له ولإبنه ولجماعة من أصحابه[٣]. كما كان للمحب حظوة عند أمراء مكة وسلاطين اليمن[٤].

واعتنى بالعلم كثيرا ، ولم يشغل نفسه في صغائر الأمور وحقيرها ، وكان لا يُرى إلا في علم أو عبادة ، قال عنه أبو اليمن بن عساكر : « لم أر المحب في وقت من الأوقات إلا في عمل : من صلاة ، أو طواف ، أو دعاء ، أو تعليم علم ، أو تصنيف ، أو نحو هذا »[٥] ، وهذه منقبة عظيمة تدل على توفيق الله له أن جمع بين العلم والعمل وقد أثنى عليه غير واحد من العلماء ، فترجمه ابن مسدي « بالإمام الأجل العالم قطب الشريعة » وترجمه البرزالي «بشيخ الحجاز »[٦] ، والذهبي « بشيخ الحرم الفقيه الزاهد

---

(١) انظر ترجمته في (الذهبي : تذكرة الحفاظ،ج٤/ ص ١٤٧٤ ، معجم الشيوخ ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، الطبعة الأولى (الطائف ، مكتبة الصديق ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) ، ج ١ / ص ٥٠ – ص ٥١ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٧ / ص ١٣٥ ، اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٢ / ص ٢٢٤ ، السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٨ / ص ١٨ ، الأسنوي ، جمال الدين عبد الرحيم : طبقات الشافعية ، تحقيق عبد الله الجبوري . (الرياض ، دار العلوم، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ، ج ٢ / ص ١٧٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٣ / ص ٣٦١ ، الفاسي: العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٦١ – ص ٧٢ ، ابن قاض شهبة : طبقات الشافعية ، ج٣/ ص ١٨ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٨ / ص ٧٤ ، المنهل الصافي ، ج ١ / ص ٣٤٢ – ص ٣٤٩.

(٢) الذهبي : معجم الشيوخ ، ج ١ / ص ٥١.

(٣) ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة ، ج ٥ / ص ٢٣٣.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ / ص ٣٦١ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص٦٥.

(٥)الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٦٦.

(٦) ن . م . س ، ج ٣ / ص ٦٥.

المحدث شيخ الشافعية ومحدث الحجاز »[1] ونقل الجمال أبو حامد ابن ظهيرة عن الحافظ صلاح الدين العلائي قوله : « ما أخرجت مكة بعد الشافعي مثل المحب الطبري »[2] ولم يكن في زمانه مثله بالحرم المكي ، وكان المحب الطبري من أشهر علماء الحديث في عصره ، إضافة إلى معرفته بالفقه والتفسير والتاريخ ، وله في ذلك مؤلفات في هذه العلوم.

أما إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن محمد الطبري (ت٧٢٢هـ/١٣٢٢م)[3] ، الملقب برضي الدين فقد أخذ عن جماعة من العلماء بمكة والوافدين عليها قراءة وسماعًا « صحيح البخاري » و« صحيح مسلم » و« سنن أبي داود » ، وذلك بالحرم المكي الشريف وأجازه جماعة من العلماء ، وطلب العلم وتفقه وأفتى ، وأقرأ الحديث ، ونسخ الأجزاء ، وتفرد بأشياء[4]. لم يخرج من الحجاز طيلة عمره ، ولذلك كان يقول : «لم أر يهوديا ولا نصرانيا » . وحدّث بمسموعاته ومروياته ومصنفاته مدة خمسين سنة ، قرأ عليه اليافعي : «البخاري » و« صحيح مسلم » ، وسنن أبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، والدارمي ، وابن حبان ، ومسند الشافعي وغير ذلك من كتب الحديث[5] ، وسمع منه التجيبي عندما زار مكة سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م شيئا كثيرا ، وأجازه جميع مروياته[6]. وقد أثنى عليه غير واحد من العلماء ، فقال الذهبي: « عالم فقيه محدث ،

---

(١) تذكرة الحفاظ ، ج ٤ / ص ١٤٧٤ ، معجم الشيوخ ، ج ١ / ص ٥٠ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج٣/ ص ٦٦ ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ٣ / ص ١٨ - ص ١٩.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٦٦.

(٣) التجيبي : مستفاد الرحلة والإغتراب ، ص ٣٨٠ - ص ٣٩٤ ، الذهبي : معجم الشيوخ ، ج ١ / ص ١٥٠ - ص ١٥١ ، برنامج ابن جابر الوادي آشي ، ص ٨٥ - ص ٨٦ ، اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ / ص ٢٦٧ - ص ٢٦٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ / ص ١٠٧ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٢٤٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ / ص ٥٤ ، التقي ابن فهد : لحظ الألحاظ ، ص ١٠٠ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٩ / ص ٢٥٥ ، المنهل الصافي ، ج ١ / ص ١٦٣ - ص ١٦٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ / ص ٥٦ ، البغدادي : هدية العارفين ، ج ١ / ص ١٣ ، كحالة : معجم المؤلفين ، ج ١ / ص ٧٩.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٢٤١ - ص ٢٤٢.

(٥) اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٤ / ص ٢٦٧.

(٦) التجيبي : مستفاد الرحلة والإغتراب ، ص ٣٨٠ - ص ٣٩٤.

عابد ، ورع كبير القدر »[1] ، أما اليافعي فترجمه بصاحب الأسانيد ، فريد العصر بقية المحدثين[2] . والبرزالي فقال : «كان شيخ مكة في وقته ، وكان يفتي على مذهب الشافعي » ، وذكره ابن رافع في معجمه فقال : « كان محبا في الحديث وأهله حسن الإستماع لما يقرأ عليه سريع الدمعه »[3] ، وابن حجر ، فقال : « كان رصينا منفردا في الدين والعبادة ، قل أن ترى العيون في مثله في التواضع والوقار والخير »[4] ، والتقي ابن فهد فترجمه « بشيخ الإسلام ومسند الحجاز وإمام الشافعية بالمسجد الحرام ..... وكان صاحب إخلاص ، وذا عناية بالحديث »[5] ، وكان مع اتساعه في رواية الحديث له معرفة بالفقه ، واللغة العربية والشعر وغيرها ، وله الكثير من المؤلفات في هذه العلوم.

ويعتبر المحب الطبري ، والرضي الطبري من أشهر علماء هذه الأسرة من حيث التحديث والتدريس وتأليف المؤلفات ، وتأثيرهم العلمي في مكة المكرمة.

ومن أوجه نشاط هذه الأسرة تدريسهم كتب الصحاح ، خاصة «صحيح البخاري»، حدّث به إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن أبي بكر الطبري (ت ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م)[6] ، من ضمن ما حدّث « جامع الترمذي » رواه عن ابن البنا بالإجازة ومحمد بن إبراهيم بن أبي بكر جمال الدين (كان حيا سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م)[7] . ومن علماء هذه الأسرة ، يعقوب بن أبي بكرالطبري (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م)[8] ، سمع عليه كثير من العلماء بمكة ، وذكره المهدوي ، أبو محمد عبد الله بن عبد العزيز ، في كتابه «

---

(١) معجم الشيوخ ، ج١ / ص ١٥٠.

(٢) مرآة الجنان ، ج ٤ / ص ٢٦٨.

(٣) الفاسي: العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٢٤٣.

(٤) الدرر الكامنة ، ج ١ / ص ٥٤.

(٥) لحظ الالحاظ ، ص ١٠٠.

(٦) الذهبي : معجم الشيوخ ، ج ١ / ص ١٨٠ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٣٠٥.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٣٩٥.

(٨) ن . م . س ، ج ٧ / ص ٤٧٣.

مجتنى الأزهار في ذكر من لقيناه من علماء الأمصار » ، فقال : « الفقيه الإمام المحدث جمال الدين أبو أحمد ، أحد فقهاء مكة وفضلائها ... قرأت عليه وسمعت كثيرا ، وأجازني ، وأسندت عنه حديثا ، عن أبي مهاجر »[(١)] ، وكذلك علي بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر نور الدين (ت بعد ٦٨٦هـ/١٢٨٧م)[(٢)] الذي حدث مع أخيه الرضي « الأربعين الثقفية »[(٣)] ، وعبدالرحمن بن محمد بن محمد بن أبي بكر (كان حيا سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م)[(٤)] سمع على كثير من العلماء كتب الحديث وحدّث بها[(٥)] . وعبد الرحمن بن يوسف بن إسحاق بن أبي بكر (كان حيا سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م)[(٦)] ، سمع على كثير من العلماء وأجازوه[(٧)] ، وإبراهيم بن يعقوب بن أبي بكر (كان حيا سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م)[(٨)] ، أجاز للذهبي سنة٦٧٣هـ / ١٢٧٤م[(٩)] ، كما ترجمه المحب الطبري في بعض سماعاته بالفقيه[(١٠)] . وعبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر مجد الدين (ت ٦٩١هـ / ١٢٩١م)[(١١)] ، حدّث وخرّج لنفسه جزءًا عن جماعة من شيوخه ، وروى عن الرشيد العطار ، والبرزالي ، وكتب إلى الذهبي

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٧ / ص ٤٧٣.

(٢) ن . م . س ، ج ٦ / ص٢٢٦.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦ / ص ٢٢٦.

(٤) ن . م . س ، ج ٥ / ص٤٠٦.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٤٠٦.

(٦) ن . م . س ، ج ٥ / ص٤١٨.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٤١٨.

(٨) الذهبي : معجم الشيوخ ، ج ١ / ص ١٦١ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٢٧٦.

(٩) الذهبي : معجم الشيوخ ، ج ١ / ص ١٦١.

(١٠) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٢٧٦.

(١١) الذهبي : معجم الشيوخ ، ج ١ / ص ٣٣٤ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ١٧ / ص٥٨٦، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٢٦٧ ، ابن القاضي ، أحمد بن محمد المكناسي: درة الحجال في أسماء الرجال ، تحقيق ، محمد الأحمدي أبو النور (القاهرة - تونس ، دار التراث ومكتبة العتيقة ، ١٩٧٠م) ، ج ٣ / ص ٣٩.

بمروياته(١) . ومحمد بن أحمد عبد الله بن محمد بن أبي بكر الجمال ابن المحب (ت٦٩٤هـ/١٢٩٤م)(٢) ، الذي كان له جهود في علم الحديث والفقه واللغة العربية والشعر ، وله مؤلفات في هذه العلوم ، وأثنى عليه كثير من العلماء(٣) . ومحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر نجم الدين (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م)(٤) ، الذي كان يقصد بالفتوى من بلاد اليمن والحجاز(٥) . وأحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر (ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م)(٦) ، الذي سمع على كثير من العلماء ، كتب الحديث والتفسير والسيرة النبوية . كما حدّث وأجاز الكثير من الطلبة بالحرم المكي الشريف ، ودخل مصر للإشتغال والتحصيل وكان معروفا بالكرم والجود على الغرباء والوافدين إلى مكة(٧) . وأحمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الشهاب ابن الرضي (ت ٧٥٠هـ /١٣٤٩م)(٨) ، سمع على كثير من علماء مكة ودمشق ومصر(٩) . وقد ذكره البلوي في رحلته وأثنى عليه ، وقال : « لقيته بحرم مكة تجاه الكعبة المعظمة فسمعت عليه كثيرا من حديث رسول الله ﷺ ومن غيره ، وانتفعت به وأجازني الإجازة التامة المطلقة »(١٠) ، وأحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن

---

(١) الذهبي : معجم الشيوخ ، ج ١ / ص ٣٣٤ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٢٦٧.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٢٩٤ ، البغدادي : هدية العارفين ، ج ٢ / ص ١٣٩.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٢٩٤.

(٤) ن . م . س ، ج ٢ / ص ٢٧١.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٢٧١.

(٦) ن. م. س، ج ٣ / ص ١١٩ – ص ١٢٣ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١/ ص٢٤٣، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١/ ص٢٢٦.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ١٢٠.

(٨) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٩.

(٩) ن . م . س ، ج ٣ / ص ٩.

(١٠) تاج المفرق ، ج ١ / ص ٣١٤.

إسماعيل الشهاب (ت٧٨٠هـ/١٣٧٨م)[١]، حدّث وسمع منه الزين العراقي وابنه الولي ، والهيثمي ، والجمال بن ظهيرة[٢].

وفي نهاية القرن الثامن الهجري قلَّ نشاط هذه الأسرة ، ولم يظهر منهم عالم في مكانة ومنزلة محب الدين أو رضي الدين ، ومنهم عبد الله بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر الطبري (ت ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م)[٣]، الذي سمع بمكة والمدينة ودمشق من جماعة من المحدثين ، وسمع منه بمكة ابن سكر، وحدّث عنه أبو حامد بن ظهيرة[٤]، وأبو البركات محمد بن أحمد بن رضي الدين الطبري، (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م)[٥]، الذي أجازه جماعة من شيوخ مصر والشام[٦]. ثم خلفه من بعده أخوه محمد أيضًا ويكنى أبو اليمن (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م)[٧]، الذي سمع على كثير من مشايخ مكة ومصر ، وكان لكلامه وقع في قلوب الناس[٨] ، وكان لزين الدين محمد(ت٨١٥هـ/١٤١٢م)[٩] ، نشاط في الحديث ، وأكثر من السماع بنفسه حتى

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ١٣٠- ١٣١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ / ص ٢٥٥.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ١٣٠- ١٣١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ / ص ٢٥٥.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ١٠٠ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٢٤٥ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٢٩١.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ١٠١ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٢٩١.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٢٨٠ ، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٥٥ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ / ص ٣٠٦ ، أنباء الغمر ، ج ١ / ص ٤٦٣.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٢٨٠.

(٧) ن. م. س، ج ١ / ص ٢٨٢ ، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٥٦ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٢ / ص ٣٧٣ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٢٨٧.

(٨) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٢٨٤.

(٩) ن. م. س، ج ١ / ص ٣٦٨ ، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ١٣٠ - ص ١٣٤ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٢ / ص ٥٣١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ٤٦ ، التحفة اللطيفة ، ج١/ ص٣٦٨.

لقب بمسند مكة ، وأجازه خلق كثير من دمشق ومصر ، وكان يحضر مجالس العلم بمكة عند القاضي أبي الفضل النويري ، ويقرأ عليه البخاري في غالب السنين ، وأعاد ببعض المدارس بمكة[1].

تلك هي الجهود التي قامت بها أسرة الطبري الحسينيين بمكة المكرمة في العصر المملوكي في نطاق العلوم الشرعية ، وغيرها من العلوم الأخرى ، وظلت هذه الأسرة بعد ذلك تؤدي دورها العلمي إلى بداية القرن الثالث عشر الهجري[2].

وبذلك تكون هذه الأسرة قد أدت خدمات علمية جليلة بمكة وغيرها من مدن الحجاز طيلة ستة قرون ، تنشر علم الحديث والفقه والتفسير وغير ذلك من العلوم ، وتلي مناصب القضاء ، وإمامة وخطابة المسجد الحرام ، ولم يعرف التاريخ الإسلامي أسرة علمية قامت بمثل أعمال هذه الأسرة ، واستمرت مثل هذه المدة.

أما بالنسبة للطبريين الشيبانيين ، فإن أول من جاء منهم هو الحسين بن علي بن الحسين بن محمد بن شيبة بن إياد بن عمرو بن العلاء الشيباني (ت٤٩٨هـ/١١٠٤م)[3] ، ومنهم موسى بن حسن بن موسى بن عبد الصمد بن علي بن الحسن بن علي الشيباني (كان حيا سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م)[4] ، ولقد تولى أكثر أفراد هذه الأسرة القضاء والخطابة في مكة وجدة ، سواء قبل العصر المملوكي أو بعده.[5]

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٣٦٩ - ص ٣٧٠.

(٢) انظر الفاسي : العقد الثمين ، تراجم لعلماء طبريون آخرون ، ج ٥ / ص ٩٩ ، ج ٣ / ص ٧٣ ، ج ١ / ص ٣٧٨ ، ج ٦ / ص ١٧٧ ، ج ١ / ص ٢٨٥ ، ج ٣ / ص ١١ ، ج ٥ / ص ٣٨٨ ، ج ٣ / ص ١٦١ ، ج ٥ / ص ٢٤١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٢٨٣ ، ج ١ / ص ٢٩٧ ، ج ٢ / ص ٣٠٦ ، المحبي : خلاصة الأثر ، ج ٣ / ص ٢٧١ ، ج ٢ / ص ٤٥٧ ، ج ٢ / ص ١٩٥ ، ج ٣ / ص ١٦١.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ / ص ٢٠٠ ، وبقية النسب في أخيه عبد الرحمن ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٣٩٢.

(٤) ن . م . س ، ج ٧ / ص ٢٩٧ - ص ٢٩٨.

(٥) انظر تراجم لطبريون شيبانيون ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥/ص٤٨١، ج ٥/ ص ٢٥ - ص٢٦، ج٥/ ص ٣٩٢ ـ ص ٣٩٣ ، ج ٧ / ص ٢٩٧ - ص ٢٩٨ ، ج ٧ / ص ٤٢٩ ، ج ٧/ص ٤٣٨ - ص ٤٣٩، ج٤/ ص٥٩٤ ، ج٤ / ص١٨٣ - ص١٨٤، ج٤ / ص١٩٣.

أسرة القسطلاني[1] :

تنسب إلى الحسن بن عبد الله بن أحمد بن ميمون بن راشد القيسي القسطلاني ، ومن ذريته توالت أسرته إلى ما بعد عصر المماليك ، وممن كان لهم نشاط في الحركة العلمية : محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن الحسن (ت ٦٣٣هـ / ١٢٦٤م)[2]، ولي إمامة مقام المالكية بالحرم المكي الشريف ، وحدّث ، ودرّس ، وأفتى ، وكان شيخا صالحا عالما فقيها محدثا ، تولى التدريس في بعض المدارس بمكة ، وكان عالما بالأصول والفقه والعربية ، وله مؤلفات فيها[3]. وعلي بن أحمد بن علي بن محمد تاج الدين (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م)[4]، أخو القطب القسطلاني ، سمع بمكة ومصر ، وحدّث بهما ، وكان محبًا للحديث وأهله ، وتولى التدريس بمكة والقاهرة[5] .

ومن أشهر علماء هذه الأسرة : محمد بن أحمد بن علي بن محمد القيسي القسطلاني المكي الشافعي (ت ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م)[6] ، ولقبه قطب الدين ، سمع على كثير من

---

(١) القسطلاني : نسبة إلى قسطيلية : بفتح القاف وسكون السين وكسر الطاء واللام ، وياء خفيفة : مدينة بالأندلس كثيرة الأشجار ، متدفقة الأنهار تشبه دمشق وهي كورة ، ومن مدنها توزر ، والحمه ونفطة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ / ص ٣٤٨ ، الحميري : الروض المعطار ، ص ٤٨٠).

(٢) اليونيني: موسى بن محمد : ذيل مرآة الزمان (مطبوعات دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م) ، ج ٢ / ص ٣٢٩ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٤ / ص ٢٦١ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٢٣٠ ، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٣٤٢.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٢٣٠.

(٤) ن . م . س ، ج ٦ / ص ١٣٦ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ / ص ٤٥٥.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦ / ص ١٣٦.

(٦) انظر ترجمته في : الصفدي : الوافي بالوفيات، ج ٢ / ص ١٣٢ ، الكتبي : فوات الوفيات، ج٣/ ص ٣١٠ ، اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٢ / ص ٢٠٢ ، السبكي : طبقات الشافعية، ج ٨ / ص ٤٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ / ص ٣٢٨ ، الفاسي: العقد الثمين، ج١/ص ٣٢١، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٩٩ – ص ١٠٠ ، التقي بن فهد : لحظ الالحاظ، ص ٧٦، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ / ص ٣٧٣، الدليل الشافي ، ج ٢ / ص ٥٨٨، السخاوي: التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٤٨٥ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ / ص ٤١٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ / ص ٣٩٧ ، البغدادي : هدية العارفين ، ج ٢ / ص ١٣٥.

العلماء ، وقد اعتنى به والده كثيرا ، وشجعه ، فدرس في مدرسة دار زبيدة (مدرسة طاب الزمان الحبشية) بالحرم الشريف بحضرة والده ، وبدأ بالإفتاء سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م ، إلى أن مات ، وحدّث بكثير من مسموعاته ، وبعض تصانيفه ، وسمع منه كثير من طلاب العلم، وأجاز لهم[١] ، وقد لقيه ابن رشيد في رحلته حينما زار مكة وذكر أنه قرأ عليه عدة كتب من الحديث الشريف[٢] .

كما عرف من علماء هذه الأسرة ، محمد الأمين ابن القطب القسطلاني (ت٧٠٤هـ/١٣٠٤م)[٣] الذي سمع الحديث بمكة ، وانتهت إليه مشيخة الحديث بها ، وحدّث ودرّس بالحرم المكي ، وبعض المدارس في مكة[٤] . وخليل بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر (ت ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م)[٥] ، ويسمى محمد ، سمع كثيرا من كتب السنن والأجزاء ، وحدّث بكثير من مسموعاته ، وسمع منه جماعة من أعيان شيوخ التقي الفاسي ، ودرّس وأفتى ، وكان شيخ المالكية والمحدثين بالحرم المكي الشريف[٦] ، ذكره خالد البلوي في رحلته ، وذكر أنه سمع عليه وأجازه جميع ما يحمله ويرويه إجازة مطلقة تامة[٧] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٣٢١ ، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٩٩ - ص ١٠٠.

(٢) ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة ، ج ٥ / ص ٣٠٥، ص ٣٠٨ ، ص ٣١٥.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٢٧٧ ، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٣٦١ - ص ٣٦٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ / ص ١٦٩.

(٤) الفاسي : ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٣٦١ - ص ٣٦٢.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ / ص ٣٢٤ ، ابن الجزري : غاية النهاية ، ج ١ / ص ٢٧٦ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ / ص ٣٣٣ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٢١ ، ابن رافع ، محمد السلامي : الوفيات ، تحقيق ، صالح مهدي عباس ، مراجعة ، بشار معروف (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ، ج ٢ / ص ٢٢٢.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ / ص ٣٢٤.

(٧) تاج المفرق ، ج ١ / ص ٣١٣.

وقد ضعف نشاط هذه الأسرة في نهاية القرن الثامن الهجري ، حيث نجد قليلا منهم ممن كان له أثر علمي في الحجاز ، فلم أجد من خلال التراجم ، أن أحدهم قد درّس بإحدى المدارس في مكة ، وكان نشاطهم قاصرا على السماع والإجازة في الحديث ، ومن هؤلاء :

الشهاب أحمد بن حسن بن الزين محمد (ت ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م)[١] ، الذي سمع بمكة ، وأجيز من جماعة من علماء مصر والشام ، وحدّث ببعض مروياته ، سمع منه الجمال أبو حامد بن ظهيرة « الرياض النضرة » وروى عنه التقي الفاسي[٢] . وكذلك الكمال بن محمد بن محمد بن أحمد بن حسن الزين (ت ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م)[٣] ، قاضي المالكية بمكة، سمع من ابن حجر وغيره ، وحدّث ، وحمل عنه السخاوي[٤] ، وقريبه محمد بن أحمد بن محمد بن حسين بن الزين (ت ٨٦٥هـ / ١٤٦٠م)[٥] ، الذي درّس مدة بالحرم الشريف ، وأجاز للنجم ابن فهد ، والسخاوي[٦] ، وهناك الكثير من رجال هذه الأسرة ولكنهم ليسوا كسابقيهم في العلم والمعرفة[٧] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٢٧ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ / ص ١٢٢.

(٢) ابن حجر الدرر الكامنة ، ج ١/ص ١٢٢.

(٣) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٥٦ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٤.

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٤.

(٥) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢١٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ٦١.

(٦) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢١٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ٦١.

(٧) انظر الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٨ ، ج ٢ / ص ٣٣٨ ، ج ٣ / ص ١٢٦ ، ج ٣ / ص ١٧٢ ، ج ٦ / ص ٢٣٥ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١/ ص٢٤٤، ج١/ ص ٣٠٠ ، ج٤/ ص ٢٢٩ ، أنباء الغمر ، ج ٢ / ص ٤١٤.

أسرة العسقلاني:[1]

لم يذكر المؤرخون أول جد رحل إلى مكة واستوطنها من هذه الأسرة ، وقد ألف النجم بن فهد لكل أسرة من الأسر العلمية المشهورة بمكة كتابا ، لم يصلنا منها شيء ولو وصلت إلينا لحلت كثيرا من المشاكل المتعلقة بنسب هذه الأسرة وأفرادها ، وقد نسب إلى عسقلان خلق كثير من أهل العلم ، وليس كل من نسب إليها يعد من هذه الأسرة التي سأتكلم عنها وإنما سأتحدث هنا عن الأسرة المتفرعة من إبراهيم بن يحيى بن فارس الكناني العسقلاني التي استقرت في الحجاز ، وخاصة مكة المكرمة ، وقد ترجم التقي الفاسي للعسقلانيين بمكة ، وذكر كثيراً من فروع هذه الأسرة . وعلى الرغم من قلة أفراد هذه الأسرة إلا أنه كان لها نشاط لا بأس به في العلوم الشرعية ، ومن أهمهم :

أحمد بن عبد الواحد بن إسماعيل بن إبراهيم بن يحيى (ت ٦٤٩هـ / ١٢٥١م)[2]، الذي روى «جامع الترمذي» عن ابن البنا ، وأخرج عنه المحب الطبري في كتابيه «العقود الدرية» «والمشيخة المظفرية» حديثا من جامع الترمذي عن ابن البنا[3] . ومن المحدثين كذلك، محمد بن عمر بن خليل بن إبراهيم (كان حيا سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م)[4] ، وسليمان بن خليل بن إبراهيم (ت ٦٦١هـ / ١٢٦٢م)[5] ، وإسماعيل بن عبد الواحد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت بعد ٦٦٣هـ / ١٢٦٤م)[6] . وأحمد بن أبي بكر

---

(١) نسبة إلى عسقلان : وهي مدينة في فلسطين من بلاد الشام فتحها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سنة ٢٣هـ / ٦٤٣م ، صلحا ، وإليها تنسب هذه الأسرة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ / ص ١٢٢ ، الحميري : الروض المعطار ، ص ٢٤٠).

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٨٣.

(٣) ن . م . س ، ج ٣ / ص ٨٣.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٢٢٥.

(٥) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ١٥ / ص ٣٧٤ ، اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٢ / ص ١٥٩ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ / ص ٦٠٣ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ١٧٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ / ص ٣٠٢.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٣٠٢.

(ت٦٨٨هـ /١٢٨٩م)[١] ، وأخوه محمد (ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م)[٢] ، وعبد الله بن محمد بن عبد الله بن خليل (ت ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م)[٣] ، الذي سمع بمكة وحلب ومصر كثيرا من الأجزاء والكتب ، وكان محدثا حافظا فقيها ، حدّث بكثير من مسموعاته وولي التدريس في بعض مدارس مكة.[٤]

أما الكتب التي حدّث بها هؤلاء السابقون فهي : صحيح البخاري ، ومسلم ، وسنن أبي داود ، والترمذي ، والنسائي ، ومسند الشافعي ، وسنن الدارمي ، والجمع بين الصحيحين ، وأخبار مكة للأزرقي ، والمصابيح للبغوي.

أسرة الفاسي :

هناك لبس ونقص في سلسلة النسب في مقدمة « شفاء الغرام »[٥] للتقي الفاسي. وفي « معجم الشيوخ »[٦] للنجم بن فهد ، وفي « القول المؤتلف في نسبة البيوت الخمسة للشرف »[٧] لجار الله بن فهد . ونسب هذه الأسرة كاملا في « ذيل التقييد »[٨] للتقي

---

(١) الفاسي ، العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٥٧.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٥٩ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٥٩٥.

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٤/ ص ١٥٠٨ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٢٦٢، ابن الجزري : غاية النهاية ، ج ١ / ص ٤٥١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٢٩١ ، أنباء الغمر ، ج ١ / ص ١١٤.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٢٦٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٢٩١.

(٥) شفاء الغرام ، ص ح، المقدمة.

(٦) معجم الشيوخ ، ص ٢٤٤.

(٧) القول المؤتلف ، ورقة ٣ أ.

(٨) في ترجمة التقي الفاسي هو : محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن علي بن عبد الرحمن بن سعيد بن عبد الملك بن سعيد بن أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علي بن حمزة ابن ميمون بن إبراهيم بن علي بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (الفاسي، ذيل التقييد ،ج ١/ ص١٠٠ – ص ١٠١).

الفاسي. وأول من نزل مكة من هذه الأسرة محمد بن محمد بن عبد الرحمن (ت٧١٩هـ/١٣١٩م)[١] ، وذلك في سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م ، مستوطنا بها ، وقد كان قد سمع بمصر وغيرها قبل ذلك[٢] . وابنه محمد (ت ٧٤٧هـ/١٣٤٦م)[٣] ، الذي سمع بمكة على شيوخها والقادمين إليها ، ورحل مع والده إلى مصر فسمع بها وبالإسكندرية ، وكذلك بدمشق ، وغالب مسموعاته كتب الحديث ، وحدّث وروى عنه كثير من العلماء [٤] ، وأخيه علي (ت ٧٦٩هـ/١٣٦٧م)[٥] . الذي توقف في التحديث بمكة في حياة الشيخ خليل القسطلاني ، اجلالاً واحتراماً لشيخه ، ويقول : وهو أولى بذلك ، سمع منه الحافظان العراقي والهيثمي ، ودرّس بالحرم المكي الشريف [٦] . وكذلك أبو الفتح ولي الدين محمد بن أحمد بن محمد (ت ٧٩٦هـ/١٣٩٣م)[٧] ، الذي سمع بمكة والمدينة، وأجاز له من دمشق ومصر خلق كثير [٨] ، وحدّث من بعده أبو زيد عبدالرحمن بن أبي الخير محمد بن محمد (ت٨٠٥هـ/١٤٠٢م) [٩] ، وكان شيخ المالكية بمكة، قرأ عليه التقي الفاسي « الموطأ » وغيره ، وكان جيد المعرفة بالفقه ، وله مشاركة في غيره من فنون العلم. وهو من شيوخ التقي الفاسي الآذنين له في الافتاء والتدريس[١٠] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٢٩٨ ، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٣٨٨ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ / ص ١٨١.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٢٩٨ ، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٣٨٨.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٣٤ ، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٤٢٧.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٣٤ .

(٥) ن . م . س ، ج ٦/ص ٢٣٦.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦/ص ٢٣٦.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١/ص ٣٨٣، ذيل التقييد ، ج١/ص ١٣٩ ، النجم بن فهد: اتحاف الورى ، ج٣/ص ٣٩٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦/ص ٣٤٦.

(٨) الفاسي : ذيل التقييد ، ج ١/ص ١٣٩.

(٩) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥/ص ٤٠٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٤/ص ١٤٩.

(١٠) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥/ص ٤٠٨، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٤/ص ١٤٩.

أما أبو العباس الشهاب أحمد بن علي، والد التقي الفاسي (ت ٨١٩هـ/١٤١٦م)[١]، فقد عني بالعلم، ومهر في عدة فنون، خصوصًا في الأدب، وتقدم في معرفة الأحكام والوثائق، ودرّس وأفتى، وله مشاركة قليلة في الإسماع، فقد حدّث وسمع منه ولده التقي الفاسي[٢]. وأما نجم الدين عبداللطيف بن أحمد ولد الشهاب وأخو التقي الفاسي (ت ٨٢٢هـ/١٤١٩م)[٣]، فقد سمع كثيراً مع أخيه بمكة والمدينة، والقاهرة، ودمشق، واليمن، وكان يدرّس ويفتي بالحرم المكي الشريف، واعتنى بعلوم الأصلين والفقه والتفسير والعربية، والبيان والمنطق، وولي التدريس بمدارس مكة ومصر[٤]. ومن المشاركين أيضا في التدريس والتحديث، أبو عبد الله محمد بن عبدالرحمن (ت٨٢٣هـ/١٤٢٠م)[٥] الذي حدث عن بعض شيوخه بالإجازة، وكانت له عناية بالفقه[٦].

وأشهر علماء هذه الأسرة: محمد بن أحمد بن علي بن محمد الحسني، تقي الدين الفاسي المكي المالكي (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م)[٧]، قاضي المالكية بمكة، ومؤرخها، ومحي معالمها، وموضح مجاهلها، ومجدد مآثرها، ومترجم أعيانها، سمع على كثير من العلماء

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ١٠٩، ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣/ص ١٠٤، السخاوي: التحفة اللطيفة، ج ١/ص ٢٠٦، الضوء اللامع، ج ٢/ص ٣٥.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ج ٣/ص ١٠٩، ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣/ص ١٠٤

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ج ٥/ص ٤٨٢، ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣/ص ٢٠٧، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤/ص ٣٢٢، التحفة اللطيفة، ج ٣/ص ٦٤، الداودي: طبقات المفسرين، ج ١/ص ٣٤٦.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٤، ص ٣٢٢ - ص ٣٢٣.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ج ٢/ص ١١٣، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٨/ص ٤٠.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ج ٢/ص ١١٣، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٨/ص ٤٠.

(٧) انظر ترجمته في: الفاسي: العقد الثمين، ج ١/ص ٣٣١، ذيل التقييد، ص ١٠٠- ص١١٩، ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ص ٤٢٩، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٧/ص ١٨، التحفة اللطيفة، ج٣/ص ٤٨٨، ابن القاضي: درة الحجال، ج ٢/ص ٢٨٠، ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧/ص ١٩٩، الشوكاني: البدر الطالع، ج٢/ص ١١٤.

بمكة والقادمين إليها ، خاصة علم الحديث ، والفقه المالكي ، وأصوله ، والعربية ، ورحل إلى معظم مدن العالم الإسلامي آنذاك ، وسمع على أعظم علماء هذا العصر ، مثل : ابن حجر ، والبلقيني ، وابن الملقن ، والهيثمي ، وقد أطال تقي الدين الفاسي في ذكر مشايخه وسماعاته في كتابه « العقد الثمين[١] » في ترجمته لنفسه ، وقد بلغ عدد شيوخه بالسماع والإجازة نحو الخمسمائة[٢] . وأذن له في التحديث والتدريس والإفتاء ، وفي سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م ، تولي قضاء المالكية استقلالاً – وهو أول من تولاها مستقلاً بمكة – من قبل السلطان الناصر فرج بن برقوق[٣] ، واستمر في هذا المنصب نحواً من عشرين سنة ، – ثم صرف[٤] ، ثم أعيد[٥] ، ثم صرف ، واستمر معزولاً حتى مات[٦] . وقد اعتنى التقي الفاسي بعلمي الحديث والتاريخ أتم عناية ، وكتب الكثير ، وأفاد ، أخذ عنه عامة الناس ، والطلبة ، وانتفعوا به ، وكان يملي من حفظه المجلدات في معرفة أسماء الرجال وتراجمهم ، وطبقاتهم . وأما التواريخ ، فكان يسردها سرد الفاتحة لا يتلعثم في ذلك[٧] ، ودرّس وأفتى وحدّث بالحرمين ، والقاهرة ، ودمشق ، وبلاد اليمن بجملة من مروياته ومؤلفاته ، وممن أخذ عنه : الجمال المراكشي ، وابن حجر العسقلاني ، والتقي بن فهد ، وقد أخذ عنهم كذلك[٨] . وقد خلف لنا التقي الفاسي جملة من مؤلفاته في الحديث والتاريخ والسيرة ، والفقه ، وقد قرض له غير واحد بعض تصانيفه ، وخاصة المتعلقة بتاريخ مكة وتراجم أعيانها[٩] . ويعتبر الفاسي رائداً من رواد المؤرخين لمكة المكرمة بعد الأزرقي والفاكهي ، واعتمد عليه كل من جاء

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١/ص ٣٣١ – ص ٣٦٩.

(٢) ن.م.س. ، ج ١/ص ٣٤٠.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١/ص ٣٣٨، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧/ص ١٩.

(٤) النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣/ص ٦٢٦، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧/ص ١٩.

(٥) النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣/ص ٦٣٥.

(٦) النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٤/ص ٤٧.

(٧) التقي بن فهد : لحظ الإلحاظ، ص ٢٢.

(٨) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١١، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧/ص ١٩.

(٩) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١/ص ٣٤٨ – ص ٣٥٠.

بعده ممن ألّف في مكة وتاريخها كأبناء فهد الهاشميين ، فلولاه لأندرست جملة كبيرة من أخبار مكة وتراجم علمائها.

ومن المشاركين أيضًا في هذه النهضة العلمية من هذه الأسرة. عبداللطيف بن محمد بن أحمد (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م)(١) ، الذي ولي قضاء الحنابلة بمكة، ثم جمع له قضاء الحرمين ، فكان أول حنبلي انفرد بقضاء كل منهما(٢) . ثم خلفه ابنه عبدالقادر والملقب بمحي الدين (ت٨٩٨هـ/١٤٩٢م)(٣) . الذي أجيز من علماء مصر والشام ، ودرّس بمدارس مكة(٤) .

والواقع أنه كان لهذه الأسرة دور كبير في إثراء الحياة العلمية في الحجاز ، خاصة علوم الحد يث ، والفقه ، والتاريخ. ويكفي أنها أنجبت لنا التقي الفاسي. ولعل هذه الأسرة انقرضت بعد عصر المماليك، إذ لم تذكر المصادر المتخصصة واحداً من أفراد هذه الأسرة بعد هذا العصر.

أسرة بن ظهيرة:

ألف لهم النجم بن فهد كتابه « المشارق المنيرة في ذكر بني ظهيرة » ، وقد نقل عنه السخاوي كثيراً من تراجم هذه الأسرة في مؤلفه « الضوء اللامع »، وتعدّ من أكبر الأسر المكية عدداً في العصر المملوكي، وهي قرشية الأصل مخزومية يرجع نسبها إلى الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي ، ومن أبناء هذه الأسرة عطية بن ظهيرة بن

---

(١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٤٤، الدر الكمين ، ورقة ١٣٦ أ - ورقة ١٣٦ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤/ص٣٣٣، التبر المسبوك ، ص ٢٨١، التحفة اللطيفة ، ج ٣/ص ٦٠٨، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧/ص ٢٧٧.

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٤٤، الدر الكمين ، ورقة ١٣٦ ب.

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤/ص ٢٧٣، التحفة اللطيفة ، ج ٢/ص ٥١، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧/ص ٣٦١.

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤/ص ٢٧٣.

مرزوق القرشي المخزومي (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م)[١]، الذي لم يعرف بالعلم وقد رزق بعشرة من الأبناء لم يعرفوا جميعًا بالعلم سوى اثنين. لمحمد ، حيث ترجم الفاسي لإبراهيم بن عطية بن محمد بن عطية بن ظهيرة المخزومي القرشي (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م)[٢] ، وهو حفيد محمد بن عطية، أجاز له علماء دمشق ولم يحدّث[٣]. ولأحمد ، وهو الذي تنحدر منه أبناء هذه الأسرة ، فقد رزق أربعة من الأبناء ، هم : ظهيرة ، وعلي ، ومحمد و عبدالكريم ، كان لجميعهم أولاد ، ومنهم تفرعت هذه الأسرة[٤]، ومن أشهر علماء هذه الأسرة : قاضي مكة وخطيبها ، أبو العباس أحمد بن ظهيرة بن أحمد بن عطية (ت ٧٩٢هـ/١٣٨٩م)[٥] ، الذي سمع كثيراً من كتب الحديث بمكة ، ثم بالقاهره ، كما أجاز له علماؤها ، وقد أقرأ ودرّس، وأفتى وحدّث ، وانتفع به الناس ، وممن سمع منه ابن أخيه الجمال أبو حامد بن ظهيرة، وجماعة من شيوخ وأصحاب التقي الفاسي[٦]، كما كان أخوه عبدالله بن ظهيرة (ت٧٩٤هـ/ ١٣٩١م)[٧]، مشاركًا له أيضًا في بذل أوقاته لنشر العلم، وحدّث ببعض كتب السنن[٨].

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦/ص ١٠٧.

(٢) ن·م·س· ، ج ٢/ص ٢٣٢، السخاوي : التحفة اللطيفة، ح ١/ص ٤٢٨.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣/ ص ٢٣٢ .

(٤) ن·م·س· ، ج ٣/ ص ٩٧.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣/ص ٥٢، ابن حجر : الدر الكامنة ، ج ١/ص ١٤٣، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦/ص ٣٢٢.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣/ص ٥٢ ص ٥٣ ، ابن حجر : الدر الكامنة ، ج ١/ص ١٤٣، ابن العماد: شذرات الذهب ، ج ٦/٣٢٢.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥/ص ١٨٣، ابن حجر : الدر الكامنة ، ج ٢/ص ٢٦٤، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦/ ص٣٣٣.

(٨) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥/ص ١٨٤.

أما أشهر علماء أسرة بني ظهيرة فهو : محمد بن عبدالله بن ظهيرة بن أحمد القرشي المكي (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م)[١]، أبو حامد جمال الدين ، قاضي مكة وخطيبها ومفتيها ، سمع على كثير من العلماء من أهل مكة والقادمين إليها ، ورحل في طلب الحديث والعلم ، فسمع بمصر ، ودمشق ، والاسكندرية ، وغيرها من البلدان الإسلامية. كما اجتهد في علوم أخري وحصّل فيها ، كعلم القراءات والعربية ، والفقه ، وأصوله ، وله مشاركة حسنة في غير ذلك من العلوم ، ولشدة حرصه واهتمامه بتحصيل الحديث ، أذن له غير واحد من أجلّة المحدثين بالتحديث والتدريس، كما أذن له بالإفتاء والعربية، وأصول الفقه ، ويكفي شهادة العالمين : زين الدين العراقي ، وسراج الدين البلقيني، لأبي حامد بن ظهيرة ومكانته العلمية[٢]. ثم تصدّى بعد السبعين وسبعمائة لنشر العلم ، وبثّه بين أهله والراغبين فيه ، فحدّث بكثير من مروياته ومسموعاته ، وأقام في ذلك نحو أربعين سنة. وازدحم عليه الطلبة من أهل مكة والقادمين إليها، وقصد بالرحلة للسماع عليه والإنتفاع به ، وقد سمع عليه عددٌ كبير من الطلبة[٣]، ومن أبرز السامعين عليه الحافظ ابن حجر ، وذلك في مجاورته سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٣م، وهو أول شيخ بحث عليه علم الحديث ، وقرأ عليه في «عمدة الأحكام»[٤]. كما تولى التدريس في المسجد الحرام وبعض المدارس بمكة ، وتولى من المناصب ، قضاء مكة ، ونظر الحرم ، والأوقاف والربط ، والحسبة، والإشراف على الأيتام ، وعليه بمكة دارت الفتوى فإنه كان فقيهًا شافعيًا إلى جانب كونه محدثًا[٥]، وقد

---

(١) انظر ترجمتة في : الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢/ص ٥٣، ذيل التقييد، ج ١/ص ٣٣٣- ص ٢٣٦، ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣/ص ١٤٥، ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ج ٤/ص ٣٨٣، ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج ٢/ ص ٦٤٥ ، التقي بن فهد : لحظ الإلحاظ ، ص ٢٥٣، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨/ص ٩٢، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٧/ص١٢٥.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢/ص ٥٤- ص ٥٥، ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ج ٤/ص ٨٤- ص ٣٨٣.

(٣) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ٤/ص ٣٨٤.

(٤) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٧١.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ /ص ٥٦ - ص ٥٨.

ذكره غير واحد من العلماء وبالغوا في الثناء عليه ، فقد وصفه الحافظ العراقي :« بالإمام العلامة المحدث المفيد»[١]، وذكر ابن قاضي شهبة « أنه كان يستحضر كثيراً من شرح مسلم فيما يتعلق بغريب الحديث والفقه»[٢]، وذكره التقي بن فهد فقال عنه « حافظ الحجاز وفقيهه وشيخ الإسلام به »[٣]. ولابن ظهيره مصنفات ، إلا أنها قليلة مقارنة بعلمه الواسع الذي تبوأ به مكانة عالية بين محدثي عصره ، وبين طلبة العلم فيه ، حتى صار علمًا من أعلامه يقصد للسماع عليه ، والاستفادة منه علمًا وخلقًا ، وهو نموذج للعالم العامل بعلمه. كما كان لقريبه ظهيرة بن حسين بن علي بن أحمد بن عطية (ت ٨١٩هـ/١٤١٦م)[٤]، نشاط لا بأس به في إحياء علم الحديث ، فقد سمع بمكة من شيوخ الحديث ، وأجاز له من مصر ودمشق ومكة جماعة ، وحدّث وسمع منه الحفاظ. منهم الحافظ ابن حجر[٥]. وابن أخيه الكمال أبوالبركات محمد بن محمد بن حسين (ت ٨٢٠هـ/١٤١٧م)[٦] مشاركة في التحديث ، فقد سمع منه الفضلاء كالنجم بن فهد وغيره[٧]. وكان للمحب أبي العباس أحمد بن محمد بن عبدالله ابن ظهيرة (ت ٨٢٧هـ/١٤٢٣م)[٨]، مشاركة في عدد من العلوم ، كالحديث ، والفقه ، والعربية ، والحساب والفلك ، والمنطق ، وقد تصدى لنشر العلم بالمسجد الحرام ، منذ سنة

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨/ص ٩٣.

(٢) طبقات الشافعية ، ج ٤/ص ٣٨٣.

(٣) لحظ الإلحاظ ، ص ٢٥٣.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥/ص ٤٤، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤/ص ١٥، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٧/ص ١٣٥، أبو الخير ، المختصر من كتاب نشر النور والزهر، ص ٢٢٧.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥/ص ٧٧ – ص ٧٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤/ص ١٥.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢/ص ٢٨٧، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩/ص ٧٧، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧/ص ١٤٨.

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩/ص ٧٧.

(٨) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣/ ص ١٣٩، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢/ص ١٣٤، ابن العماد: شذرات الذهب ، ج ٧/ص ١٧٧.

٨٠٩هـ/١٤٠٦م. وحضر دروسه جمع من أهل مكة والقادمين إليها ، وأثنوا على دروسه في الحرم المكي الشريف ، بالإضافة إلى تدريسه في المدارس[١]، وقد أثنى عليه ابن حجر فقال «قاضي مكة وابن قاضيها ، وابن مفتيها . كان ماهراً في الفقه والفرائض والحساب والفلك ، حسن السيرة في القضاء .... وخلت مكة بعده ممن يفتي فيها على مذهب الشافعي»[٢].
ولأبي الفضل الكمال محمد بن أحمد بن ظهيرة بن أحمد (ت ٨٢٩هـ/١٤٢٥م)[٣]، اشتغال في العلوم الشرعية ، فقد سمع من محدّثي مكة وعلمائها ثم رحل إلى دمشق فسمع هناك ، وأجاز له جماعة ، وحدَّث بكثير من مروياته[٤]. كما كان النجم محمد بن محمد بن محمد بن حسين (ت ٨٤٦هـ/١٤٤٢م)[٥]، مولعًا بعلم التاريخ ، وعلّق عليه إضافة إلى اشتغاله بعلم الحديث[٦].

ومن كبار علماء بني ظهيرة. بل شيخ بلاد الحجاز قاطبة ، والمنفرد بمكة في زمنه بمعرفه العلوم الشرعية ، الجلال أبي السعادات محمد بن محمد بن محمد بن حسين (ت٨٦١هـ/١٤٥٦م)[٧] ، انتفع به الطلبة كثيراً لا سيما في الفقه الشافعي ، وكذلك الحديث والتفسير ، كما انتفع به جمع من أهل المدينة حين أقام بها سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م ، وقرىء عليه البخاري وغير ذلك من الكتب الشرعية ، وأثنى عليه جمع من العلماء[٨]، وأخذ

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣/ص ١٣٩ - ص ١٤١.

(٢) إنباء الغمر ، ج ٣/ص ٣٣٢.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ،، ج ١/ص ٢٩٣، إنباء الغمر ، ج ٣/ص ٣٨٠، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦/ص ٣١٥، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧/ص ١٩١.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١/ص ٢٩٣، ابن حجر ، : انباء الغمر ، ج ٣/ص ٣٨٠.

(٥) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٧٥، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩/ص ٢١٧، السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك، (القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، بدون.ت.) .ص ٦٠

(٦) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٧٥، السخاوي : التبر المسبوك ، ص ٦٠ - ص ٦١.

(٧) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٧٦، الدر الكمين ، ورقة ٥٥ ب - ورقة ٥٦ أ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩/ ص ٢١٤، السيوطي : نظم العقيان ، ص ١٦٧.

(٨) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٧٦ - ص ٢٧٧، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٩/ص٢١٤.

عنه السخاوي بعضًا من مروياته بعلو جبل أبي قبيس وبالحجر. ووصفه فقال «كان إمامًا فقيهًا ذكيًا دقيق النظر، حسن البحث، جيد المشاركة والمذاكرة»(١). ثم خلفه من بعده ولده المحب أحمد(ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)(٢)، وقد أسمعه والده منذ صغره على عدد من علماء مكة والقادمين إليها إلا أنه لم يصل إلى مرتبة والده، وقد حضر السخاوي بعض مجالسه، ووصفه بأنه كان «فاضلاً فاهمًا جامد الحركة ناقص العبارة»(٣)، وقد درس، وحدّث، وأفتى، وصنف جزءاً ردّ فيه على ابن عمه الخطيب فخر الدين - أماكن من تصنيفه في الدماء الواجبة على الحاج(٤).

وكان في أسرة بني ظهيرة رجال يعدون من مفاخر مكة، أثنى عليهم القريب والبعيد وقد سبق منهم الجمال أبو حامد، والجلال أبو السعادات، وثالثهم هو البرهان إبراهيم بن علي بن محمد بن محمد بن حسين (ت ٨٩١هـ/١٤٨٦م)(٥)، عالم الحجاز ورئيسه، الذي سمع كثيراً بمكة والمدينة، والقاهرة، ودمشق، وحلب، وأجازه كثير من علماء تلك البلاد وأثنوا عليه، مثل ابن حجر. كما نقل السخاوي عنه ذلك(٦). وقد تصدى البرهان للإقراء بالمسجد الحرام، قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، وكان يحضر دروسه الفضلاء من سائر المذاهب. ومجالسه مشرقة بالنبلاء من أهل المشارق والمغارب، ولعلو باعه في التدريس والتحقيق لم يكن ينهض للمذاكرة معه إلا من هو في التحقيق وحسن النظر تام البصيرة، وكذا حدّث بالكتب الكبار، وكان يبديء فيها من الأبحاث ما يطول العجب منه(٧)، وممن

---

(١) الضـــوء اللامع، ج ٩/ص ٢١٤

(٢) ن.م.س، ج ٢/ص ١٩٠، النجم بن فهد : الدر الكمين، ورقة ٨٤ب

(٣) الضوء اللامع، ج ٢/ص ١٩٠

(٤) ن.م.س..، ج٢/ص ١٩٠.

(٥) النجم بن فهد : الدر الكمين، ورقة ٩٤ ب - ورقة ٩٥أ، السخاوي : الضوء اللامع، ج١/ص ٨٨- ص ٩٩، ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٧/ص ٣٥٠

(٦) الضـوء اللامع، ج ١/ص ٩٠ - ص٩١.

(٧) النجم بن فهد : الدر الكمين، ورقة ٩٤ ب- ورقة ٩٥أ، السخاوي : الضـوء اللامع، ج١٠/ص٩٦.

أخذ عنه أبوالكرم بن أحمد بن محمد التونسي المغربي الذي أقام بمكة سنتي ٨٨٢هـ/١٤٧٧م ـ ٨٨٣هـ/١٤٧٨م، وذلك من تحديثه في البخاري والشفا[١]. ثم خلّف البرهان ولده الجمال أبو السعود محمد (ت ٩٠٧هـ/١٥٠١م) [٢]، وكان والده قد اعتنى به ودربه ، فأحضره مجالس الحديث ، وأسمعه واستجاز له ، وكان قارىء الحديث بين يديه ، قرأ كثيراً بنفسه ، وسمع ، وأجاز له خلق من المسندين المعتبرين من أهل الحرمين ، وبيت المقدس ، والخليل ، ومصر ، والقاهرة ، ودمشق وغيرها من بلاد الشام، وأصبح بعد أبيه عالم الحجاز ورئيسه ، وقرأ عليه السخاوي شرحه للألفيه قراءة متقنة. وتصدى الجمال للإقراء في الفقه والعربية والأصلين، والمعاني والبيان والحديث بالمسجد الحرام وغيره. وحدّث بكتب الحديث وباشر وظائفه، في بعض المدارس بمكة[٣].

وتميز خير الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن حسين (ت ٩١٠هـ/١٥٠٤م)[٤]، بالعربية وعلومها وله في ذلك مؤلفات ومصنفات ، ومشاركة في الحديث ، حيث حدّث « بسنن ابن ماجه»[٥].

كما كان هناك عدد من هذه الأسرة لم يكن لها نشاط في إحياء ودفع عجلة التعليم خاصة العلوم الشرعية ، فلم يذكر في تراجمهم أنهم حدثوا ، بل انهم حصلوا على إجازات من

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١١/ص ١٤١.

(٢) ن ، م ، س ، ج ٦/ص ٢٦٤ - ص ٢٧١، ابن الديبع: الفضل المزيد ، تحقيق شلحد ، ص ٢٧٠ - ص ٢٧١، الجزيري : الدرر الفرائد المنظمة ، ج ٢/ص ٧٨٥، أبوالخير : المختصر من كتاب نشر النور والزهر، ص ١٦٢.

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ،ج ٦/ ص ٢٦٧ - ص٢٧١.

(٤) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٦٢ ب ـ ورقة ٦٣أ ، السخاوي : الضوء اللامع، ج ٩/ص٢٧٩، العز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٥٣أ.

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩/ص ٢٧٩ ـ ص٢٨٠.

علماء عصرهم في تلك الفترة[1].

تلك هي جهود أسرة بني ظهيرة في مكة المكرمة، وقد استمر نشاط هذه الأسرة في كافة فنون العلم بعد عصر المماليك إلى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الهجري[2]. فقد ترجم صاحب «المختصر من نشر النور والزهر» لمحمد بن يحي بن ظهيرة المكي القرشي مفتي الحنابلة بها (ت ١٢٧١هـ/١٨٥٥م)[3] وقال: «هو آخر بيت ظهيره مفا تي مكة وقضاتها»[4] وبذلك تكون هذه الأسرة قد خدمت العلم بمكة لمدة ستة قرون.

أسرة النُّوَيْرِي[5]:

يرجع نسب هذه الأسرة إلى عقيل بن أبي طالب[6]. وأول من قدم منها مكة هو

---

(١) منهم: علي بن محمد (ت ٨٤٤ هـ/١٤٤٠م)، النجم بن فهد: معجم الشيوخ، ص ١٨٤، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٦/ص ٩، وعبد الله بن أبي بكر (ت ٨٥٨هـ/١٤٥٤م)، النجم بن فهد: معجم الشيوخ، ص ٣٦٧، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٥/ص ١٥، ومحمد بن محمد بن محمد بن حسين رضي الدين (ت ٨٧٧هـ/١٤٧٢م)، النجم بن فهد: معجم الشيوخ، ص ٣٩٣، السخاوي: الضوء اللامع، ج٩/ص ٢١٧، وولي الدين محمد (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م)، السخاوي: الضوء اللامع، ج٩/ص ٢١٧.

(٢) من الأسماء الشهيرة في أسرة بني ظهيرة بعد عصر المماليك، أبو السعادات (ت ٩٢٥هـ/١٥١٩م)، الغزي: الكواكب السائرة، ج ١/ص١٢١، وصلاح الدين محمد أبي السعود (ت٩٢٧هـ/١٤٨٥م)، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٨/ص ٢٩٩، الغزي: الكواكب السائرة، ج١/ص٢٩.

(٣) المختصر من كتاب نشر النور والزهر، ص ٤٦٠

(٤) ن.م.س.، ص ٤٦٠.

(٥) نسبة إلى نويرة: بضم النون وفتح الواو ثم ياء ساكنة، تصغير نورة، ناحية بمصر، وهي: بلدة مشهورة من صعيد مصر الأدني، كانت باسم الأمير تغري بردي ابن الجاي ومساحتها ٢٦٠٠ فدان (ابن الجيعان، شهاب الدين أحمد: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، (القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٤م/١٣٩٤هـ)، ص ١٦٢، ياقوت: معجم البلدان: ج ٥/ص ٣١٢، المنذري: زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي: التكملة لوفيات النقلة، الطبعة الثانية (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م/١٤٠١هـ)، ج٣/ص ٤٨٨).

(٦) النجم بن فهد: معجم الشيوخ، ص ٢٣١.

أحمد بن عبد العزيز بن القاسم بن عبد الرحمن العقيلي الجزولي (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م)[١]، ومن ولديه محمد، وعلي تعاقبت هذه الأسرة لخدمة العلم. أما محمد بن أحمد كمال الدين أبو الفضل (ت٧٨٦هـ/١٣٨٤م)[٢]، قاضي مكة وخطيبها وعالمها، فقد سمع بمكة والمدينة، ورحل في طلب الحديث، فسمع بدمشق على حافظ وقته أبو الحجاج المزي (ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م)[٣]، وقد نال الكمال نصيبًا وافراً من العلم اشتهر به، وذاع صيته، وصار المنظور إليه بالحجاز كله، وقد درّس وأفتي، وحدّث، وناظر، وتولى عدة وظائف بمكة لم تجتمع لأحد قبله. فقد ولي قضاء مكة، وخطابة الحرم ونظره، وحسبة مكة، وتولى التدريس في مدارسها. إلى أن مات، وقد خلف عشرة أولاد من الإناث والذكور[٤]، ثم خلفه أخوه نور الدين علي (ت ٧٩٨هـ/١٣٩٥م)[٥]، وقد سمع كثيراً مع أخيه أبي الفضل، وأجازه جملة من علماء دمشق، والقدس، والقاهرة، وحدّث بالحرمين، وولي قضاء مكة وإمامة المالكية بالحرم[٦]. ومن المشاركين أيضًا في النهضة العلمية بالحجاز من هذه الأسرة. المحب أبو البركات أحمد بن محمد (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م)[٧]، أجاز

---

(١) الفاسي : العقد الثمين، ج٣/ص ٧٨، ابن حجر : الدرر الكامنة، ج١/ص ١٧٣، السخاوي : التحفة اللطيفة، ج١/ص ١٨٦.

(٢) الفاسي : العقد الثمين، ج ١/ص ٣٠٠، ابن حجر : الدرر الكامنة، ج ٣/ص ٣٢٧، انباء الغمر، ج ١/ص ٢٩٦، السخاوي : التحفة اللطيفة، ج ٣/ص ٤٧٤.

(٣) هو العالم الحافظ محدث الشام جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف القضاعي، ونشأ بالمزة، ورحل وسمع الكثير، وصنف «تهذيب الكمال»، «الأطراف». (الذهبي :تذكرة الحفاظ، ج ٤/ص١٤٩٨، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج ١٠/ص ٧٦، السيوطي : طبقات الحفاظ، الطبعة الأولي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ٥٢١، ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٦/ص ١٣٦.

(٤) الفاسي : العقد الثمين، ج ١/ص ٣٠٠ - ص ٣٠٤.

(٥) الفاسي : العقد الثمين، ج ٦/ص ١٣٢، ابن حجر : الدر الكامنة، ج ٣/ص ١٧، السخاوي : الضوء اللامع، ج ٣/ص ٢١٤.

(٦) الفاسي : العقد الثمين، ج ٦/ص ١٣٢ - ص ١٣٣.

(٧) ن. م. س. ج ٣/ص ١٢٣، ابن حجر : الدرر الكامنة، ج ١/ص ٢٤٤، إنباء الغمر، ج١/ص ٥٣٢، ابن تغري بردي : المنهل الصافي، ج ٢/ص ٨٥ - ص ٨٦، السخاوي : التحفة اللطيفة، ج١/ص ٢٢١.

له جماعة من أهل مكة وغيرها وسمع الكثير ، وقرأ ، واشتغل وبرع في الفقه وغيره ، وأفتى ودرّس ، وولى قضاء الحرمين وخطابتهما[1] ، وقد درَّب المحب ابنه محمد ، على جميع ما تولاه ، وكان ولده العز (ت ٨٢٠هـ/١٤١٧م)[2] ، قد سمع بالمدينة بعناية أبيه بعد موته ، وهو ممن سمّع على ابن حجر بمكة «النخبة» سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م[3] ، وبعد وفاة النور علي خلفه ابنه عبد العزيز (ت ٨٢٥هـ/١٤٢١م)[4] ، في التدريس والإفتاء ، وهو ممن تردد لليمن مرات ، وولي قضاء تعز فيها عدة مرات ، وكان شغوفًا بمعرفة الفقه على مذهب الإمام الشافعي[5] .

ولأبي اليمن الأمين محمد بن أبي الخير محمد بن علي (ت ٨٥٣هـ / ١٤٤٩م)[6] ، نشاط في الحديث وتدريسه ، فقد حدّث بمكة وبالقاهرة ، حيث تردد إليها وسمع من الفضلاء وأجاز للسخاوي[7] . وممن كان له وجاهة ومكانة كبيرة من أفراد هذه الأسرة ، الكمال محمد بن محمد بن أحمد بن محمد (ت ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م)[8] ، فقد سمع كثيرا بمكة والقاهرة

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣/ص ١٢٤ - ص١٢٥.

(٢) ن٠م٠س ، ج ١/ص ٣٧١، ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٣/ص٠ ١٥٠، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧/ص ٤٢ - ص ٤٥، التحفة اللطيفة ، ج ٣/ص ٣٩٥، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧/ص ١٤٧.

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج ٣/ص ١٥٠.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥/ص ٤٥٢، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤/ص ٢٢١.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥/ص ٤٥٣ - ص ٤٥٤.

(٦) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٦٩ ، الدر الكمين ، ورقة ٥٤ أ- ورقة ٥٥ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ١٤٣ ، التبر المسبوك ، ص ٢٩٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٧/ص ٢٧٨.

(٧) السخاوي : التبر المسبوك ، ص ٢٩٠ - ص ٢٩١ ، الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ١٤٣ - ص ١٤٤.

(٨) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٤٩ أ - ورقة ٤٩ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٩/ص٣١.

وأجيز من خلق من علماء البلدين[1] . وفي هذه الفترة أيضا كان من هذه الأسرة من يميل إليه حافظ مصر ابن حجر ، ويصفه بأنه مفخرة أهل عصره في مصر وهو : نور الدين علي بن محمد ولد أبي اليمن (ت ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م)[2]، فقد أجاز له شيوخ بلده وشيوخ دمشق والقاهرة ، وقرأ على ابن حجر كثيرا من مصنفات الحديث رواية ودراية ، وأذن له في الإقراء أكثر من مرة[3].

والجدير بالذكر أن معظم أفراد هذه الأسرة تولوا التدريس في المدارس بمكة حتى أصبحت وراثية بينهم.

أسرة ابن فهد:[4]

تنسب هذه الأسرة إلى محمد بن الحنفية نجل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويتضح ذلك من خلال ما ذكره السخاوي في ترجمة نجم الدين بن فهد[5]. وأقدم من عرف من هذه الأسرة : جمال الدين محمد بن عبد الله (ت ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م)[6]، وله أخ إسمه حسن (ت ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م)[7]، ولم يذكر له عقب ، ولم يكن له اشتغال بالعلم.

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٣١ - ص ٣٢.

(٢) ن . م . س ، ج ٦ / ص ١٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٣٣٥.

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ١٢ - ص ١٣.

(٤) كتب عن مشاهير هذه الأسرة ، محمد الزاهي في مقدمته لكتاب « معجم الشيوخ » و الشيخ حمد الجاسر في مقدمته لكتاب « حسن القرى » المنشور في مجلة العرب ، عدد رجب وشعبان لسنة ١٤٠٣هـ . والدكتور ناصر الرشيد في مجلة العرب ، العدد ١١ ، ١٢ ، لسنة ١٣٩٧هـ بعنوان « بنو فهد مؤرخوا مكة » ، وكذلك محمد سعيد كمال في مقدمته لكتاب «تحفة اللطائف في فضل الحبر ابن عباس ووج والطائف» ، وكذلك إبراهيم حمود المشيقح في تحقيقه لجزء من كتاب « الدر الكمين » حيث ذكر نسبهم.

(٥) الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٢٣١.

(٦) الفاسي: العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٧٩ ، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٢٤٤ ، ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج ٦ / ص ٦٤٦ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٢ / ص ٢٠٧.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ / ص ٨٢ .

وقد نبغ من هذه الأسرة المثقفة عدد من الحفاظ والمحدثين والمؤرخين ، حملوا راية العلم وتواصوا على خدمة السنة الشريفة ، قال الكتاني : « وأنت إذا تأملت قلّ أن تجد في بيت في الإسلام أربعة من الحفاظ في سلسلة واحدة من بيت واحد يتوارثون الحفظ والإسناد غير هذا البيت العظيم »[1] ولم يعرف أحد من هذه الأسرة في بداية العصر المملوكي غير ما ذكره ابن حجر في ترجمة أحمد بن عمر بن محمد الكازروني « أنه حدّث « المسلسل بالأولية » عن جمال الدين محمد بن عبد الله بن فهد القرشي المكي بشرطه عن الفخر عثمان بن محمد التوزري »[2] . ولجمال الدين من الأولاد محمد ، وأحمد ، ويحيى ، وأم كلثوم ، ولم ينجب أحد منهم سوى محمد فأنجب نجم الدين محمد بن محمد بن محمد (ت٨١١هـ/١٤٠٨م)[3] ، الذي ولد بمكة ، ثم رحل إلى القاهرة ، وأقام بأصفون[4] ، ثم عاد إلى مكة ، وقد أجاز له عدة مشايخ من الشام ومصر والإسكندرية ، وحدّث ، وأخذ عن العز بن جماعة[5] ، وهو والد التقي بن فهد ، ومنهم أيضا أبو زرعة محمد بن التقي وأخو النجم (ت٨٢٦هـ /١٤٢٢م)[6] ، اعتنى به والده فأستجاز له عدد من مشايخ بلده ، ومن مشايخ مصر والشام

---

(١) فهرس الفهارس ، ج ٢ / ص ٩١٢.

(٢) الدرر الكامنة ، ج ١ / ص ٢٣١.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٣٤ ، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٤٢٦ ، ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٢ / ص ٤١٦ ، ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج ٢ / ص ٧٠١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٢٣١.

(٤) أصُفونْ : بضم الفاء وسكون الواو ، ونون : قرية بالصعيد الأعلى على شاطئ غربي النيل تحت إسنا وهي على تل عال مشرف (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ / ص ٢١٢)

(٥) هو الحافظ الإمام القاضي عز الدين أبو عمر عبد العزيز ابن قاضي القضاة ، بدر الدين إبراهيم بن سعد الله الكناني الحموي الأصل ، الدمشقي المولد ، ثم المصري الشافعي ، ولد سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م ، وسمع على كثير من العلماء ، وله تصانيف منها « تخريج أحاديث الرافعي » و « المناسك الكبرى » و « الصغرى » ، وتوفي سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م (انظر ترجمته في ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢/ص ٣٧٨ ، السيوطي : ذيل تذكرة الحفاظ ، ص ٣٦٣ ، طبقات الحفاظ ، ص ٥٣٥ - ص ٥٣٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ / ص ٢٠٨).

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٤٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١١ / ص ١١١.

والإسكندرية ، وتخرّج بوالده ، وعلى الرغم من أنه توفي في الثامنة عشر من عمره ، إلا أنه جمع رباعيات مسلم ، ومناقب الإمام الشافعي ، ومعجما لشيوخه ، عاجلته المنية عن تبييضها[1].

ومن أشهر علماء هذه الأسرة : محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن فهد الهاشمي، يلقب بتقي الدين ، ويكنى بأبي الفضل (ت ٨٧١هـ / ١٤٦٦م)[2] وأخذ العلم عن كثير من علماء مكة والقادمين إليها ، ورحل إلى اليمن وأخذ عن علمائها ، وأجاز له جماعة من العلماء من مصر والشام وأكثر من ملازمة الشيخين الجمال بن ظهيرة ، والخليل الأقفهسي (ت٨٢١هـ / ١٤١٨م)[3]، وانتفع بهما في الحديث والفقه ، وحبه لعلم الحديث دفعه إلى تربية أولاده على طلبه فأسمعهم منذ صغرهم ذكوراً وإناثًا ، فقد ذكر الشمس ابن الجزري في خاتمة كتابه « المصعد لأحمد في ختم مسند الإمام أحمد » أن التقي ابن فهد قرأ عليه جميع المسند كاملا ، وسمع بقراءته جمع غفير ، منهم أولاده : أبو بكر ، وعمر ، وأم هانئ ، وأم البنين ، وعثمان ، وسمعوه مرة أخرى بالمسجد الحرام سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٤م[4] ، وما زال التقي بن فهد يطلب الحديث وعلومه ، ويكد ويجتهد في طلبه حتى تميز فيه ، وعرف عاليه من نازله ، وشارك في فنون الأثر ، وكتب بخطه الكثير من الكتب ، وجمع المجاميع ، واختصر وانتقى ، وخرّج لنفسه ولشيوخه ممن بعدهم ، كما سمع « تاريخ المدينة » على أبي بكر المراغي بالمدينة المنورة ، وصار المعوّل إليه في هذا الشأن ببلاد الحجاز قاطبة من دون منازع ، وله الكثير من المؤلفات[5].

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٤٣ - ص ٣٤٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج١١/ص١١١.

(٢) انظر ترجمته في : النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٨٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٩/ص ٢٨١ ، السيوطي : نظم العقيان ، ص ١٧٠ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ / ص٢٥٩، البغدادي : هدية العارفين ، ج ٢ / ص ٢٠٥ ، الكتاني : فهرس الفهارس ، ج ١ / ص ٢٠٧ ، كحالة : معجم المؤلفين ، ج ١١ / ص ٢٩١ ، النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص١١ ، مقدمة المحقق محمد الزاهي ، ولناصر الرشيد بحث عن بني فهد في مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ج٢/ص٦٩ ، وله أيضا بحث في هذه الأسرة : مجلة العرب ، ج ١١ - ١٢ سنة ١٣٩٧هـ.

(٣) السيوطي : ذيل تذكرة الحفاظ ، ص ٣٧٥ ، وسوف يأتي الحديث عن إنتاجه العلمي .

(٤) انظر : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، شرح وتحقيق : أحمد شاكر ، (دار المعارف ، ١٣٧٧هـ) ، المقدمة وسماها طلائع الكتاب ، وأورد فيها كتاب ابن الجزري هذا ، ج ١ / ص ٥٥.

(٥) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٨٣ - ص ٢٨٤.

وكـان لعطيـة أخـو تقي الدين (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)[١] ، نشـاط ضئيل في خدمة الحديث فـقد حمل عنه السخاوي ، وأجاز لابن أخيه النجم ، وسمع على ابن حجر بمصر ، ثم أقام بمكة ملازما للنساخة لأبيه وأخيه النجم وغيرهما ، حتى كتب بخطه الكثير من الكتب الكبار « كفتح الباري » لابن حجر ، كتبه مرتين ، وتفسير ابن كثير ، وتاريخ ابن الأثير ، وشرح المنهاج للدميري ، ولأبي الفتح المراغي ، وكتب ما يفوق الوصف[٢]. ولا شك أن هذه الكتب التي نسخها قد استفاد منها طلبة العلم في الحرمين الشريفين ، وقد تكون في مكتبة والده أو أنها لديه ، أو أوقفها بأحد الأربطة أو المدارس في مكة . وقد حمل عنه السخاوي في مجاورته الأولى ، وحدّث باليسير من مروياته ، وكان إذا طلب منه التحديث بعد موت أخيه النجم يأبى ويبكي[٣] . ولم يذكر له مؤلفات.

أما عمر ابن فهد (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م)[٤] ، فقد اعتنى به والده وأسمعه الكثير علي مشايخ بلده والقادمين إليها فاستجاز له كثيراً من العلماء في السنوات الأولى من عمره، من مكة والمدينة ، والقدس ، والخليل ، والقاهرة ، ودمشق ، وحلب ، وحماه ، وحمص ، وبعلبك ، والإسكندرية ، وزبيد ، وتعز ، وغير ذلك من البلاد ، كما قام بعدة رحلات علمية إلى هذه البلدان ، وأخذ عن علمائها ، وحدّث بكثير من مروياته وبعض مؤلفاته ، وسمع عليه غير واحد من أهل مكة والقادمين إليها[٥] ، فممن أخذ عنه السخاوي سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م،

(١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٩١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١١ / ص ٩٢.

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٩٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١١ / ص ٩٢.

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١١ / ص ٩٢.

(٤) انظر ترجمته في : النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٩١ - ص ١٩٣ ، الدر الكمين ، ١٦١ ب، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ١٢٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٣٤٢ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١ / ص ٥١٢ ، البغدادي : هدية العارفين ، ج ١ / ص ٧٩٤، الكتاني : فهرس الفهارس ، ج ٢ / ص ٦٦٩.

(٥) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٩٢ - ص ١٩٣.

وقد أثنى عليه السخاوي كثيرا في مؤلفاته ووصفه « بمحدث الحجاز ومفيد الدنيا »[1] ، وإضافة إلى إهتمامه بعلم الحديث ، فقد خلف التقي الفاسي في تدوين تاريخ مكة ، وسار على منهجه ، كما اهتم بالأسر الشهيرة في بلده فأفرد لها تراجم شاملة ، إلا أنه أكثر في هذه التراجم من ذكر المهملين والأبناء ممن لم يعش إلا أشهرا ونحو ذلك . وألف مؤلفات عديدة في شتى أنواع المعرفة[2]. وبذلك يكون النجم عمر بن فهد هو الذي حمل راية الحديث بعد أبيه ، وقد فاق أخويه أبا زرعة وأبا بكر فإنهما لم يصلا إلى ما وصل إليه.

أما عبد العزيز بن عمر بن فهد (ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م)[3] عز الدين ، فقد كانت نشأته في بيت علم وشرف ، وتربى بعناية أبيه وجده ، حافظي مكة ، ونهل من علومهما وفوائدهما الكثير ، ثم جرى على سننهما وسنن المحدثين قبلهما ، وقام بعدة رحلات علمية ، وسمع على كثير من العلماء ، ورجع إلى مكة ، وقد ملأ جعبته علما ، وأقام بمكة ملازما للإشتغال في الحديث وعلومه ، وأذن له السخاوي وغيره من العلماء في الإفادة ، والتحديث وتدريس علوم الحديث والفقه والنحو ، ومن مشايخه في الحجاز مؤرخ المدينة نور الدين السمهودي ، والبرهان بن ظهيرة ، والنور الفاكهي ، وبلغ عدد مشايخه بالإجازة والسماع نحو ثلاثمائة نفس[4] ، وقد سمع علي العز بن فهد بمكة كثير من طلاب العلم ، إلا أن

---

(١) الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ١٢٧.

(٢) ن . م . س ، ج ٦ / ص ١٢٨.

(٣) انظر ترجمته في : السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٢٢٤ ، الغزي : الكواكب السائرة ، ج١/ ص ٢٣٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٨ / ص ١٠٠ ، البغدادي : هدية العارفين ، ج١/ص٥٨٣ ، الكتاني : فهرس الفهارس ، ج ٢ / ص ٧٥٤ ، وله ترجمة في مقدمة معجم الشيوخ، ومقدمة كتاب غاية المرام.

(٤) الكتاني : فهرس الفهارس ، ج ٢ / ص ٧٥٥ ، وأوردهم الحافظ أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيي الزبيدي في كتاب سماه « ذرة العز والمجد لمشايخ ابن فهد » وقد ذكر الكتاني في فهرس الفهارس ، ج ٢ / ص ٧٥٥ أن العز بن فهد أخذ في اليمن من إبراهيم الوزير صاحب « الزهر الباسم» وهذا خطأ لأن ولادة العز سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م ووفاة ابن الوزير سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م كما نص علي ذلك الكتاني نفسه ، ص ١١٢٤ ، فلا يصح إجتماعهما.

المترجمين له لم يعتنوا بإيراد أسمائهم ، عدا ما ذكره الغزي في ترجمته ، أن الشمس بن طولون (ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م)[١] ، سمع منه الحديث سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م بزيادة دار الندوة بمكة[٢].

ويبدو أن ولده جار الله قد سمع هو من أبيه وجده . وقد أثنى عليه السخاوي ، فقال : « وليس بعد أبيه ببلاد الحجاز من يدانيه في الحديث مع المشاركة في الفضائل وجودة الخط والفهم وجمال الهيئة ... وهو حسنة من حسنات بلاده »[٣] ، وقد سار العز سيرة أبيه وجده في التصنيف والتاريخ لبلده الأمين ، والترجمة لشيوخه وفهرسة مروياته ، ولم يكن له عناية كبيرة بالأدب وفنونه[٤].

ومؤلفاته في الحديث أيضا قليلة ، وبالجملة فهو وإن كان من المكثرين سماعا وشيوخا إلا أنه ليس منهم تأليفًا وتصنيفًا ، لكن مؤلفاته القليلة كبيرة الأهمية عظيمة النفع ، لما حوت من تاريخ للحوادث بمكة وتراجم رجالها لايزال المعول على الموجود منها إلى الآن.

وتعد جهود أسرة بني فهد ، في نشر الحديث وتأريخهم لمكة مفخرة من مفاخر علماء مكة في العصر المملوكي ، وظلت هذه الأسرة تؤدي دورها وخدماتها للعلوم الشرعية في أم القرى ، وتؤرخ للبلد الأمين ومعالمه وأعلامه إلي نهاية القرن العاشر الهجري ، وممن كان له ذكر

---

(١) هو أبو الفضل شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن علي بن حمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي ، من أعيان المؤرخين في القرن العاشر الهجري ، تولى كثير من الوظائف في دمشق ، وألف عدة مؤلفات منها « مفاكهة الخلان في حوادث الزمان » و «اللمعات البرقية في النكت التاريخية » . (ابن طولون : نقد الطالب ، ص ١٠ – ص ١١ ، المقدمة).

(٢) الكواكب السائرة ، ج ١ / ص ٢٣٨.

(٣) الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٢٢٦.

(٤) الغزي : الكواكب السائرة ، ج ١ / ص ٢٣٨.

بعد العصر المملوكي جار الله بن عبد العزيز بن النجم عمر بن فهد (٩٥٤هـ/١٥٤٧م)[١] ، الذي سار سيرة والده وجده وألف في تاريخ مكة[٢].

وقد ذكر الكتاني في ترجمة عبد الرحمن بن عبد القادر بن عبد العزيز بن فهد (ت٩٩٥هـ / ١٥٨٦م)[٣] بقوله : « ولعله آخر فقهاء ومسندي بني فهد بمكة المكرمة ، فإنه انقطع ذكرهم من بعد المترجم له في الفهارس والإثبات التي وقفت عليها »[٤].

وهكذا نرى أن هذه الأسرة ، رغم عددها القليل جدا ، مقارنة بالأسر العلمية الأخرى ، قد أدت دورا كبيراً في إثراء الحركة العلمية في الحجاز في العصر المملوكي.

أسرة المرشدي :

أول من قدم منها إلى مكة برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الوهاب الفوي[٥] المرشدي (ت ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م)[٦] ، وقد استوطن مكة نحو ثلاثين سنة وسمع بها على جماعة من شيوخها والقادمين إليها[٧] ، والعدد المترجم له من هذه الأسرة في عصر المماليك أربعة وثلاثين نفسا ، واشتهرت هذه الأسرة بريادتها في علوم اللغة العربية ، خاصة النحو ، ويغلب على هذه الأسرة الإنتساب إلى المذهب الحنفي وكانت تدافع عن ابن عربي

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ٥٢ ، الغزي : الكواكب السائرة ، ج ٢ / ص ١٣١، ابن العماد: شذرات الذهب ، ج ٨ / ص ٣٠١ ، البغدادي : هدية العارفين ، ج ٢ / ص ٢٤١ ، الكتاني : فهرس الفهارس ، ج ١ / ص ٢٩٦.

(٢) انظر الفصل الخاص بالإنتاج العلمي .

(٣) فهرس الفهارس ، ج ٢ / ص ٧٣٤.

(٤) ن . م . س ، ج ٢ / ص ٧٣٤.

(٥) نسبة إلى فُوّه من مصر : بضم الفاء وتشديد الواو ، بليدة على شاطئ النيل من نواحي مصر قرب رشيد ذات أسوار ونخيل (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ / ص ٢٨٠).

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٢٠٢ ، ابن حجر : انباء الغمر ، ج ١ / ص ٢٢٠.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٢٠٢.

(ت٦٣٨هـ / ١٢٤٠م)[١] ، وكانت آراؤه ما زالت بين معارض ومؤيد ، وقد كلم السخاوي بعض أبناء هذه الأسرة في حبهم لابن عربي وأراد أن يثنيهم عن هذا الحب فما استطاع[٢]، وكان لهذه الأسرة جهود لا بأس بها في خدمة العلم بالحجاز ، وقد خلف إبراهيم : محمد ، وأحمد ، وعبد الواحد ، وخديجة ، وزينب . فأما محمد (المولود سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م)[٣]، فقد سمع على كثير من العلماء ، ورحل إلي القاهرة أربع مرات للأخذ عن علمائها ، كما رحل إلي اليمن ، وصحب المجد الشيرازي صاحب القاموس ، وحفظ عنه اللغة[٥]. وأما أحمد ولقبه أبو العباس (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م)[٤]، فكان شافعي المذهب، سمع بمكة والقاهرة ، ودمشق ، وأجازله خلق ، واشتغل بعلم الحديث ، فسمع منه الفضلاء كالتقي بن فهد وولديه ، والبرهان بن ظهيرة[٦] . واشتهر عبد الواحد (ت ٨٣٨هـ /

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطائي الحاتمي المرسي المعروف بابن عربي، ولد في مرسية بالأندلس ، ورحل إلى مصر وبغداد والموصل وبلاد الروم والحجاز ، وأنكر عليه أهل مصر آراؤ ه ، ويعد من أشهر دعاة الصوفية والمتكلمين ، وله تصانيف عديدة ، منها «الفتوحات المكية » ، و« جامع الأحكام في معرفة الحلال والحرام » و « مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم » (انظر ترجمته في : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، الطبعة السابعة (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ، ج ٢٣ / ص ٤٨ ، المنذري : التكملة لوفيات النقلة ، ج ٤ / ص ٥٥٥ ، ابن الملقن سراج الدين عمر بن علي : طبقات الأولياء ، الطبعة الثانية . (بيروت ، دار المعرفة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ، ص ٤٦٩ - ص ٤٧٠).

(٢) الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٢٤٢.

(٣) مجهول : تاريخ المحمدين ، ورقة ١٣٧ ب .

(٤) ن . م . س ، ورقة ١٣٧ ب .

(٥) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٣ / ص ٤٢٣ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ / ص ١٩١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ١٩٨.

(٥) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٣ / ص ٤٢٣.

(٦) ن . م . س ، ج ٣ /ص ٥٥٩ ، النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٤٣ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ٩٣ ، ابن طولون : الغرف العلية ، ورقة ١٥٢ ب - ورقة ١٥٣ أ .

١٤٣٤م)[1]، بمهارته في اللغة العربية ، وفي الأصول ، والفقه ، ودرّس كثيراً من كتب النحو ، وأجيز في تدريسها ، ورحل إلي القاهرة فسمع من بعض شيوخها ، وكان إمامًا علامة في النحو ، وانتهت إليه رئاسة العربية بمكة ، ودرّس بمدارسها وانتفع به الطلبة ، ومن علمه الغزير ، وكان مشهوراً بجودة النظر ، والذكاء ، وحسن المناظرة والبحث[1] ، كما اهتم إبنه عبد الغني (ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م)[2] الملقب بنسيم الدين الحنفي ، بعلم الحديث ورحل في طلبه ، وأثنى عليه ابن حجر[3] ، والسخاوي[4]، كما برع في علم الأدب ، وله عدة تصانيف[5] . ومن هذه الأسرة ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحنفي (ت٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م)[6]، الذي طلب الحديث ، وقد أثنى عليه غير واحد من مشايخه ، منهم الزين العراقي ، وابن حجر ، والفيروزآبادي ، الذي لازمه كثيرا وانتفع به في اللغة ، وأخذ أبو عبد الله ينشر علم الحديث ببلده ، فحدّث ودرّس وأفتى ، وانتفع به جماعة من الفضلاء ، منهم : النجم بن فهد ، وأجاز لأولاد شيخه ابن حجر ، ولكثرة مشايخه سماعا وإجازة . خرج له الجمال المراكشي فهرسًا بالسماع والإجازة ، وخرّج له صلاح الدين الأقفهسي أربعين حديثا من طريق أربعين من الفقهاء الحنفية ، ولم يعب عليه ، إلا أنه كان محبا في ابن عربي[7] ، واقتفى أثر أبيه عبد الأول الجمال أبو الوقت الحنفي (ت ٨٧١هـ/١٤٦٦م)[8]، الذي نبغ

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٣ / ص ٥٥٩ ، النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٤٣ ب ، السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ / ص ١١٨.

(٢) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٣ / ص ٤٤٧ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٢٥١، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٢٠٣.

(٣) أنباء الغمر ، ج٣ / ص ٤٤٧.

(٤) الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٢٥٣.

(٥) ن . م . س ، ج ٤ / ص ٢٥٢ - ص ٢٥٣.

(٦) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٩٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٢٤١ ، ابن طولون : الغرف العلية ، ورقة ٢٠٧ ب - ورقة ٢٠٨ أ ، مجهول : تاريخ المحمدين ، ورقة ١٣٨أ.

(٧) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٩٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٢٤٢.

(٨) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٢١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧/ ص ٣١٦.

في العلوم اللغوية من صرف ونحو وبيان وبديع ، كما نبغ في الفقه وأصوله وعلم الكلام ، وسمع على أبيه « صحيح البخاري » وغيره ، وأجاز له جملة من علماء مكة والقاهرة ، ودمشق[١] ، وأخذ بالقاهرة عن ابن حجر من الحديث رواية ودراية ، وكان ابن حجر كثير الميل إليه والاصغاء له ، ووصفه « بالفاضل الباهر الأوحد مفيد الطالبين وفخر المدرسين » وأذن له في إفادة ما ألفه وأنشأه لمن أرادها منه[٢]. ومنهم أبوبكر بن أحمد بن إبراهيم ، الفخر الشافعي (ت ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م)[٣]، الذي كان شاعرا وأديبا لغويا ، غزير الحفظ لأيام العرب وأشعارها ، مع مشاركة في الطب واللغة ، وأجاز للسخاوي وللنجم بن فهد ، وكتب عنه البقاعي من شعره[٤].

تلك هي جهود أسرة المرشدي بمكة في نشر العلم والمعرفة ، والتي جعلت الكثير من العلماء يثنون عليهم ، وظلت هذه الأسرة تؤدي دورها حتى منتصف القرن الثاني عشر الهجري[٥].

أسرة الذروي[٦] :

هذه الأسرة من أقل البيوت المكية عددا وأقصرها زمنا ، إذ بلغ عدد المترجم لهم من هذه

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٢١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٣١٦.

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٢١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧/ ص ٣١٦.

(٣) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٠٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١١ / ص ١٥.

(٤) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٠٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١١ / ص ١٥.

(٥) انظر تراجم لهذه الأسرة في المحبي : خلاصة الأثر ، ج ٢ / ص ١٢٦ ، ج ٢ / ص ٣٦٩ ، ج ١ / ص ٢٦٦ ، ج ١ / ص ٤٢٤ ، وانظر كذلك : أبو الخير : المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، ترجمة ، عبد الرحمن بن عيسى المرشدي (ت ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م) ، ص ٢٥٠ ، وابنه حنيف الدين (ت ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م) ، ص ١٨٤ ، وأحمد بن عيسى المرشدي ، ص ١١٥ ، وإمام الدين المرشدي ، (ت ١٠٨٥هـ/١٦٧٤م) ، ص ١٣٣ ، وإسماعيل بن عيسى (ت ١١٣٨هـ/١٧٢٥م)، ص ١٣١ ، ومحمد بن إمام الدين (ت ١١٤٢هـ/١٧٢٩م) ، ص ٤٨١ – ص ٤٨٢ ، ولعله آخر أسرة المرشدي بمكة.

(٦) نسبة إلي الذروة من صعيد مصر (الفاسي : العقد الثمين ، ج ١/ ص ٤٢٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٨١).

الأسرة خمسة وعشرين نفسا ، وابتدأت هذه الأسرة بمكة في منتصف القرن الثامن إلى نهاية القرن التاسع ، كما يبدو ذلك من وفيات أفرادها ، وكان إهتمام هذه الأسرة بالقراءات ، والنحو ، وعلم الحديث ، إذ وصف أكثر من شخص منهم بأنه مقرئ أونحوي ، مع مشاركتهم واشتغالهم في علم الحديث ، وأصل هذه الأسرة من مصر ، وأول من قدم منهم مكة كما ذكر الفاسي : أبو بكر بن علي بن يوسف الذروي ، الملقب بفخر الدين ، والمعروف بالمصري (ت٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م)[١] ، وكان فراشا بالمسجد الحرام ، ولم يمنعه عمله من سماع العلم وطلبه ، فسمع على عدد من علماء مكة[٢] ، وقد خلف أبو بكر أربعة من الذكور كل واحد منهم يدعى محمد : فمحمد أبو الفضل (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م)[٣] ، سمع بمكة وبالقاهرة ، وكان حسن القراءة في الصلاة[٤] ، ومحمد الجمال المصري ، ومحمد النجم المرجاني و محمد الجمال المرشدي ، والثلاثة من شيوخ الحافظ بن حجر[٥].

قال السخاوي : « وقال شيخنا في معجمه : سمعت منه – أي الجمال المرشدي – قليلاً ببعض بلاد اليمن ، قال : « وهؤلاء الأخوة الثلاثة اشتهر كل منهم بنسبة غير نسبة الآخر ، أما الأكبر وهو المصري ، فنسبته حقيقية لأن في ذلك أصله ، وأما الأوسط ، وهو المرجاني فانتسب إلى بعض أجداده من قبل الأم ، وأما هذا فلا أدري لمن انتسب ، قلت – أي السخاوي – لقول الشيخ أحمد المرشدي لأبيه ، وأمه حامل به : هو ذكر فسمه محمد المرشدي »[٦].

أما محمد الجمال المصري (ت ٨٢٠هـ/١٤١٧م)[٧] ، فقد سمع بمكة على جماعة من

---

(١) العقد الثمين ، ج ٨ / ص ١٦ .

(٢) ن . م . س ، ج ٨ / ص ١٦.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٤٢٨.

(٤) ن . م . س ، ج ١ / ص ٤٢٨.

(٥) السخاوي : الجواهر والدرر ، ج ١ / ص ١٤٧.

(٦) الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٨٤.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٤٢٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٨١.

العلماء ، كما سافر إلى زبيد وسكنها مدة ، وتولى نظر أوقاف المدارس بمكة عدة سنين ، وحدّث ببعض مسموعاته ، وسمع منه الطلبة ، وخلف عشرين ولداً ذكرًا ، لم يشتهر منهم سوى أربعة ذكروا في كتب التراجم[١].

وأما محمد نجم الدين المرجاني (ت ٨٢٧هـ/١٤٢٣م)[٢]، فقد تميز في الفقه ومهر في العربية ومتعلقاتها بحيث لم يبق في الحجاز من يدانيه فيها ، ودرّس كثيرا من الطلبة في مكة[٣].

وأما الجمال المرشدي (ت ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م)[٤]، فقد سمع وحدّث ، وسمع منه الطلبة، واجتمع بابن حجر في اليمن وسمع عليه[٥] . ومن أسرة الذروي كذلك ، محمد بن نجم الدين المرجاني (ت ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م)[٦]، الذي اهتم به والده ، وأحضره في صغره على محدثي مكة ، وسمع بنفسه ، وصار خاتمة مسندي مكة ، وأقرأ كتب الحديث ، خاصة «صحيح البخاري»[٧] ، الذي قرأه عليه عبد القادر المارداني[٨] ، كما كان أخوه أحمد (ت٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م)[٩]، من أبرز المحدثين من هذه الأسرة الذين رحلوا إلى خارج

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٤٢٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٨١.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٤٢٩ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٣ / ص ٣٣٨ ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ٤ / ص ٤٢٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٨٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٢٨٢.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٤٢٨ ، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٣ / ص ٣٣٨.

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٨٣ ، التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٥٤٣.

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٨٣ ، التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٥٤٣.

(٦) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٦٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٦٧.

(٧) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٦٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٦٧.

(٨) عبد القادر بن عبد الوهاب بن عبد المؤمن المارداني القاهري الشافعي ، ولد سنة ٨٣٦هـ/١٤٣٢م ، ونشأ بالقاهرة ، وأخذ العلم على كثير من شيوخها ، حج وأقام بمكة خمس سنوات ، وزار بيت المقدس، والإسكندرية ، وأخذ على كثير من علمائها . (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ /ص٢٧٦ و لم يذكر وفاته).

(٩) ن . م . س ، ج ٢ / ص ١٠٥.

الحجاز[1].

كذلك كان هناك بعض الأسر الصغيرة التي كان لها نشاط علمي في مكة المكرمة ، كأسرة عثمان بن موسى الطائي الإربلي الفقيه الزاهد (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م)[2]، الذي أقام بمكة حوالي خمسين سنة ، وكان إماما للحنابلة بالمسجد الحرام[3]، وخلفه في الإمامة بعد وفاته ابنه جمال الدين محمد (ت ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م)[4]، وكان إمامًا عالمًا دينًا[5].

وكذلك أسرة ابن الضياء قضاة مكة ، والذين ينتسبون لجدهم محمد بن محمد بن سعيد بن عمر العلامة ضياء الدين الهندي (ت ٧٨٠هـ/١٣٧٨م)[6]، والذين اشتهروا بالتدريس في المدارس بالحرمين الشريفين ، وتدريس الدروس المقررة بهما ، حيث توارثوها عن بعضهم.

أسرة ابن فرحون:

وهي من أشهر الأسر بالمدينة المنورة وأصلهم من مدينة تونس[7] ، وأول من قدم منهم إلى المدينة المنورة محمد بن فرحون بن محمد بن فرحون اليعمري التونسي المولد والنشأة (ت٧٢١هـ/ ١٣٢١م)[8]، فقد برع في الفقه والأصول وسمع الحديث على ابن مسدي، وكان له دور بارز في الحركة العلمية في المدينة[9]، وخلفه أبناؤه ، علي

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ١٠٥.

(٢) الفاسي: العقد الثمين ، ج ٦ / ص ٥١ - ص ٥٣.

(٣) ن . م . س ، ج ٦ / ص ٥١ - ص ٥٣.

(٤) ابن رجب زين الدين عبد الرحمن بن أحمد : الذيل على طبقات الحنابلة ، (بيروت ، دار المعرفة ، بدون ت) ، ج ٢ / ص ٢٨٦.

(٥) ن . م . س ، ج ٢ / ص ٢٨٦ - ص ٢٨٧.

(٦) ابن تغري بردي : الدليل الشافي ، ج ٢ / ص ٦٩١.

(٧) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ١١٥.

(٨) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٧٠٧.

(٩) ن . م . س ،ج ٣ / ص ٧٠٧.

(ت٧٤٦هـ/١٣٤٥م)[١]، الذي لزم الإشتغال بالفقه والعربية في المسجد النبوي ، وله الكثير من المؤلفات[٢]. وأخيه البدر عبد الله (ت ٧٦٩هـ/١٣٦٧م)[٣]، وكان من كبار الأئمة الأعلام ، عالمًا بالفقه والتفسير والعربية ، وحدّث ودرّس وأفاد كثيراً من الطلبة في اللغة ، وله مؤلفات كثيرة في هذا العلم[٤].

كما كان ابن أخيه إبراهيم بن علي (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م)[٥]، من قضاة المالكية في المسجد النبوي ، وأحد العلماء المشهورين بالمدينة المنورة ، وهو صاحب « الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب » ، وله عدة مؤلفات أخرى[٥].

وأحمد بن عبد الله بن محمد بن فرحون (ت ٨٩٣هـ/١٤٨٧م)[٦]، الذي ولي قضاء المدينة بعد أخيه المحب أبي عبد الله ، ووصف بأنه « كان متبصرا في الفقه »[٧].

---

(١) ابن فرحون ، إبراهيم بن علي : الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، تحقيق ، محمد الأحمدي أبو النور ، (القاهرة ، دار التراث ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ، ج ٢ / ص ١٢٦ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٢٥٢ - ص ٢٥٣.

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ / ص ١٢٤ - ص ١٢٦ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٢٥٢ - ص ٢٥٣.

(٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ١١٥ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ١ / ص ٤٥٤ - ص ٤٥٨ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٤٠٨.

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ١ / ص ٤٥٤ - ص ٤٥٨ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٤٠٨ .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ / ص ٤٩ ، النجم بن فهد : نبذة من تراجم أشياخنا من نقلة الحديث ، منتقاة من معجم جمعه سراج الدين عمر بن فهد لشيخه المراغي المصري المدني ، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ٥٣٠ ، عن مكتبة دار الخطيب بالقدس ، ورقة ٢ أ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ١٣١ - ص ١٣٢ ، ابن القاضي : درة الحجال ، ج ١ / ص ١٨٣.

(٦) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ١٨٠.

(٧) ن. م . س ، ج ١ / ص ١٨٠.

أسـرة الزرندي :

هناك لبس في المكان الذي تنسب إليـه هذه الأسـرة ، فـقـد ذكـر الفـيـروزآبـادي : أنهـا تنسب إلى زريد كمرند قرية من أعمال المدينة على نحو أربعين ميلا من جهة الشام[١] ، وذكر ذلك أيضا في القاموس[٢] ، وقد استقى معلوماته من أبي عبد الله محمد بن يوسف الزرندي محدث الحرم الذي قدم إلى شيراز[٣] من المدينة المنورة سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م[٤] ، وقـال : «لم أسمعه من غيره ولم أجده في كتاب ، وهو ثقة »[٥].

وذكـر الأنصـاري نسب هذه الأسرة إلى أنس بن مـالك خـادم رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، وأنهم أنصار ينسبون إلى بني النجار من الخزرج [٦] ، وعلق على مكانـهم في المدينة محقق « تحفة المحبين » بأنهم من محلة من محلات المدينة[٧].

ورغم توثيق الفـيـروزآبـادي ، وقـول الأنصــاري ، فـإننا نرجح أنه لا وجـود لزرند قـرب المدينة وذلك لعدم ورودها في معالمها عند غير صاحب « القاموس » كما أن الأنصـاري أغفل قول الفيروزآبادي الآخر الذي ذكر بأنها : مدينة بكرمان أو قرية بأصبهان[٨].

---

(١) المغانم المطابة في معـالم طابة ، تحقيق ، حمد الجاسر ، الطبعة الأولى (الرياض ، دار اليمـامة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) ، ص ١٧٠ - ص ١٧١.

(٢) القاموس ، ص ٣٦٤.

(٣) شيراز : بالكسر ، بلد عظيم مشهور معروف ، وهو قصبة بلاد فارس ، كثيرة الخيرات عذبة الماء (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ / ص ٣٨٠ - ص ٣٨١).

(٤) يعني الفيروزآبادي هنا أنه كتب مادته التاريخية في شيراز.

(٥) المغانم المطابة ، ص ١٧١.

(٦) تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب ، تحقيق ، محمد العروسي المطوي ، الطبعة الأولى (تونس ، مكتبة العتيقة ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) ، ص ٧ ، وقد أوردهم في حرف الهمزه (الأنصاري) .

(٧) ن . م . س. ص٧، الهامش .

(٨) القاموس ، ص ٣٦٤ ، المغانم المطابة ، ص ١٧١.

وعليه يبدو أن أسرة الزرندي هي أسرة تنسب إلى زرند ، إحدى المدن الكبيرة في أقليم كرمان ببلاد فارس[١]، مع تسليمنا بقول الأنصاري : أنها أسرة أنصارية خزرجية[٢]، وقد يكون أحد أجداد هذه الأسرة رحل إلى زرند ، ثم عاد أحفاده إلى المدينة المنورة في أواخر القرن السابع الهجري . ومما يرجح هذا تردد الكثير من هذه الأسرة إلى هذه البلاد وإقامتهم بها ، وتولية بعضهم القضاء ، كما هو واضح من بعض التراجم التي سنأتي على ذكرها.

ولعل أول من قدم من هذه الأسرة : يوسف بن الحسن بن محمد بن محمود بن الحسن (ت ٧١٢هـ/١٣١٢م)[٣]، الذي سمع في بغداد ، ورحل إلى الشام ومصر ، وطلب ، وحصّل ، وجمع ، وخرّج ، وحج أربعين حجة، وأخذ على كثير من العلماء ، ومات وهو قاصد إلى الحجاز مع الركب العراقي ، ويؤيد ماسبق قوله قول ابن حجر : «وله ذرية بالمدينة الشريفة»[٤]. وخلّف عدد من الأبناء منهم : أحمد (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)[٥]، الذي سمع مع والده في بغداد ، وقدم القاهرة وسمع بها ، ثم رجع إلى المدينة المنورة ، وسمع بها على الجمال الكازروني « تاريخ المدينة » لابن النجار.[٦]

كما عرف أخوه محمد (ت ١٣٤٧/٧٤٨م)[٧] ببراعته في الحديث والفقه ، وألف في ذلك ، وتولى تدريسهما ، ثم رحل إلى شيراز[٨]، فولي القضاء بها حتى مات[٩].

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ / ص ١٣٨ ، الفيروزآبادي : القاموس ، ص ٣٦٤ ، المغانم المطابة ، ص ١٧١.

(٢) تحفة المحبين ، ص ٧ - ص ٢٧.

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ / ص ٤٥٢.

(٤) ن . م . س ، ج ٤ / ص ٤٥٢.

(٥) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ٢٧٢ - ص ٢٧٣.

(٦) ن . م . س ، ج ١ / ص ٢٧٣.

(٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ / ص ٢٩٥.

(٨) مما يؤيد قولنا سابقا باجتماعه مع الفيروآبادي .

(٩) ن . م . س ، ج ٤ / ص ٢٩٥.

ومن مشاهير علماء هذه الأسرة : علي بن يوسف بن الحسن الزرندي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م)[١]، الذي كان فقيهًا ، محدثًا أديبًا ، فقد طلب الحديث وارتحل إلى دمشق ، والقاهرة ، وبغداد ، وغيرها من المدن الإسلامية ، وبرع في اللغة والأدب ، وأثنى عليه كثير من المؤرخين ، قال السخاوي : « ورأيته صحح نسخة من البخاري في سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م ، ونقح حواشيها »[٢] ، وهذه المنزلة الفقهية هي التي أهلته لولاية القضاء والتدريس والحسبة في المدينة سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م أيام السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون ، فكان سيفًا لأهل السنة ، قامعًا للبدعة ، وهو أول قضاة الحنفية بالمدينة المتمكنين في اللغة نثراً وشعراً[٣] ، وقد ترك كثيرا من تلامذته الذين اشتهروا بالتدريس في المسجد النبوي ، ومنهم الجمال الكازروني[٤]، وجلال الدين الخجندي[٥]، والزمردي[٦] وغيرهم[٧].

كما عرف من هذه الأسرة: محمد بن أحمد بن يوسف بن الحسن (ت٧٨٣/١٣٨١م)[٨] الذي ارتحل في طلب العلم إلى الشام والعراق ، ولقي بأردبيل[٩]، الجمال يوسف بن إبراهيم الهملابازي الأربيلي شيخ القراء بأذربيجان ، فأجاز له في

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ / ص ١٤٢ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٢٦٨ - ص ٢٧٢.

(٢) التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٢٦٩.

(٣) ن . م . س ، ج ٣ / ص ٢٧٠ - ص ٢٧٢.

(٤) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٤٩٨.

(٥) ن . م . س ، ج ١ / ص ٢٥٣ - ص ٢٦٤.

(٦) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ / ص ٢٦٠.

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ٢٧٩ ، ج ٩ / ص ٧٧ ، ج ٦ / ص ٢٩٧.

(٨) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ / ص ٣٧٢ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٥١٣.

(٩) أردبيل : من مدن أذربيجان التي هي إقليم واسع ، الغالب عليه الجبال ، وفيه قلاع كثيرة وبساتين ، وخيرات كثيرة ، وذكر كذلك ياقوت بأن أردبيل هي مدينة أذربيجان (معجم البلدان ، ج١/ص١٢٨- ص ١٢٩).

القراءات، وجعله ناظراً على كتابه « الأنوار لأعمال الأبرار » في الفقه ، كما سمع على البدر الخشاب عالم المدينة ، وأخذ عنه كثير من علماء المدينة . منهم الجمال الكازروني ، وتولى التدريس في المدينة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى شيراز ، ثم إلى كازرون ومات بها[١].

وعبد الله بن أحمد بن أحمد بن يوسف بن الحسن (ت ٧٤٧ هـ/١٣٤٦م)[٢]، الذي حفظ كثيراً من كتب الحديث والفقه واللغة ، وأجيز من بعض علماء المدينة ، وسافر إلي دمشق ، واشتهر بها حيث تولى بها بعض الوظائف الجليلة[٣].

وعبد الرحمن بن علي بن يوسف بن الحسن ، أبو الفرج (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م)[٤] الذي سمع على العز بن جماعة كثيراً من الأحاديث ، وأجاز له كثير من العلماء ، منهم الدلاصي ، والأذرعي ، ومحمد بن عمر بن قاضي شهبة ، والكمال بن حبيب ، وغيرهم ، وتولى قضاء المدينة بعد أخيه أبي الفتح ، واستمر على ذلك نحوا من ثلاث وثلاثين سنة ، وتولى فيها الحسبة ، وجدد البئر التي اشتهرت بين المدنيين بزمزم على يمين الطريق السالك للعقيق.[٥]

ومحمد بن التاج عبد الوهاب بن علي بن يوسف (ت ٨٣٨ هـ/١٤٣٤م)[٦] ، الذي سمع على الأميوطي ، والبرهان بن فرحون ، وأجاز له ، البلقيني ، وابن الملقن ، والعراقي ، والهيثمي ، والدميري ، وغيرهم ، وتولى القضاء والحسبة بالمدينة[٧].

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ / ص ٣٧٢ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٥١٣.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٢٤٧ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٢٩٢.

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٢٤٧ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٢٩٢.

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ١٠٥ ، التحفة الطيفة ، ج ٢ / ص ٥١٨ – ص ٥٢٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ١٢٥.

(٥) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٢١٨ – ص ٢٢٥.

(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ /ص١٣٥

(٧) ن٠م٠س٠، ج ٨/ص ١٣٥، ج ١١/ص ١٢٤٠

وعلي بن سعيد بن أبي الفتح محمد بن عبد الوهاب بن علي بن يوسف (ت٩١٠ هـ/١٥٠٤م)[١] ، الذي حفظ كثيرا من الكتب في شتى أنواع المعرفة ، من حديث ، وفقه ، وأصول ، ومنطق ، ونحو ، وسمع على أبي الفرج المراغي ، والكازروني ، وغيرهم ، وحدّث بالمسجد النبوي في الفقه والحديث[٢].

وهناك الكثير من علماء هذه الأسرة[٣] الذين أدوا دورهم منذ القرن السابع الهجري واستمرت تؤدي دورها إلى عصرنا هذا[٤].

أسرة الكازروني[٥] :

تعد من أشهر الأسر المدنية في العصر المملوكي ، وتنسب إلى روزبة بن محمود بن إبراهيم بن أحمد الصفي أبو العباس ابن الشمس أبي الإيادي ابن الجمال أبي الثناء الكازروني[٦] ، وبلغ عدد أفرادها قرابة الأربعون نفسا ، ولا يعرف متى استقرت هذه الأسرة في المدينة ، غير أن المؤرخين ترجموا لأبناء روزبة وأحفاده منذ القرن الثامن الهجري ، وهم غير الأسرة المكية الكازرونية التي توالت رئاسة المؤذنين بالمسجد الحرام[٧].

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥/ص ٢٢٤، التحفة اللطيفة ، ج ٣/ص ٢٢٢.

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥/ص ٢٢٤، التحفة اللطيفة ، ج ٣/ص ٢٢٢.

(٣)السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢/ص ١٤٠ ، ج ٣ / ص ٢٥٣ ، ص ٢٥٦ ، ج ٤ / ص ٣١ ، ص ٤٥ ، ص ٢٠٦ ، ص ٢١٩ ، ج ٥ / ص ٤٠ ، ص ٥٧ ، ص ٨٧ ، ص ٩٤ ، ص ١٠٨ ، ص٢٢٤ ج ٦ / ص ٥٣ ، ص ٩٤ ، ص ، ١٢٣ ، ص ٣١٨ ، ج ٧ / ص ٢٥٢ ، ج ٨ / ص ٧٨ / ص ٧٨ ، ص ١٣٧ ، ص ٢٥٩ ، ج ٩ / ص ٢٢ ، ص ١٦٦ ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٦٠ ، ج ١٠ / ص ١٦١ ، ج ١١ / ص ١٢٦ ، ص ١٢٩ .

(٤) الأنصاري : تحفة المحبين ، ص ١٧ ، ١٨ - ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ - ٣١.

(٥) نسبة إلى كازرون : بتقديم الزاي ، وآخره نون ، مدينة بفارس بين البحر وشيراز ، وهي بلدة عامرة كبيرة تشتهر بثياب الكتان (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ / ص ٤٢٩) .

(٦) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ٢٣٣.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٥ ، ص ٣٢٢ ، ج ٣ / ص ٨١.

ومن أشهر علماء هذه الأسرة : أحمد بن محمد بن روزبة بن محمود (ت٧٦٣ هـ/١٣٦١م)[١] ، الذي برع في علوم العربية ، وارتحل إلى دمشق وأخذ عن علمائها، ثم رجع إلى المدينة ، وكان يحضر مجالس الوعظ بالمسجد النبوي ويقرئ به بعض العلوم ، وله مؤلفات.

كما اشتهر من هذه الأسرة محمد بن أحمد الشهير بالجمال أبي عبد الله الكازروني (ت٨٤٣ هـ/١٤٣٩م)[٢] ، الذي سمع من جماعة من أهل المدينة والقادمين إليها ، أمثال ، ابن صديق ، والجمال الأميوطي ، والأسفرائيني ، وارتحل إلى الشام ومصر ، ولازم السراج البلقيني ، وأبي البقاء السبكي ، وتفقه بهما ، وأخذ فنون الحديث ، عن العراقي ، وأجازه كثير من العلماء ، وأذن له في الإفتاء والتدريس ، وصار فقيه المدينة وعالمها وقاضيها ، وممن أخذ عنه التقي بن فهد وابنه النجم وكثير من طلاب الحرمين الشريفين[٣].

ومحمد بن عبد العزيز بن عبد السلام (ت ٨٤٩ هـ/١٤٤٥م)[٤]، الذي حفظ كثيرا من كتب الحديث والفقه والتاريخ ، وحضر في الفقه والحديث عند الجمال بن ظهيرة وأذن له في الإقراء والتدريس ، ودخل الشام والقدس وسمع من علمائها ، وأجاز له البلقيني وابن الملقن والعراقي و الهيثمي ، ودرّس، وحدّث وأجاز للتقي بن فهد وبنوه ، وغيرهم[٥].

---

(١) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ٢٣٣.

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ٩٦ ، التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٤٩٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٢٤٧ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ / ص ١٢١، البغدادي : هدية العارفين ، ج ٢ / ص ١٩٤.

(٣) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢١٧ ، السخاوي : التحفة الطيفة ، ج ٣ / ص ٤٩٩ .

(٤) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٣٣ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ٦٠ ، التبر المسبوك ، ص١٣٦، التحفة اللطيفة،ج٣ / ص ٦٤٤ - ص ٦٤٧.

(٥) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٣٣ ، السخاوي : التحفة الطيفة ، ج ٣ / ص ٦٤٥ - ص٦٤٧ .

ومن هذه الأسرة أيضا : أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن روزبة (ت٨٦٣ هـ/١٤٥٨م)[١]، الذي نشأ بالمدينة ، وعرض محفوظاته من الكتب على علمائها ، وسافر مع والده إلى القاهرة والشام ، وأخذ عن ابن حجر ، والمقريزي ، والبلقيني ، والتقي بن قاضي بن شهبة وغيرهم.[٢]

وعمر بن محمد بن أحمد بن محمد بن روزبة (ت ٨٦٥ هـ/١٤٦٠م)[٣]، سمع بالمدينة، وأقرأ بها في المسجد النبوي « الشفا » و« الموطأ » ، ودخل القاهرة وسمع منه السخاوي.[٤]

وأحمد بن محمد بن محمد بن محمد تقي الدين عبد السلام (ت ٩٢٠ هـ/١٥١٤م) [٥]، الذي لازم السخاوي والسمهودي ، وأخذ عنهما شتى أنواع المعرفة[٦].

وهناك تراجم عديدة[٧] لهذه الأسرة ، أخذوا عن أبرز علماء عصرهم ، كما شاركوا في التدريس في المسجد النبوي ، وقدموا عدة مؤلفات في الحديث والفقه واللغة.

أسرة إبن صالح :

تنسب هذه الأسرة إلى محمد بن صالح بن إسماعيل الشمس بن التقي الكناني المدني الشافعي (ت ٧٨٥ هـ/١٣٨٣م)[٨]، الشيخ الفقيه المقرئ نائب الخطابة والإمام بالمسجد النبوي الشريف الذي جوّد القراءات وأتقنها ، وأخذ عن كثير من العلماء بالمدينة ، وانتفع به

---

(١) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ٢٤٥ – ص ٢٤٦ .

(٢) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١/ ص ٢٤٦ .

(٣) ن. م . س ، ج ٣ / ص ٣٥٥ – ص ٣٥٦.

(٤) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣/ ص ٣٥٥ – ص ٣٥٦ .

(٥) ن. م . س ، ج ١ / ص ٢٥٣.

(٦) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١/ ص ٢٥٣ .

(٧) انظر السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ١٦٠، ج ١ / ص ٢٦٨ ، ج ٢ / ص ٣٥٥ ، ج ٢ / ص ٣٩٣ ج ٢/ ص ٤٧٠ ، ج ٣ / ص ١٦ ج ٣ / ص ٤٢ – ص ٤٣ ، ج ٣ / ص ٥٠٢ ، ج ٣ / ص ٦٤٢

(٨) الفاسي : ذيل التقييد ، ج ١ / ص ٢٢٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ / ص ٧٦ ، أنباء الغمر ، ج ٢ / ص ١٥١ ، ابن الجزري : غاية النهاية ، ج ٢ / ص ١٥٥ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٥٨٣.

أهل المدينة والواردين إليها، وكان يعظ الناس في المسجد النبوي[١].

وقد ذكر هذا النسب السخاوي وقال : « هو المنسوب إليه بيت ابن صالح بالمدينة » [٢] على الرغم من أن والده ، صالح بن إسماعيل (ت ٧٠٧ هـ/١٣٠٧م)[٣]، كان مستقرا بالمدينة ، يعمل صانعا مبيضا يشتغل بالتبييض في الحرم الشريف[٤]. فإنه لم تنسب إليه هذه الأسرة لعدم معرفته بالعلم ، ومن هذه الأسرة : عبد الرحمن بن محمد بن ناصر الدين (ت٨٢٦ هـ/١٤٢٢م)[٥] ، قاضي المدينة وخطيبها ، سمع من العز بن جماعة في مسجد قباء ، ومن والده وجده ، وأجاز له الكثير من العلماء ، منهم العماد بن كثير ، وابن قاضي شهبة[٦].

وكذلك عبد الوهاب بن محمد بن محمد بن صالح (ت ٨٦٥ هـ/١٤٦٠م)[٧] ، سمع بالمدينة على ابن صديق والمراغي والجمال الكازروني ، وبرع في العربية ، وأجازه جمع من العلماء ، منهم أبو الطيب السحولي ، وأبو اليمن الطبري ، ودخل القاهرة وباشر الخطابة ، والإمامة بها ، وحدّث وأقرأ كثير من الكتب[٨].

اللطيفة ، ج ٣ / ص ٥٨٣.

(١) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٣/ ص ٥٨٣ – ص ٥٨٥ .

(٢) ن. م . س ، ج ٣ / ص ٥٨٣.

(٣) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢/ ص ٢٢٨ – ص ٢٢٩ .

(٤) ن. م . س ، ج ٢ / ص ٢٢٩.

(٥) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢/ ص ٥٣٢– ٥٣٤ .

(٦) ن. م . س ، ج ٢ / ص ٥٣٤.

(٧) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢/ ص ١١٠ – ص ١١١ .

وكذلك محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن صالح (ت ٨٦٠ هـ/١٤٥٥م)[١] ، الذي أخـذ عن ابن الجـزري القـراءات ، وأخـذ الفـقـه عن أبيـه ، والجـمـال الكازروني والنجم السكاكيني، وغيرهم ، وأخذ الأصول مع العربية والمنطق عن أبي عبد الله الوانوغي ، وعنه وعن غيره النحو ، وأجيز ، وأجاز لكثير من طلبة العلم ، ولكثرة شيوخه خرّج له التقي بن فـهـد مشيـخـة تضم المجيـزين فـقـط ، وناب في القـضـاء والإمـامـة عن والده ، وقـد أخـذ عنه السخاوي[٢] .

ومنهم كذلك محـمـد بن عبـد الله بن عبـد الرحـمن (ت ٨٩١هـ/١٤٨٦م)[٣]، الـذي سمع على أبي الفتح المراغي ، والسخاوي ، وتميز في الفقه والفرائض والميقات ، ودخل مصر والشام ، واستفاد من علمائها ، وأفاد كثيرا من طلبة العلم في المدينة المنورة[٤] .

وقد تولى كثير من علماء هذه الأسرة القضاء والخطابة بالمدينة المنورة ، كما عرف عنهم ترحـالهم الدائم إلى مـصـر والشـام وبلاد الروم ، إضـافـة إلى مـشـاركـتـهم في تدريس العلوم المختلفة في المسجد النبوي الشريف ، واستـمـرت هذه الأسرة تؤدي دورها إلى بداية القرن التاسع الهجري[٥] .

بالإضـافـة إلى هذه الأسـر ، فـهـناك أسـر صـغـيـرة ، امـتـد تأثيـرها على مـدى قـرنين من الزمـان . مثل أسرة المطري[٦] التي تنسب إلى سعد بن عبـادة الخزرجي[٧]، وأول من قـدم

---

(١) السخاوي : التحفة الطيفة ، ج ٣/ ص ٦٣١ - ص ٦٣٢ .

(٢) ن. م . س ، ج ٣ / ص ٦٣١ - ٦٣٢.

(٣) السخاوي : التحفة الطيفة ، ج ٣/ ص ٦٠١ .

(٤) ن. م . س ، ج ٣ / ص ٦٠١.

(٥) انظر تراجم أخرى لهذه الأسرة في : السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٢٢٤ ، ج ١ / ص١٤٠- ص ١٤١، ج ٢ / ص ٥٣٧ ، ج ٢ / ص ٣٤٧ ، ج ٢ / ص ١٤٢ ، ج ٢ / ص ١٦ ، ج ٣ / ص ٦٥٩ ، ج ٣ / ص ٦٧٨ ، ج ٣ / ص ٦٣٣ ، ج ٣ / ص ٦٠١ ، ج ٣ / ص ٥٧٤.

(٦) نسبة إلى المطرية : وهي من قرى مصر التي اشتهرت بشجر البلسان « البشام » (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ / ص ١٤٩).

(٧) انظر ترجمة أحد أفراد هذه الأسرة في : السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٣٨٥.

من هذه الأسرة إلى المدينة هو أحمد بن خلف بن عيسى بن عساس بن يوسف بن بدر ، وذلك لخلوها من عارف بالميقات فقطنها وصار رئيس المؤذنين بها[١] ، وخلفه أبناؤه وأحفاده في هذه الوظيفة، ومنهم : محمد بن أحمد بن خلف (ت ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠م)[٢] ، الذي سمع بالمدينة ومصر ، وكان إمامًا عالمًا مشاركًا في عدة علوم ، عارفًا بالأنساب ، وصنّف بعض المؤلفات[٣] .

ومن مشاهير هذه الأسرة : عبد الله بن محمد بن أحمد بن خلف (ت٧٦٥ هـ/١٣٦٣م)[٤] ، الذي طلب الحديث بنفسه وسمع على والده ومن الفخر التوزري ، والرضي الطبري بمكة ، كما سمع بمصر ، ودمشق ، والاسكندرية ، وبيت المقدس ، وبغداد ، وصحب كثيرا من العلماء ، وأخذ عنهم ، منهم : الشهاب أحمد بن فضل الله مؤلف كتاب «المسالك » ، وعني بالتأليف ، خاصة في علم التاريخ ، كما حدّث ببغداد والشام والقاهرة ، وبأماكن في درب الحجاز ، وممن قرأ عليه من الحفاظ والأئمة ، الزين العراقي ، والزين المراغي ، والجمال الأسيوطي ، والبرهان بن جماعة ، والزين بن رجب ، والتاج السبكي ، والتقي بن رافع ، وعبد الباقي بن عبد المجيد اليماني ، وزاد ذكره شرقًا وغربًا بسبب علم الحديث[٥] ، وله عدة مؤلفات .

ومحمد بن عبد الرحمن بن محمد أبو حامد (ت ٨١١ هـ/١٤٠٨م)[٦] ، الذي سمع من اليافعي والمطري « صحيح البخاري » و «إتحاف الزائر » كما سمع على جمع من العلماء بالمدينة ، وممن أخذ منه التقي بن فهد ، ودرّس وحدّث وأفتى[٧] .

---

(١) السخاوي : التحفة الطيفة ، ج ١ / ص ١٧٨.

(٢) ن . م . س ، ج ٣ / ص ٤٦٦ - ص ٤٦٧.

(٣) ن. م . س ، ج ٢ / ص ٥٣٤.

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٢٨٤ - ص ٢٨٥ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٣٨٥ - ص ٣٩٠.

(٥) السخاوي : التحفة الطيفة ، ج ٣ / ص ٣٨٥ - ص ٣٩٠.

(٦) ن. م . س ، ج ٣ / ص ٦٢٧ - ص ٦٢٩.

(٧) السخاوي : التحفة الطيفة ، ج ٣ / ص ٦٢٨ - ص ٦٢٩.

وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد الجمال أبو البركات (ت ٨٢٢ هـ/١٤١٩م)[١] ، الذي سمع من العز بن جماعة وغيره ، ورحل وسمع من بعض علماء الاسكندرية ، كما سمع منه التقي بن فهد ، وكان عارفا بعلم الصوفية والحديث والعربية وأصول الدين[٢] .

بالإضافة إلى عدد آخر من أفراد هذه الأسرة التي أدت دورها في الحركة العلمية بالحجاز عامة وفي المدينة خاصة[٣] .

وهناك أيضا أسرة الخجندي[٤] ، التي شاركت في تنشيط الحركة العلمية في الحجاز ، وأول من قدم من هذه الأسرة هو : أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد الجلال أبو الطاهر ابن الشمس ابن الجلال الخجندي ويعرف بالأخوي (ت ٨٠٢ هـ/١٣٩٩م)[٥] ، الذي ولد ببلدة خجند ، وكان كل من أبيه وجده وجد أبيه علماء ، وأخذ عن والده ، كما أخذ عن كثير من العلماء ، اللغة والنحو ، والحساب ، والجبر والمقابلة ، وارتحل إلى سمرقند[٦] وبخارى[٧] ، ونزل بها في مدرسة خان ، وقد أدرك ألف شيخ ، كان آخرهم الرضي الطبري ،

---

(١) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٢) ن·م·س·· ، ج ١ / ص ١٨٣ - ص ١٨٤.

(٣) انظر تراجم أخرى لهذه الأسرة في : السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ٢٣٧ ، ج ٢ / ص ٥٢٩ ، ج ٢ / ص ٣٩٧ ، ج ٢ / ص ١٣٢ ، ج ٣ / ص ٦٤٠ ، ج ٣ / ص ٦٣٠.

(٤) نسبة إلى خُجَندة بضم أوله وفتح ثانيه ، وهي بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون ، بينها وبين سمرقند عشرة أيام ، وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصقع أنزه منها ولا أحسن فواكه ، وفي وسطها نهر جار (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ / ص ٣٤٧).

(٥) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ٢٥٣ - ص ٢٦٣.

(٦) سَمَرقند : بفتح أوله وثانيه ، ويقال لها بالغربية سمران ، بلد معروف مشهور ، قيل أنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر ، وهو قصبة الصغد ، فتحها قتيبة بن مسلم سنة ٨٧هـ/٧٠٥م (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ / ص ٢٤٦ - ص ٢٤٧).

(٧) بُخارى : بالضم ، من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها ، وهي مدينة قديمة كثيرة البساتين واسعة الفواكه ، وأول من فتحها سعيد بن عثمان بن عفان سنة ٥٥هـ/٦٧٤م ثم دخلها قتيبة سنة ٨٧هـ/٧٠٥م (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ / ص ٣٥٣ - ص ٣٥٥).

وزار مدنا عديدة في الشرق ، ثم قدم الحجاز وأقام بالمدينة أكثر من أربعين سنة يدرّس ويفتي ويحدّث[١] . واستفاد من علمه الكثير من طلاب الحرمين الشريفين.

ومن أبنائه : إبراهيم البرهان أبو محمد (ت ٨٥١ هـ/١٤٤٧م)[٢] ، الذي نشأ بالمدينة، وسمع بها على العفيف المطري وغيره من علماء المدينة ، وأجاز له كبار العلماء في العالم الإسلامي في ذلك العصر ، كالبلقيني وابن الملقن ، والهيثمي ، وبرع في العربية ومعاني الأدب ودرّس وحدّث ، ولقيه البقاعي فكتب عنه[٣] .

وإبراهيم بن محمد بن إبراهيم (ت ٨٩٧ هـ/١٤٩١م)[٤] ، إمام الحنفية بالمدينة ، أخذ عن السمهودي ، ودخل القاهرة سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م ، وسمع على علمائها ، كما قرأ بمكة وسمع بها على النجم بن فهد من الكتب الشرعية[٥] .

وهناك أيضا أسرة المراغي ، وأسرة ابن مرتضى الكناني ، وابن الخطيب[٦] ، حيث تولى بعض أبنائها الخطابة والإمامة بالمسجد النبوي الشريف ، كما شارك بعضهم في تنشيط الحركة العلمية في الحجاز.

وقد ساهمت هذ الأسر بشكل كبير في نشاط الحركة العلمية ، ودفعها للأمام ، إذ كان معظمهم على درجة عالية من العلم ، فوضعوا لنا المؤلفات القيمة التي أثْرت المكتبة الإسلامية بمختلف العلوم والفنون ، ودرس على أيديهم الآلاف من الطلبة ، وقدموا الإجازات العلمية من الداخل ومن الخارج ، فذاع صيت الكثير منهم ولا عجب في ذلك ، فهم في كل عام يقابلون آلافاً مؤلفة من الحجاج القادمين من مختلف الأقطار فيجتمعون ويتبادلون معهم

---

(١) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ٢٦٠ - ص ٢٦٣.

(٢) ن·م·س·· ، ج ١ / ص ١٠٥ - ص ١٠٧.

(٣) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ / ص ١٠٥ - ص ١٠٧.

(٤) ن·م·س·· ، ج ١ / ص ١٣٤ - ص ١٣٥.

(٥) السخاوي : التحفة اللطيفة، ج ١ / ص ١٣٤ - ص ١٣٥.

(٦) سيأتي الحديث عنها في ثنايا البحث.

المعارف في مختلف العلوم ، وقد شاركت هذه الأسر بشكل كبير في تولي المناصب العلمية والدينية العليا ، كالقضاء في الحرمين الشريفين.

كما أن تميز كل أسرة بعلم من العلوم ساعد على نشاط الحركة العلمية في الحجاز وإن كانوا يتفقون في مجال العلوم الشرعية ، خاصة علوم الحديث.

ويمكن القول أن عناية الأب بأولاده وإسماعه لهم في صغرهم تجعل الكثير من الآباء وخاصة المشتغلين بالعلم يحذون حذوهم في إسماع أبنائهم وهم في سن الطفولة ليحدثوا بذلك وقت شبابهم وشيخوختهم ، وقد قال ابن كثير : « وينبغي المبادرة إلى إسماع الوِلْدان الحديث النبوي ، والعادة المطردة في أهل هذه الأمصار وما قبلها بمدد متطاولة ، إن الصغير يكتب له حضور إلى تمام خمس سنين من عمره ثم بعد ذلك يسمى سماعا »[١] ، وأن وجود أسرة يعتني أفرادها بالعلم يكون دافعًا لآباء من أسرة أخرى في تربية أبنائهم عليه والتواصي بذلك ، ليصبح لهم ذكر بين الناس ، وربما كانت الأسر الأخرى التي نشأت في عصر المماليك خير مثال على ذلك.

---

(١) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، تحقيق ، أحمد شاكر ، الطبعة الثالثة (القاهرة ، مكتبة محمد علي صبح ، ١٩٥١م) ، ص ١٠٨.

جـ : دور العلماء في المدن الحجازية:

امتدت الحركة العلمية خارج الحرمين الشريفين لتشمل بعض المدن الحجازية الأخرى وكذلك القرى المجاورة لها ، وعلى الرغم من أن هذه المدن لم تكن حواضر علمية كمكة والمدينة ، إلا أنه كان بها بعض العلماء الذين انتسبوا إليها ، والذين أقاموا بها للقضاء ، أو الإمامة والخطابة ، أو التدريس بها. وسوف نأتي على ذكر العلماء الذين كان لهم دور بالمدن الحجازية عامة ، إضافة إلى إستعراض علماء كل مدينة من هذه المدن ودورهم في تنشيط الحركة العلمية.

جـدة:

بإعتبارها الميناء الرئيسي للحجاز وتبعيتها لمكة من الناحية السياسية ، قام كثير من العلماء بالإقامة بها وتولوا بها وظائف القضاء والحسبة ، والإمامة ، والخطابة ، وكان لأسرة الطبري الشيبانية الدور الأكبر في تنشيط الحركة العلمية بها ، حتى أن مؤلفي كتب التراجم نسبوهم إلى هذه المدينة.

ومن العلماء الذين كان لهم دور علمي وإجتماعي في مدينة جدة : صالح بن أبي منصور أحمد بن عبد الكريم بن أبي المعالي الشيباني الطبري الأصل (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)[١] ، أقام بجدة مدة متوليا لعقود الأنكحة ، والإصلاح بين الناس ، نيابة عن القاضي شهاب الدين الطبري[٢]. وعبد الله بن صالح بن أحمد بن أبي منصور بن عبد الكريم الشيباني المكي الجدي (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م)[٣] ، كان يقيم بجدة كثيراً ويخطب بها ويباشر عقود الأنكحة بها ، وحدّث بها حيث سمع منه التقي الفاسي حديثا من « سنن الترمذي »[٤] . وعبد الكريم بن جار الله بن صالح بن أبي المنصور أحمد بن عبدالكريم

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٢٥ – ص ٢٦.

(٢) ن . م . س ، ، ج ٥ / ص ٢٥ – ص ٢٦.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ١٧٨ ، السخاوي : الضوء اللامع، ج٥/ ص ٢١ – ص٢٢.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ١٧٨.

الشيباني المكي (ت ٨٢٧هـ/١٤٢٣م)[١]، وكان من طلبة المذهب الحنفي بمكة ، وناب في إصلاح بعض أمور الناس بجدة ، وخطب بها نيابة عن أخيه قاضي جدة نور الدين علي بن جار الله[٢] . وأحمد بن سالم بن حسن الجدي (ت ٨٢٧هـ/١٤٢٣م)[٣]، شهاب الدين المعروف بابن أبي العيون نزيل مكة وقاضي جدة ، الذي حضر دروس قاضي مكة جمال الدين بن ظهيرة ، وإبنه محب الدين ، ثم تولى قضاء جدة سنة ٨٢٢هـ/١٤١٩م ، وكان يشتغل بالتجارة ، وكتب من « المنسك الكبير » للقاضي عز الدين بن جماعة ما يتعلق بمذهب الشافعي ، وأفرده في كراريس[٤].

وعلي بن جار الله بن صالح الشيباني (ت ٨٤١هـ/١٤٣٧م)[٥]، الذي أخذ عن كثير من العلماء بمكة وناب في القضاء بجدة بعد أخيه أحمد في سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م ، ثم تركها في سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م ، وانقطع بمنزله في مكة[٦]. ومحمد بن محمد بن بخشيش بن أحمد السيفي المكي (ت ٨٥٩هـ/١٤٥٤م)[٧]، نزيل ساحل جدة ، الشهير بابن ناصر الدين الجندي ، وقد سمع بمكة على البرهان بن صديق بعض علوم الحديث ، ودخل بلاد الهند مع والده للتجارة ، ودخل القاهرة طلبا للرزق ، وانقطع بجدة ، وتأهل بها ، وناب في الحسبة بها عن قضاتها وأمرائها[٨].

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٤٧٤.

(٢) ن.م.س. ، ج ٥ / ص ٤٧٤.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٤٢.

(٤) ن.م.س. ، ج ٣ / ص ٤٢.

(٥) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٧١ - ص ١٧٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٥/ص٢٠٩، ابن طولون : الغرف العلية ، ورقة ١٥٨ ب - ورقة ١٥٩ أ.

(٦) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٧٢.

(٧) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٦٣ - ص ٢٦٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٩/ ص٥٥.

(٨) النجم بن فهد ، معجم الشيوخ ، ص٢٦٣ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٥٥.

ولم تذكر المصادر التاريخية مدرسةً أو رباطًا أو مؤسسةً تعليمية بهذه المدينة ، إلا ما ذكره البعض منها عن الجامع المظفري[1] بجدة الذي تولى إمامته بعض العلماء وقاموا بالخطابة والتدريس فيه ، مثل محمد بن عبد القوي بن محمد بن عبد القوي بن أحمد البجائي[2] الأصل المكي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)[3] ، الذي سمع بمكة في الحديث من البرهان بن صديق « صحيح البخاري » ، ومن أبي بكر المراغي ، وعبد الرحمن الفاسي بعض الصحيحين و «صحيح ابن حبان » ، كما برز في الأدب واللغة خاصة النحو والشعر ، وقد أخذ عنه التقي الفاسي كثيراً من نظمه في الشعر ، كما سمع عليه من علم الحديث في الجامع المظفري بجدة[4] . كما كان محمد بن مبارك التكروري (ت ٨٦٢هـ/١٤٥٧م)[5] ، الشهير بابن مد ، إمامًا بالجامع المظفري[6] ، كما ذكرت لنا بعض المصادر أن ابن حجر قد أخذ عن عالم من العلماء بجدة أثناء عودته إلى مصر[7]. وكذلك محمد بن يوسف بن علي ابن يوسف بن حيان الجياني الأندلسي[8] العالم المشهور المحدّث اللغوي ، الذي حج سنة

---

(١) قام بعمارته الملك المظفر شمس الدين عمر بن رسول صاحب اليمن ، ويوجد اسمه مكتوبا عليه في قبة الصهريج الذي به مياه عذبة (ابن فرج : السلاح والعدة ، ص ٥١ - ص ٥٢) . وهو في الأصل يسمى الجامع العتيق أو القديم ، حيث ذكر ابن جبير أنه رأى في جدة مسجد منسوب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومسجد آخر له ساريتان من خشب الأبنوس ينسب أيضا له رضي الله عنه ، ومنهم من ينسبه إلى هارون الرشيد . (الرحلة ، ص ٥٣).

(٢) نسبة إلى بجاية بكسر الباء وتخفيف الجيم ، مدينة ساحلية من بلاد المغرب (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ / ص ٣٣٩).

(٣) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٣٣ ، الدر الكمين ، ورقة ٢٩ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ٧١ ، التبر المسبوك ، ص ٢٤٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٢٧٥ .

(٤) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢٩ ب .

(٥) ن . م . س ، ورقة ٤٥ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ٢٩٥ .

(٦) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٤٥ أ .

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ٣٦ .

(٨) ولد سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م ، ونشأ بغرناطة ، وقدم مصر ، وأخذ عن علمائها ، وتولى بها وظائف التدريس ، وله تصانيف منها « البحر المحيط » و« شرح التسهيل »و« التذكرة » وتوفي سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م (الحسيني الدمشقي ، أبي المحاسن محمد : ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي ، ص ٢٤، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ / ص ٣٠٢ - ص ٣١٠).

٦٧٧هـ/١٢٧٨م ، فسمع بمكة ومنى ، ورجع إلى جدة وسمع بها[١].

الطائف:

كان لعلماء الحجاز والمجاورين به دور كبير في إثراء الحركة العلمية بالطائف ، حيث كانوا يقومون برحلات علمية إلى هذه المدينة وقراها ، ويظهر ذلك في قيام مشاهير العلماء بزيارة هذه المنطقة ، وإقامة بعضهم فيها ، وربما كانت إقامتهم بهذه المنطقة يعود إلى جوها المعتدل والبارد أحيانا.

وتعد قرية بجيلة من أشهر قرى الطائف في كتب التراجم من حيث علمائها والقادمين إليها ، وكان كثير من العلماء يحرصون على زيارة هذه المنطقة ، مما يوحي لنا بأنها كانت مركزاً من مراكز العلم ، ويبدو أن العالم موسى الزهراني كانت له مكانة علمية رفيعة في هذه المنطقة ، وهذا ما نلاحظه حيث قام كثير من العلماء بزيارته والأخذ من علومه ، إضافة إلى أن شهرة هذه المنطقة بمنتجاتها الزراعية كانت سببا من أسباب الزيارة للتجارة ، خاصة وأن بعض العلماء كان لهم إشتغال بالتجارة . ومن أشهر علماء هذه المنطقة : موسى بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد بن ثابت البكري السروي المعروف بالزهراني (ت٧٥٣هـ/١٣٥٢م)[٢] ، نزيل مكة ، وقد سمع كتب الصحاح على علمائها ، وعلماء المدينة ، ولم يكتف بالأخذ من علماء الحجاز ، بل قام برحلات خارجية إلى دمشق ، وحماة، ومصر ، والإسكندرية ، وأخذ عن علمائها ، وقام بالتحديث بمصر سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م ، حيث حدّث عنه أبو الفضل العراقي ، وأبو الحسن الهيثمي[٣] ، وقد خلف موسى الزهراني إبنا إسمه أحمد[٤] ، أخذ عن علمه محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الرضي إبراهيم بن محمد ، محب الدين أبو المعالي

(١) الدمشقي : ذيل تذكرة الحفاظ ، ص ٢٤.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٧ / ص ٣٠١ - ص ٣٠٢.

(٣) ن٠م٠س، ج ٧ / ص ٣٠١ .

(٤) لم أعثر على ترجمته ، وإنما وردت في ترجمة أبو المعالي الطبري.

الطبري (ت ٨٩٤هـ/١٤٨٨م)[١]، حينما كان يتردد على بجيلة أثناء زيارته للطائف ، كما أجازه بالإفتاء[٢]، وكذلك الشيخ شمس الدين بن محمد بن يوسف الكرماني الشافعي (ت ٧٨٦هـ/١٣٨٤م)[٣]، الذي شرح البخاري بالطائف ولكن لم يكمله[٤]. وكذلك أحمد بن محمد بن ناصر بن علي بن يوسف بن صديق الكناني المصري العقبي المكي (ت ٨٣١هـ/١٤٢٧م)[٥]، الذي ولد بمكة ونشأ بها ، وأخذ عن علمائها في مختلف علوم الحديث ، ورحل إلى القاهرة ، وحلب ، وسمع بها ، ثم سكن في آخر عمره عطاراً ببلاد بجيلة ، وصار يتردد منها إلى مكة[٦]، وحدّث ، وسمع منه الطلبة ، خرّج له أحد أفراد أسرة ابن فهد جزءاً من مروياته قرأها عليه بسروات من بلاد بجيلة [٧]

وممن تردد إلى بجيلة والطائف ، والإقامة بها ، عبد القوي بن محمد بن عبد القوي البجائي المغربي (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م)[٨]، نزيل مكة ، الذي كان يتردد إلى الطائف ويأخذ عن العلماء بها ، مثل سعد الدين الأسفرائيني ، والنشاوري ، وقد درّس وأفتى[٩] ،

(١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٩٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ١٩٣.

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٩٣ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ١٩٣ ، وقد ذكر في معجم الشيوخ أن أبو المعالي الطبري دخل بلاد بجيلة وأجازه بالإفتاء موسى الزهراني ، وهذا لا يصح ، لأن أبو المعالي ولد سنة ٨٠٧ هـ، ووفاة موسى الزهراني سنة ٧٥٣ هـ ، فكيف أخذ عنه ، وقد صحح ذلك السخاوي.

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ / ص ٢٩٥.

(٤) ن . م . س ، ج ٦ / ص ٢٩٥.

(٥) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٩٥ ، الدر الكمين ، ورقة ٦٧ ب ، النجم بن فهد : معجم بن فهد ، ورقة ٥٧ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ٢٠٩.

(٦) النجم بن فهد : معجم بن فهد ، ورقة ٥٧ ب .

(٧) ن.م.س. ، ورقة ٥٧ ب .

(٨) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٣٠٣ .

(٩) ن . م . س ، ج ٤ / ص ٣٠٣.

وكذلك الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م) ، الذي جاور بالطائف وعمل بها مآثر حسنة[١] ، كما ارتحل محمد بن عبيد بن محمد بن سليمان بن أحمد البشيبشي (المولود سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣م) ، إلى بجيلة والطائف لتعليم أبنائها القرآن الكريم مقابل أجر مادي يدفع له[٢] ، وممن تردد إليها كذلك أبو القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله الأنصاري المكي (ت ٨٧٥هـ/١٤٧٠م)[٣] .

وتعد أسرة عيسى بن محمد بن عبد الله اليمني الأصل الطائفي ، من أشهر الأسر التي كان لها دور في الحركة العلمية في الطائف وقراها ، خاصة قريتي السلامة[٤]، والمليساء[٥] . فعيسى بن محمد والذي يعرف بابن مكينة (ت ٨١٤هـ/١٤١١م)[٦]، تولى قضاء الطائف ، وإمامة مسجد العباس وخطابته أربع سنوات ، ثم اقتصر توليته على المليساء ، وكان يتردد إلى مكة للحج والعمرة ، ويقيم بها في بعض الأحيان[٧] . ثم خلفه ابنه محمد (ت ٨٤٣هـ/١٤٣٩م)[٨] ، الذي سمع على جمع من العلماء بمكة سنة

---

(١) الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ / ص ٢٨١.

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ١٤٠.

(٣) ن . م . س ، ج ١١ / ص ١٣٥.

(٤) السلامة : قرية من قرى الطائف بها مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم ، وفي جانبه قبة فيها قبر ابن عباس وجماعة من أولاده ومشهد للصحابة رضي الله عنهم (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ / ص ٢٣٤).

(٥) المليساء : إحدى قرى الطائف وفيها بيوت وحولها بساتين وآبار وهي مشهورة بجودة سفرجلها (العجيمي ، حسن بن علي بن يحيى : إهداء اللطائف من أخبار الطائف ، تحقيق ، يحيى محمود ساعاتي ، الطبعة الثانية ، (الطائف ، دار ثقيف ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ص ٨٧ ، وقد ذكرها الفيروزآبادي ، وقال : المليساء حصن بالطائف ، (القاموس ، ص ٧٤٢) ، وهي عبارة عن مجموعة قرى ومزارع ، وهي للأشراف ذوي فتن وإلى جانبها من الجنوب أرض يقال لها الحزمان لذوي هزاع من العبادله (ابن خميس : المجازين اليمامه والحجاز ، ص ٢٥٣) .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦ / ص ٤٦٤ - ص ٤٦٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٦/ص١٥٦.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦ / ص ٤٦٤ - ص ٤٦٥ .

(٨) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٤٣ ب .

٨٢٢هـ/١٤١٩م ، ثم تولى قضاء قرية السلامة[١]، وخلّف ولديه عبد الله وعبد الرحمن ، أما عبد الله (ت ٨٤٠هـ/١٤٣٦م)[٢]، فقد أجاز له في سنة ٧٩٤هـ وما بعدها التنوخي ، والبرهان بن علي بن فرحون ، وابن صديق ، وغيرهم . وتولى القضاء بالطائف[٣]، وأما عبد الرحمن (ت ٨٤٣هـ/١٤٣٩م)[٤]، وجيه الدين أبو زيد قاضي الطائف ، فقد كان أشهر من أخيه وأكثر منه معرفة بالعلم وارتباطاً بعلماء مكة ، ويدلنا على ذلك إجازته لوالده ولأولاده في عدة استدعاء ات من عمر بن فهد ، كما أخذ عن علماء الحرمين في علم الحديث[٥].

كما كان محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عامر السلامي المشهور بأبي سكينة (المولود سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م)[٦]، عالمًا في القراءات والفقه والحديث ، حتى أن البقاعي وهو عالم مشهور في علم الحديث ارتحل إليه ليأخذ منه في هذه القرية ، وقد ذكره في معجم شيوخه[٧]. وكذلك عمر بن عبد الله بن محمد بن عيسى بن موسى المصمودي (كان حيا في القرن التاسع الهجري)[٨]، إمام قرية أبي الأخيلة[٩] ، وقد أخذ عن العلماء في علم القراءات والفقه ، ودخل نواحي بجيلة وزهران لنشر العلم والمعرفة ، وقد لقيه كذلك البقاعي في سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م ، وقرأ عليه وعلى محمد بن عيسى بن مكينة في مسجد

---

(١) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٤٣ ب .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ٦٠.

(٣) ن . م . س ، ج ٥ / ص ٦٠.

(٤) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٢٠ ب - ورقة ١٢١ أ.

(٥) ن . م . س ، ورقة ١٢٠ ب - ورقة ١٢١ أ.

(٦) مجهول : تاريخ المحمدين ، ورقة ١١٥ ب.

(٧) ن . م . س ، ورقة ١١٥ ب .

(٨) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٩٨.

(٩) أبي الأخيلة : موقع بالطائف ، ينسب إلى جبل يقال له أبو الأخيلة . (بن عراق ، علي بن محمد الكناني : نشر اللطائف في قطر الطائف ، تحقيق ، عثمان محمود الصيني ، مطبوعات نادي الطائف الأدبي ، (الطائف ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ، ص ٨٣ ، العجيمي : إهداء اللطائف ، ص٨٣).

عداس[1] ، بهذه القرية[2].

كما كان عبد الوهاب بن علي بن أحمد بن خضر بن عبد الوهاب التاج النشرتي ثم الطائفي المسيري (ت ٨٧٨هـ/١٤٧٣م)[3]، ويعرف بابن الخطيب ، متميزاً في الفقه والنحو ، وارتحل إلى القاهرة ، وأخذ عن السخاوي ، وكتب عدداً من مصنفاته ، وحضر مجالس الإملاء ، ثم عاد إلى بلده الطائف وخطب بها[4].

كما عرف عن أهالي الطائف وخاصة سكان بجيلة ترددهم دائما إلى مكة للزيارة والحج وكذلك المجاورة ، والإرتحال في طلب العلم والأخذ عن العلماء ، ومنهم غانم بن مقبول السعدي الطائفي (كان حيا في القرن التاسع الهجري)[5] ، الذي قدم مكة وسمع على ابن حجر في سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م ، شيئا من مروياته في الحديث[6]. كما اشتهر بلال السروي المولود بمدينة الطائف سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م ، بالعلم والمعرفة ، حيث ارتحل إلي مصر ، والقدس وأخذ عنه كبار العلماء ، أمثال : القلقشندي ، والبقاعي ، والسنباطي ، وأثنى الناس عليه ، واشتهر بينهم ، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م[7].

كما أن علماء الحجاز كانت تأتيهم أسئلة وفتاوى من بلاد الطائف وبجيلة ، مما يدل على إهتمام سكان هذه المنطقة بالعلم ، خاصة العلوم الشرعية ، فقد كان الجمال بن ظهيرة (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م) ، يقصد بالفتاوى من بلاد اليمن وزهران والطائف وليّة[8] ، وازدحم

---

(١) مسجد عداس : ينسب إلى عداس رضي الله عنه ، وهو أول من آمن من أهل الطائف ، ويسمى كذلك مسجد الربيع . (العجيمي : إهداء اللطائف ، ص ٨٠).

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ٩٨.

(٣) ن . م . س ، ج ٥ / ص ١٠٤ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ١٠٤ .

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ١٦٠ .

(٦) ن . م . س ، ج ٦ / ص ١٦٠ .

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ١٨ - ص ١٩ .

(٨) ليّة: بكسر اللام وتشديد الياء، وهو واد فحل من أودية الحجاز الشرقية، له ما يزيد على عشرين رافداً يمر جنوب الطائف على بعد ١٥ كيلو متراً . (البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٧/ ص٢٧٢ - ص٢٧٣).

عليه الطلبة من هذه المدن[١].

ولا شك أن وجود مسجد ابن عباس بالطائف كان من الأسباب الرئيسية التي جعلت كثيراً من العلماء يقومون بزيارة هذه المدينة للأخذ عن أئمة هذا المسجد الذين تعاقبوا على الإمامة والخطابة فيه ، فمن خلال المصادر لا يوجد ذكر لحلقات التدريس في هذا المسجد ، ولكن المعروف أن طلبة العلم كانوا يقومون بزيارة العلماء إما في المساجد أو المنازل ، خاصة وأن مدينة الطائف تبدو من خلال مصادر هذه الفترة لم تعرف بها مدرسة واحدة على الأقل ، وهذه التراجم التي ذكرناها ليست سوى أمثلة تدل على أن الطائف وقراها كان بها حركة علمية ساهم فيها علماء الحرمين الشريفين من خلال زياراتهم المتكررة لها.

قرى مكة المكرمة:

امتدت الحركة العلمية المزدهرة في الحرمين الشريفين لتشمل قرى مكة المكرمة ، خاصة قرى وادي نخلة اليمانية ، ووادي نخلة الشامية ، ويعود الإهتمام بهذه المنطقة إلى أن كثير من العلماء كانت لهم تجارة وممتلكات بهذه المنطقة ، مثل المزارع والأوقاف التي يوقفها السلاطين والأمراء على المؤسسات التعليمية في الحرمين الشريفين ، ومن العلماء الذين قاموا بالإمامة والخطابة ، وعقد الأنكحة ، والإرشاد والوعظ بقراها ، محمد بن عبد الرحمن بن عثمان الصيفي أحمد بن محمد ويعرف بابن عثمان الطبري (ت ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م)[٢] الذي سكن بقرية التنضب[٣]من وادي نخلة الشامية مدة سنين ، وأقام بها وخطب وباشر العقود بها[٤] ، وتولى إمامة مسجد التنضب من بعده ابنه محمد (ت ٨١٥هـ/١٤١٢م)[٥] ، كما

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ٩٤ – ص ٩٥ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ١٠٢ – ص ١٠٣.

(٣) تنضب : بالفتح ثم السكون ، وضم المعجمة والباء الموحدة : قرية من أعمال مكة بأعلى نخلة ، فيها عين جارية ونخل (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ / ص ٤٩) ، وقد أطلق عليه أخيراً إسم اليمانيه ، به عينان جاريتان هما : الزيمه وسوله (الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ / ص ٣٨ الهامش ، ابلادي : قلب الحجاز ، ص ١٣) .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ١٠٢ – ص ١٠٣.

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٩٢.

كان عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الرضي محمد بن أبي بكر بن خليل العسقلاني المكي (ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م)[١]، يتولى عقد الأنكحة بأرض خالد بوادي مرّ ، نيابة عن قضاة مكة[٢]، وتولى عقد الأنكحة ، وكتابة الوثائق بهذه القرية يعقوب بن إبراهيم المعروف بأبي الحمد (ت ٨١٣هـ/ ١٤١٠م)[٣] ، إضافة إلى أنه كان يملك عقاراً بهذه القرية[٤]، وعبد اللطيف بن موسى بن عمير القرشي المخزومي ويعرف بالينباوي (ت٨١٨هـ/ ١٤١٥م[٥])، الذي كان على معرفة بالفقه والعربية والوثائق ، مجوداً للكتابة ، وتولى الإمامة بقرية بشرا من وادي نخلة ، وكان يقوم بالإصلاح بين الناس في هذه القرية[٦]، ومحمد بن محمد بن محمد بن سعيد الكمال الصغاني (ت٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م)[٧] ، الذي قرأ على جمع من العلماء في مكة وأجازوه ، وكان على معرفة بالفقه ، وسكن قبل موته مدة طويلة بوادي نخلة ، واستقر في خيف[٨] بني عمير للخطابة والإمامة وعقد الأنكحة بهذه المنطقة[٩]، وكذلك أحمد بن محمد بن يعقوب الشيباني الشهير بابن زبرق

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٤٠٦.

(٢) ن . م . س ، ج ٥ / ص ٤٠٦.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٧ / ص ٤٧١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ص ٢٨١- ص ٢٨٢.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٧ / ص ٤٧١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ٢٨٢.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٤٩١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٣٣٩.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٤٩١ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٣٣٩.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٣٣ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٢٢١ - ص ٢٢٢.

(٨) خيف : بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء ثم فاء. وفي الحجاز أكثر من عشرة مواضع بهذا الإسم منها خيف بني عمير ، ويطلق عليه خيف لأنه مكان نخل كثير ملتف ، (انظر : الفيروزآبادي : القاموس ، ص ١٠٤٦ ، البلادي : معالم مكة التاريخية والأثرية ، ص ٩٩).

(٩) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٣٣.

(ت٨٤٠هـ/١٤٣٦م)[١] ، الذي كان إماما وخطيبا بسولة[٢] من وادي نخلة اليمانية[٣] .
وكذلك تولى هذه الوظائف بهذه القرية ، محمد بن الجمال أبو الوفاء بن الضياء الحنفي (ت٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م)[٣] ، وتولى الإمامة بهذه القرية أيضا ، محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد البلقيني (ت ٨٦٧هـ/١٤٦٢م)[٤] ، كما نزل بوادي مرّ : عبد الرحمن بن سعيد بن عبد الله بن أبي عبد الله محمد بن الرضي العثماني (ت ٨٧٨هـ/١٤٧٣م)[٥].

ينبع:

لا شك أن مدينة ينبع كانت تحظى بعناية من سلاطين مصر وأشراف الحجاز لما تملكه من موقع استراتيجي ، حيث تعتبر إحدى الموانئ الرئيسية للحجاز ، كما اهتم بها علماء الحجاز وغيرهم ، ويظهر ذلك في ولايتهم للقضاء في هذه المدينة ، وكذلك قيام بعض العلماء بالتدريس فيها.

ومن هؤلاء : القاضي موسى بن سليمان بن أحمد أبو الرجال ، الذي كان فقيهًا محققًا ، وعالمًا كبيراً محدثًا ، وقد رحل في سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م إلى ينبع وأسمع فيها من كتب الأئمة على العلامة علي بن علي بن أحمد بن داعس[٦].

وأحمد بن راشد الينبعي الزيدي (ت ٨١٩هـ/١٤١٦م)[٧] ، قاضي ينبع الذي كان يتولى الأحكام الشرعية بهذه المدينة بولاية من الإمام الزيدي صاحب صنعاء[٨].

---

(١) النجم بن فهد : معجم ابن فهد ، ورقة ٥٨ أ ، ابن طولون الفرق العلية ، ورقة ٦٣ ب.
(٢) سولة : بضم السين ، قلعة على رابية بوادي نخلة تحتها عين جارية ونخل ، وهي لبني مسعود بطن من هذيل (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ / ص ٢٨٥).
(٣) النجم بن فهد : معجم بن فهد ، ورقة ٥٨ أ ، ابن طولون : الغرف العلية ، ورقة ٦٣ ب.
(٤) النجم بن فهد: الدر الكمين ، ورقة ٦ ب – ورقة ٧ أ، السخاوي: الضوء اللامع، ج ٧/ ص٨٦.
(٥) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٥ أ.
(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٧٩.
(٦) الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ / ص ٢١٨.
(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٤٠.
(٨) الفاسي : العقد الثمين، ج ٣ / ص ٤٠.

أما محمد بن أحمد القاضي شمس الدين بن زبالة المصري[1]، قاضي ينبع ، فقد اشتهر في هذه المدينة حتى أن البدو والحضر كانوا يأتون للإستفادة من علمه ، واقتدى به كثير من الناس ، وكان ينصر السنة ويكره الزيدية والرافضة[2].

كما أن المقيمين في هذه المدينة كانوا يستفيدون علما ومعرفة من العلماء الذين يمرون بها وينزلون عبر مينائها ، والذين كانوا يقضون بها بعض الوقت للإستراحة من عناء السفر ثم مواصلة الرحلة بعد ذلك ، إما لزيارة المدينة أو مكة ، وذلك يتيح للعلماء الفرصة للأخذ عن بعضهم خاصة علم الحديث ، ويذكر أن ابن حجر العسقلاني إجتمع بالعالم المحدث جار الله بن صالح بن أحمد الشيباني بمدينة ينبع وقرأ عليه أحاديثا من « جامع الترمذي »[3]. وعبدالله بن محمد بن أحمد بن خليفة السعدي العبادي (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٣م)[4] الذي كان إمامًا في علمي الرجال والحديث ، وقد حدّث بأماكن من درب الحجاز[5]

كما أقام بعض العلماء ببعض القرى – بين المدينة ومكة – مثل عبد الرحمن بن عثمان بن محمد بن علي المكي الأصل الفارسكوري الحريري (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)[6] الذي أقام بالأبيار[7] مدة واجتمع بابن الزين فأخذ عنه علم القراءات[8] ، كما كان محمد بن عبدالله بن محمد أبو النصر العجمي المكي (ت ٨٦٩هـ/١٤٦٤م)[9]، يسكن أواسط من هدة[10] بني جابر.

(١) مجهول : تاريخ المحمدين ، ورقة ١٣٦ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١١ / ص ٤٩.
(٢) مجهول : تاريخ المحمدين ، ورقة ١٣٦ ب.
(٣) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٢ / ص ٥٢٧.
(٤) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ٣٨٤ – ص ٣٨٩.
(٥) ن . م . س ، ج ٢ / ص ٣٨٥ – ص ٣٨٩.
(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٩٢ – ص ٩٣.
(٧) أبيار علي : هي ذو الحليفه وهي ميقات أهل المدينة المعروفة ببئر علي ، تبعد عن المدينة بمقدار ٩ كم جنوباً ، وهي اليوم بلدة عامرة (المراغي : تحقيق النصره ، ص ٥٧ ، البلادي : معجم المعالم الجغرافية ، ص ١٠٣ – ص ١٠٤ .
(٨) السخاوي : الضوء اللامع ج٤ / ص ٩٣ .
(٩) ن . م . س ، ج ٨/ص١١٠ .
(١٠) هدة بني جابر : نسبة لبني جابر – بطن من بطون حرب – تقع أول وادي مرّ الظهران ، وتعد من أعمال مكة ، ويصعد إليها من جبل يقال له الظاهر بقرب أبي عروة بوادي فاطمة ، (انظر، جار الله بن فهد، حسن القرى في أودية أم القرى، ورقة ٢٨ ، وانظر نسبتها لبني جابر في: البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص ، وقد ذكرها ياقوت وقال : الهد، بتخفيف الدال من الهدى أو الهدى، بأعلى مر الظهران، ممدرة أهل مكة، والمدرة طين أبيض يحمل منها إلى مكة (معجم البلدان، ج٥/ ص٣٩٥)، وهو المعروف بزماننا هذا بهدي الشام (الفاسي: شفاء الغرام،ج١/ ص٣٧، الهامش).

ولا شك أن هؤلاء العلماء قد أفادوا أهالي هذه القرى بعلمهم.

كما تعرض بعض العلماء للأذى أثناء دعوتهم لأهالي هذه القرى ، وكاد أحدهم أن يلاقي حتفه أثناء عمله ، مثل : عبد الملك بن عبد الحق بن هاشم الحربي المغربي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)[١]، وأصله من ينبع ، وكان يجلس بمسجد الفتح[٢] قرب الجموم[٣] ، ويستميل بعض أهل الأودية المجاورة حتى رجعوا عن مذهب الزيدية ، فتأذى لذلك بعض أهل الخيف وخافوا أن يستميل قلوب الأعراب ويحيدهم عن مذهبهم ، فقصدوه في المسجد وحاول أحدهم أن يتسلق جدار المسجد لأن الشيخ عبد الملك كان ينام فيه ، ولكنه سقط فانكسرت ساقه وإحدى يديه ، واستمر بعد ذلك الشيخ في دعوته للناس[٤].

كما كانت الأماكن المقدسة في الحرمين الشريفين ملتقى لعلماء الحجاز والقادمين إليها أثناء زياراتهم للحج أوالعمرة ، فكتب التراجم لهذه الفترة تتحدث عن مئات العلماء الذين كانوا يلتقون ببعضهم في منى ، وعرفة ، ومزدلفة ، وغيرها من الأماكن المقدسة.

---

(١) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٤٢ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ٨٥.

(٢) مسجد الفتح : بالقرب من الجموم من وادي مرّ ، وهو مشهور بهذا الإسم ، يقال : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلي فيه . (ابن ظهيرة ، جمال الدين محمد جار الله : الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف . الطبعة الخامسة (بيروت ، المكتبة الشعبية ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ، ص ٢٠٩ .

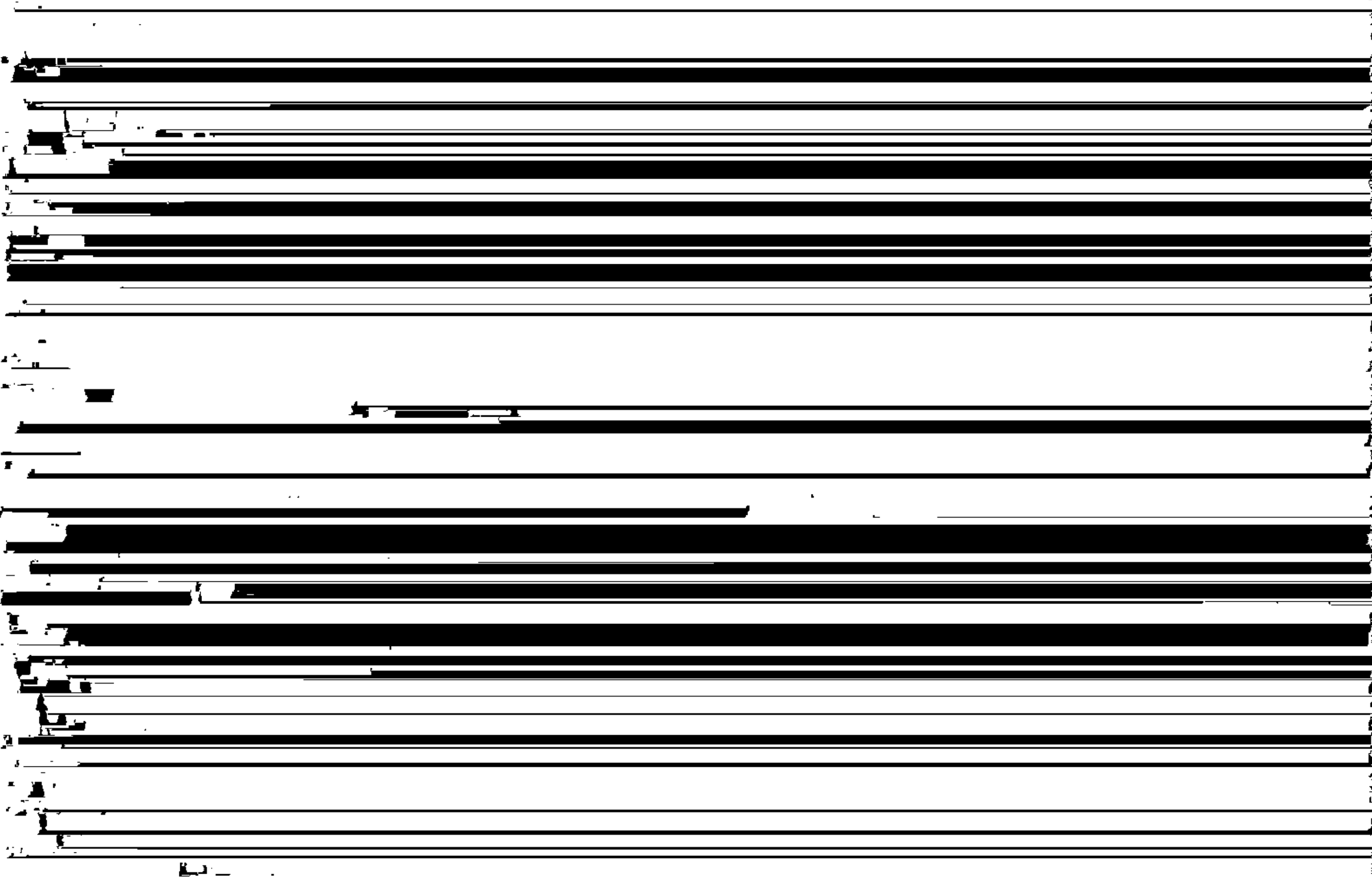
(٣) الجموم : أرض بني سليم ، تقع شمال مكة ، وبها كانت إحدى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، أرسل إليها زيد بن حارثة غازيا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ / ص ١٦٤) ، وتبعد عن مكة ٢٥ كيلومتر ، وسكانها خليط من الأشراف ، (البلادي : معالم مكة التاريخية والأثرية ، ص٢٦٤).

(٤) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٤٢ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ٨٥.

د - دور المرأة ومكانتها في الحركة العلمية بالحجاز :

لم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة في التعليم ، بل جعل تعلم المرأة أمور دينها ، وما تستقيم به حياتها فرضًا يجب عليها أن تتعلمه ، وكل ما يحصل عليه الرجل من الثواب عن العمل الذي يعمله ، تحصل عليه المرأة من غير تفريق بينهما ، قال تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن * فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾[١] ، ويقول سبحانه : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٢] ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : «طلب العلم فريضة على كل مسلم »[٣]. يشمل الرجال والنساء على حد سواء ، فكما أن هذا القدر من العلم يجب على الرجل أن يتعلمه ، كذلك يجب على المرأة أن تتعلمه ، والتقصير فيه خطيئة لا يكفرها إلا الخروج من الجهل به ، روى البلاذري : (قال النبي صلى الله عليه وسلم للشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب : « ألا تعلمين حفصة رقنة النملة ، كما علمتها الكتابة »[٤] ، وعدّ العلماء من النساء المتعلمات في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم : عائشة ، وحفصة ، وأم سلمة أمهات المؤمنين ، وقد ذكر البلاذري أن عائشة وأم سلمة كانتا تعرفان القراءة ولكنهما لا تكتبان[٥].

ولم يقف الإسلام عند تعليم الحرائر والإهتمام بهن ، بل تجاوز ذلك على الحث على تعليم الإماء ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ...



أعتقها فتزوجها ، فله أجران »[1] ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يخرج إلى النساء فيعظهن ويعلمهن ، لأن ترك النساء بغير تعليم يؤدي إلى جهلهن بما يجب عليهن من أمور دينهن ، وحقوق أزواجهن ، وتربية أولادهن . عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ خرج ـ أي إلى النساء ومعه بلال فظن أنه لم يسمع ، فوعظهن وأمرهن بالصدقة »[2].

وليس المراد بالتعليم، تعليم المرأة العلوم الشرعية فقط ، حيث لا مانع أن تتعلم الطب لتعالج الإناث ، وتتعلم المفيد من العلوم لتعلم النساء ، إلى غير ذلك من العلوم التي تفيد بها بني جنسها ، وستجد من الإسلام كل عون في ذلك.

ولا يشترط عليها الإسلام إلا شرطين : الأول : أن تطلب العلم بحشمة ووقار فلا تخالط الأجانب ولا تزاحم الرجال في مجالسهم ، والثاني : أن يكون ما تتعلمه مما يعود عليها بالنفع والخير[3].

ولم يختلف وضع المرأة ومكانتها العلمية بعد هذا العصر بل استمر على ما هو عليه في العصر المملوكي ، حتى أن كثيراً من علماء الحجاز كانوا يفردون فصولا[4] في مؤلفاتهم للحديث عنهن وعن دورهن العلمي.

ولقد ذكرت لنا كتب التراجم أسماء كثيرة من عالمات العصر ونشاطهن العلمي ، ويلاحظ أن معظمهن كان لهن إهتمام بعلم الحديث ، كما أن معظم النساء في الحجاز نشأن في منازل الأسر العلمية التي ذكرتها سابقا . ويلاحظ أن إجازتهن وأخذهن للعلم كان على أيدي آبائهن أو أجدادهن أو إخوانهن ، أو أزواجهن ، أو أبنائهن ، أو غيرهم من المحارم ، وإذا كان هناك بعض النساء أجاز لهن بعض العلماء من غير هؤلاء المحارم فإن هذه الإجازات

---

(١) البخاري ، ج ١ / ص ١٩٠.

(٢) البخاري ، ج ١ / ص ١٩٢.

(٣) الوكيل ، محمد السيد ، الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه ، الطبعة الأولى (جدة ، دار المجتمع للنشر والتوزيع ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ، ص ٣٧.

(٤) مثال ذلك : الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ ، النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، الدر الكمين.

طلبها لهن آباؤهن في صغرهن . وبادئ ذي بدء سوف نتعرض للنساء اللاتي كان لهن دور في الحركة العلمية من خلال الأسر الحجازية.

ومنهن:

الأسر الطبرية . ومنهن ، خديجة بنت علي بن أبي بكر (ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م)[١]، التي كان لها نشاط في علم الحديث ، وقد روت بالإجازة عن جماعة من الشيوخ ، وخُرّج لها وحدّثت .[٢]

وفاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر (ت بعد ٧٠٠هـ/١٣٠٠م)[٣]، روت عن خديجة بنت علي ، وسمع منها الشريفان أبو الخير وأبو المكارم ابنا عبد الله الفاسي[٤]، وفاطمة بنت المحب الطبري ، أجازت لجماعة من شيوخ التقي الفاسي سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م،[٥] وسيدة بنت إبراهيم الرضي بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ت٧٥٧هـ/١٣٥٦م)[٦]، وقد سمعت من أبيها ، وأجازت للحافظ زين الدين العراقي ، وحدّثت[٧] . وعائشة بنت عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر (كانت حية سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م)[٨]، روى عنها بالإجازة محب الدين النويري ، وحدّثت[٩] . وست الكل بنت الرضي إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، سمعت من أبيها « خماسيات ابن

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢١٠ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٣ / ص ١٠٣.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢١٠ .

(٣) ن . م . س ، ج ٨ / ص ٢٩١.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٩١ .

(٥) ن . م . س ، ج ٨ / ص ٢٩٥.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٥١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ١٨٢.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٥١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ١٨٢.

(٨) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٦٧ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٢٣٦.

(٩) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٦٧ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٢٣٦.

المنقور[1] في سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م ، وحدثت عنه ، وسمع منها زين الدين العراقي[2].

وكان للأختين أم الحسن وأم الحسين بنتي المحب محمد بن الشهاب أحمد الطبري ، جهود لا بأس بها في الحديث ، فقد حدثتا بالحديث المسلسل بالأولية[3]، وتساعيات[4] الرضي ، سمع ذلك منهما محمد بن علي بن محمد الصالحي المكي[5]. وعلماء بنت أبي اليمن (ت ٨٢٦هـ/١٤٢٢م)[6]، التي سمعت وأجيزت ، وروى عنها النجم بن فهد[7]، وأختها فاطمة المدعوة مباركة (ت ٨٣٦هـ/١٤٣٢م)[8]، التي سمعت وأجيزت كأختها وحدّثت ببعض مروياتها ، وسمع منها التقي بن فهد وبنوه[9]. وأم كلثوم ابنة المحب محمد ابن أحمد الرضي وتسمى سعيدة (ت ٨٣٧هـ/١٤٣٣م)[10]، أجاز لها في سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م ، جماعة من العلماء ، منهم البلقيني ، وابن الملقن ، والعراقي ،

---

(١) خماسيات ابن المنقور ، وهو أحمد بن محمد بن منقور البغدادي المتوفي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، أفرد خماسياته من الدارقطني (الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٧٤).

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٤٣.

(٣) « المسلسل بالأولية » : هو حديث « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »وسمي بالأولية لأن كل راو يقول فيه «حدثني فلان وهو أول حديث سمعته منه » (انظر ابن حجر: المجمع المؤسس ، تحقيق ، يوسف المرعشلي ، (بيروت ، دار المعرفة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م) ج ١ / ص ٨٦ - ص ٨٧ ، الأيوبي : المناهل السلسلة في الأحاديث المسلسلة (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٣م) ، ص ٦.

(٤) حينما نقرأ حدّث بالسباعيات والثمانيات والتساعيات ، يعني في سندها سبعة رواة وثمانية رواة وتسعة رواة (انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ / ص ٥٢٢ - ص ٥٢٣).

(٥) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٤٨.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٨٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٨٤ ، أبوالخير : المختصر من كتاب نشر النور والزهر ، ص ٣٤٢.

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٨٤.

(٨) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢١٤ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٩٩.

(٩) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٩٩.

(١٠) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٥١.

والهيثمي، وآخرون ، وكانت دينة خيِّرة كاتبة قارئة حفظت أربعي النووي[1] ، وعرضتها بكاملها على جماعة كأبيها وعم والدتها علي بن أحمد النويري ، وخالها المحب النويري[2] .
وزينب بنت عبد الله بن الزين أحمد (ت ٨٣٨هـ/١٤٣٤م)[3] ، سمعت من الكمال بن حبيب ، وأجاز لها آخرون ، وأجازت للنجم بن فهد وغيره[4].

كما عرف من أسرة الطبري الشيبانية : آسية بنت جار الله بن صالح بن أبي المنصور الشيباني الطبري (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م)[5] ، التي تلقت العلم بمكة على يد نور الدين بن سلامة ، وكمال الدميري ، والبرهان بن صديق ، والقاضي زين الدين أبي بكر المراغي ، وعائشة ابنة محمد بن عبد الهادي ، ولم تقم بالتحديث ، وإنما أجازت لعدد من طلاب العلم، وروى عنها النجم بن فهد بعض الأحاديث[6].

ومن أسرة الطبري كذلك: زينب بنت الرضي محمد بن المحب محمد (ت٨٦٢هـ/١٤٥٧م)[7]، اقتصر نشاطها أيضًا على الإجازة ، فقد أجازت للسخاوي ، والنجم بن فهد وغيرهما[8].

---

(١) هو الإمام الفقيه الحافظ محي الدين أبو زكريا بن شرف بن مري الحزامي الحوراني ، ولد سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م ، وصنف عدة مؤلفات في الحديث والفقه منها : « الروضة » ، «شرح المهذب » ، « المنهاج » ، « التحقيق » ، « رياض الصالحين » ، « تهذيب الأسماء واللغات » وغير ذلك توفي سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م . (انظر الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٤ / ص ١٤٧٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ / ص ٢٩٤ ، السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٥١٣).

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٥١.

(٣) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢٠٥ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٤٣.

(٤) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢٠٥ أ .

(٥) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٠٣ ، الدر الكمين ، ورقة ١٩٨ أ.

(٦) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٠٣.

(٧) ن . م . س ، ص٣١٧، الدر الكمين، ورقة ٢٠٦ أ، السخاوي: الضوء اللامع، ج١٢/ ص٤٨.

(٨) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣١٧ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٤٨.

أمـا أسـرة القسطلاني ، فـقـد عـرف منهن : فـاطمـة بنت القطب مـحـمـد (ت٧٢١هـ/ ١٣٢١م)[١] ، سمعت وحدّثت ، سمع عليها أحمد بن محمد الطبري جزءاً من فوائد أبي بكر بن أبي داود السجستاني وغيره ، وحدثت بسداسيات الرازي[٢] ، سمعها منها سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م الجمال محمد بن أحمد بن عبد المعطي ، وخليل المالكي ، وأحمد بن سالم بن ياقوت المؤذن[٣] ، وأختها عائشة (ت ٧١٦هـ/١٣١٦م)[٤] ، حدّثت بسداسيات الرازي ، وأمالي الجوهري[٥].

وست الكل بنت أحمد بن محمد بن الزين (ت ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)[٦] ، سمع منها التقي الفاسي وخرّج لها الحافظ الأقفهسي جزءاً[٧]. وخديجة بنت محمد بن حسن بن الزين (ت ٨٤٦هـ/١٤٤٢م)[٨] ، أجيزت وأجازت للنجم بن فهد[٩]. وهديّة ، وتسمى أيضا أم الهدى بنت عبد الله بن أحمد بن حسن بن الزين (ت ٨٦٠هـ/١٤٥٥م)[١٠] ، كانت عالمة في الحديث الشريف ، أجيزت وأجازت للسخاوي والنجم بن فهد[١١].

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٨٦ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ / ص ٢٢٧.

(٢) سداسيات الرازي : لمسند الديار المصرية أبي عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي المتوفي سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م . (الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٧٤).

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٨٦ .

(٤) ن٠م٠س ، ج ٨ / ص ٢٧٠.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٧٠.

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٤٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٥٧.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٤٤.

(٨) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣١٣ ، الدر الكمين ، ورقة ٢٠١ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٣٠.

(٩) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣١٣ ، الدر الكمين ، ورقة ٢٠١ أ .

(١٠) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٣٠ ، الدر الكمين ، ورقة ٢٣٢ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٣٢.

(١١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٣٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٣٢.

أما أسرة الفاسي : فالمصادر المختلفة عن هذه الفترة لم تسعفنا إلا بذكر عدد قليل من النساء اللاتي كان لهن نشاط ملموس في الحركة العلمية ومنهن : منصورة بنت علي بن أبي عبد الله (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م)[١]، التي أجيزت وأجازت للفاسي[٢].

وأم الهدى ابنة أبي الفتح بن أحمد الحسني الفاسي (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)[٣]، أجاز لها جماعة من العلماء ، كما أجازت للنجم بن فهد ، والسخاوي ، وحدّثت باليسير[٤]. وأم كلثوم ابنة محمد بن أبي الفتح محمد بن أحمد الفاسي (ت ٨٧٢هـ/١٤٦٧م)[٥] روى عنها النجم بن فهد حديثا[٦].

كما كان لنساء **أسرة بني ظهيرة** دور في الحركة العلمية بالحجاز ، مثل : أم كلثوم بنت الجمال بن محمد (ت ٨٣٧هـ/١٤٣٣م)[٧]، التي أجازت للنجم بن فهد وروى عنها[٨].

وست الأهل بنت علي بن عبد الكريم بن أحمد (ت ٨٤٩هـ/١٤٤٥م)[٩]، التي أجازت ولم تحدّث[١٠]، وأختها كمالية (ت ٨٥٧هـ/١٤٥٣م)[١١]، التي أجازت

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٣١٧ – ص ٣١٨.

(٢) ن . م . س ، ج ٨ / ص ٣١٨.

(٣) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٠٧ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٦٠ ، التبر المسبوك ، ص ٣٨١، وذكر وفاتها سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م.

(٤) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٠٧ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٦٠.

(٥) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢٢٩ أ .

(٦) ن . م . س ، ورقة ٢٢٩ أ .

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٥١.

(٨) ن . م . س ، ج ١٢ / ص ١٥١.

(٩) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣١٩ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٥٣.

(١٠) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣١٩ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٥٣.

(١١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٢٦ ، الدر الكمين ، ورقة ٢١٦ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٢٠.

للسخاوي ، وروى عنها النجم بن فهد[١].

أما نساء بيت النويري ، فكان منهن ، أم الخير بنت محمد بن أحمد (ت٨٠٥هـ/١٤٠٢م)[٢]، التي أجازت للنجم بن فهد[٣] . وزينب ابنة محمد بن أحمد بن عبد العزيز (ت٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م)[٤]، التي سمعت من الكمال بن حبيب وأجاز لها جمع من العلماء ، وكانت تقرأ القرآن ، وتذاكر بأخبار وأشعار حسنة وزارت المدينة مراراً ، وحدثت ببدر[٥] بشيء من مروياتها . وإضافة إلى ذلك فقد كانت ناظرة على أوقاف والدتها[٦].

وسعيدة ابنة القاضي عز الدين محمد قاضي الحرمين الشريفين النويري (ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م)[٧]، التي تلقت العلم على يد علماء مكة ، واهتمت بدراسة الحديث أجاز لها البلقيني،والعراقي،والهيثمي، وأحمد بن عمر الجوهري[٨]،ومريم ابنة الأذرعي[٩]،

---

(١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٢٦ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٢٠.

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٠٥ ، الدر الكمين ، ورقة ٢٢٦ أ ، السخاوي : الضوء اللامع، ج ١٢ / ص ١٤٥.

(٣) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٠٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٤٥.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٣٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٤٦.

(٥) بَدْر : بالفتح ثم السكون ، ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء ، وبهذا الماء كانت الوقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ / ص ٣٥٧ - ص ٣٥٨).

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٣٢.

(٧) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٠٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٤٥.

(٨) هو شهاب الدين أحمد بن عمر بن علي بن عبد الصمد البغدادي الجوهري ، ولد سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، وقدم من بغداد إلى مصر وسمع بها ، وقرأ عليه ابن حجر وأخذ عنه ، وتوفي سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م . (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٨١).

(٩) مريم بنت أحمد بن محمد بن إبراهيم الأذرعي ، محدثة ذات دين وصلاح ومحبة للعلم ، ولدت بالقاهرة سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م ، وسمعت على الكثير ، كما أجازت الكثير من العلماء ، ومنهم ابن حجر ، وخرجت لنفسها معجما في مجلد وتوفيت سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م. (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٢٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٥٤).

وفاطمة ابنة عبد الهادي[١]. وقد تلقى النجم ابن فهد العلم على يديها وروى عنها بعض الأحاديث[٢]. وغصون بنت علي النويري (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)[٣]، وأختها أم الوفا ابنة القاضي علي النويري (ت ٨٥٦هـ/م)[٤] ، وأختهن كمالية (ت٨٦٧هـ/١٤٦٢م)[٥]، وخديجة بنت عبد الرحمن بن علي (ت ٨٧٦هـ/١٤٧١م)[٦]، وكلهن أجزن السخاوي ، وكلهن لهن إجازة في رواية الحديث من بعض محدثي العصر.

ومن **نساء أسرة ابن فهد** اللاتي شاركن في النهضة العلمية بالحجاز : أم الحسن بنت محمد (ت ٨٢٧هـ/١٤٢٣م)[٧]، عمة التقي ، فقد أجيزت ، وحدثت وسمع منها النجم بن فهد[٨]. ووالدة التقي بن فهد - فاطمة - المدعوة حليمة بنت أحمد بن محمد الأصفوني (ت٨٣٧هـ/١٤٣٣م)[٩]، التي سمع منها ولدها التقي وبنوه[١٠]، وهي إن لم تكن من آل فهد نسبًا ، إلا أنها ضمن هذه الأسرة الطيبة ، وأم لفرع من فروعها .

---

(١) فاطمة بنت محمد بن عبد الهادي القدسية الصالحية ، محدثة ولدت سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م ، وأسمعت الكثير علي الحجار ، وغيره من العلماء ، وحدثت وسمع منها الفضلاء ، وقرأ عليها ابن حجر وغيره الكثير من الكتب في دمشق ، توفيت سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م . (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٠٣).

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٠٥.

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٨٥.

(٤) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٠٧ ، الدر الكمين ، ورقة ٢٣٢ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٦١ ، التبر المسبوك ، ص ٣٨١.

(٥) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٢٥ ، الدر الكمين ، ورقة ٢١٦ أ ، السخاوي : الضوء اللامع، ج ١٢ / ص ١٢٠.

(٦) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣١١ ، الدر الكمين ، ورقة ٢٠٠ أ ، السخاوي : الضوء اللامع، ج ١٢ / ص ٢٨.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٢٣٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٣٧.

(٨) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ١٣٧.

(٩) ن . م . س ، ج ١٢ / ص ٨٨.

(١٠) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢ / ص ٨٨.

وخديجة أو سعادة بنت عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٦٠هـ/١٤٥٥م)[(١)]، زوجة التقي ووالدة النجم وأبي زرعه . فقد سمعت بنفسها وأجيزت ، وسمع منها الفضلاء ، وقرأ عليها السخاوي « بلدانيات السلفي »[(٢)] ، وكانت خيِّرة صالحة محسنة للفقراء والأرامل[(٣)]. وهناك كمالية أخت التقي (ت ٨٦٦هـ/١٤٦١م)[(٤)]، سمعت في صغرها وأجاز لها جماعة ، وأجازت للسخاوي[(٥)]. وست قريش فاطمة بنت التقي (ت٨٧٩هـ/١٤٧٤م)[(٦)]، أجاز لها علماء من الحرمين، وبيت المقدس ، والخليل ، ومصر ، ودمشق، وحلب ، وحماه وحمص ، وبعلبك، وطرابلس ، وغزة ، والرملة ، والإسكندرية ، وسمعت بنفسها ، وأجازت لأخيها النجم[(٧)]. وكذلك أم هانيء - زينب ابنة التقي (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)[(٨)] عالمة ورحّالة ، أجازت لأخيها النجم بن فهد والسخاوي[(٩)]. وكمالية ابنة نجم الدين محمد بن أبي الخير

---

(١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣١٢، الدر الكمين ، ورقة ٢٠٠ب، السخاوي : الضوء اللامع، ج ١٢/ص ٢٨.

(٢) بلدانيات السلفي ، وهو أن يروي عن أربعين شيخًا في أربعين بلدة ، والسلفي هو أبوطاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني نزيل الإسكندرية ، دخل معظم البلدان الإسلامية ، توفي سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م وله كثير من المصنفات (انظر برنامج ابن جابر الوادآشي ، ص ٢٧٠، الكتاني : فهرس الفهارس، ج ٢/ص ٩٩٤).

(٣) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣١٢، الدر الكمين ، ورقة ٢٠٠ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص٢٨.

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٢١.

(٥) ن.م.س.، ج١٢/ص ١٢١.

(٦) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٤٠٤، الدر الكمين ، ورقة ١٠٨ أ، وذكر إسمها السخاوي وقال « ستأتي قريبًا» ولم يذكرها - (الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٠٤).

(٧) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٤٠٤، الدر الكمين ، ورقة ٢٠٨ أ.

(٨) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٩٧، الدر الكمين ، ورقة ٢٣١أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٥٩.

(٩) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٩٧، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ ص١٥٩.

(ت٨٦٦هـ/١٤٦١م)[١] ، التي اهتمت بالأخذ عن العلماء ، فسمعت على القاضي زين الدين أبي بكر المراغي « الصحيحين » ، و « السنن لأبي داود » ، و « صحيح ابن حبان » ، و«الموطأ» ، و « السيرة لمغلطاي»[٢]. وغير ذلك على عدد من العلماء ، مثل « السيرة » لابن اسحاق، « وتاريخ مكة » للأزرقي ، كما روى عنها النجم بن فهد بعض الأحاديث[٣].

وست الأهل بنت تقي الدين ابن فهد (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م)[٤] حضر بها النجم بن فهد على عدد من العلماء ، وسمعت الكثير عليهم ، ورحلت إلى عدد من المدن الإسلامية ، أجاز لها ابن حجر ، وعائشة بنت على الكناني[٥]. وعائشة بنت ابراهيم الشرائحي[٦] والبرهان الحلبي وغيرهم[٧]. كما أخذت الكثير من الجمال أحمد بن على النويري كتاب « الرياض النضرة» للمحب الطبري ، ونور الدين بن سلامة « سنن أبي داود » ، و «صحيح البخاري» ، و «السنن الصغرى » للنسائي و «سنن ابن ماجه » و « مسند الإمام أحمد»، كما أخذت عن

---

(١) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢١٨أ، السخاوي: الضوء اللامع ، ج ١٢/ص١٢١-١٢٢.

(٢) هو مغلطاي بن قليج بن عبد الله الحنفي ، ولد سنة ٦٨٩ هـ/١٢٩٠م، كان عارفًا بالأنساب ، وتولى التدريس بالمدرسة الظاهرية ، وله الكثير من المصنفات ، منها هذا الكتاب ويقال له « الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم». وتوفى سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م ، (السيوطي : ذيل تذكرة الحفاظ ، ص ٣٦٥، طبقات الحفاظ ، ص ٥٣٧، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦/ص١٩٧).

(٣) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢١٨أ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ ص ١٢٢.

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٤٦ - ص ١٤٧.

(٥) هي عائشة بنت علي بن محمد بن علي الكناني القاهرية الحنبلية ولدت سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م بالقاهرة ، وسمعت الكثير على علماء عصرها ، وأثنى عليها كثير من العلماء ومنهم المقريزي ، وحجت وحدثت بمكة. توفيت سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م . (ن . م . س . ، ١٢/ص ٧٨- ص٧٩).

(٦) هي عائشة ابنة الصارم إبراهيم خليل بن عبد الله بن محمود بن يوسف الزبيدية السنجارية الأصل ثم الدمشقية ، وتعرف بابنة الشرائحي . ولدت سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م ، وسمعت وأسمعت الكثير من مروياتها ، وأخذ عنها السخاوي ، توفيت سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م.(السخاوي: الضوء اللامع ، ج١٢/ص ٧٣).

(٧) ن . م . س . ، ج ١٢/ص ١٤٧.

الجمال محمد المرشدي كتاب «الأنساب» للزبير بن بكار ، وقصيدة « البردة» للبوصيري ، وأجاز لها مشايخ الحرمين ، وبيت المقدس ، والخليل ، والقاهرة ، ودمشق ، وحلب ، وبعلبك ، وحمص ، وحماة ، وغزة ، والرملة[١] .

ومن المشاركات أيضا في نشاط هذه الأسرة : جدة النجم بن فهد لأمه ، بدور بنت عبدالله المريسيه (ت ٨٥٠هـ/١٤٤٦م)[٢] ، مستولدة عبد الرحمن بن أبي الخير محمد ، وقد أجازت للنجم بن فهد[٣] .

ويهب الله ابنة عبد الله الحبشية (ت ٨٨١هـ/١٤٧٦م) [٤]، مستولدة تقي الدين بن فهد ، قدمت مكة سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م ، وعمرها عشر سنوات ، وسمعت من ابن الجزري «مسند الإمام أحمد» بكامله والكثير من « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ، ومن نور الدين بن سلامة ، ومحمد بن أبي بكر المرشدي « صحيح ابن حبان» و « الأنساب» للزبير بن بكار ، « صحيح البخاري» ، « النسك الكبير» للعز بن جماعة ، وقد أجاز لها من القاهرة ، ابن حجر وغيره ، ومن دمشق شمس الدين الكفيري، ومن مكة كثير من العلماء ، ومن اليمن الحافظ جمال الدين الخياط[٥]، وغيرهم[٦]. وهاتان الشخصيتان الأخيرتان لم تكونا من آل فهد ، إلا أنهما تربتا في دوحتهم ونهلتا من علومهم وسارتا سيرتهم.

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٤٦ - ص١٤٧.

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٠٩، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٢.

(٣) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٠٩، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٢.

(٤) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢٢٢ ب.

(٥) جمال الدين محمد بن الإمام أبي بكر رضي الدين بن محمد الحافظ الجليل المفتي ، حافظ البلاد اليمنية. أخذ عن الفيروزآبادي ، وانتهت إليه رياسة الحديث ببلده ، وتوفي سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م . (السيوطي: ذيل تذكرة الحفاظ ، ص ٣٨٠، طبقات الحفاظ ، ص ٥٥١ - ص ٥٥٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧/ص ٢٣١).

(٦) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢٢٢ ب.

كما عرف من نساء أسرة الذروي كمالية (ت ٨٨٠هـ/١٤٧٥م)[١] ، أخت أحمد ومحمد الكمال . فقد قرأ عليها بمكة أبو الفضل الصفدي بحضرة النجم بن فهد ، وأجازت للسخاوي[٢] .

وكانت النساء في الحرمين الشريفين يأتين إلى المساجد إما للعبادة أو لسماع الخطب والمواعظ ، كما كن يلقين المواعظ والدروس من خلال منازلهن والأربطة ، وكن يحضرن المواعيد بها ، وقد أجازت بعض العالمات في الحرمين الشريفين لكثير من الرجال والنساء. ومثال ذلك بعض نساء الأسر التي ذكرت سابقًا ، وكذلك ، فاطمة بنت طنطاشي بن كمشتكين البغدادية (ت ٦٥٠هـ/١٢٥٢م)[٣]. التي حدثت وسمع منها قطب الدين القسطلاني ، وشرف الدين الدمياطي ببغداد ، وسكنت مكة[٤].

وزينب بنت مكي بن علي بن كامل الحرازي (ت ٦٨٨هـ/١٢٨٩م)[٥] ، التي تولت التدريس وازدحم عليها الطلبة[٦]. وعائشة بنت إبراهيم بن أحمد الطائي (ت٨١٧هـ/١٣١٨م)[٧]، التي أجازت للبرزالي[٨]، والقسطلاني ، والدمياطي [٩]، وهم من أكابر المحدّثين في زمانهم.

---

(١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٢٨، الدر الكمين ، ورقة ٢١٧ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٢١

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٢٨، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٢١.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨ / ص ٣٠٠

(٤) ن.م.س . ج ٨/ص ٣٠٠.

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٨/ص ٣٠٠

(٦) ن.م.س.. ج ٨/ص ٣٠٠.

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨/ص ٢٦٥ - ص ٢٦٦.

(٨) هو مؤرخ العصر علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن يوسف الدمشقي ، ولد سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، وسمع كثيراً ورحل ، وأمعن في طلب الحديث ، وخرج لنفسه معجمًا في سبع مجلدات، وكان عارفًا بالرجال لاسيما شيوخ عصره، مات بمكة سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م. (ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١/ ص٣١٩، السيوطي: ذيل تذكرة الحفاظ، ص٣٥٣، طبقات الحفاظ، ص٥٢٦).

(٩) هو الإمام العلامة شيخ المحدثين شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف ، ولد سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م ، وتفقه وبرع في الفقه وطلب الحديث ، صنف كتاب «الخيل» و « الصلاة الوسطى» مات سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م. (الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٤/ص ١٤٧٧، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١/ص ٣٥٧، طبقات الحفاظ، ص ٥١٥).

وحرصت المرأة في الحرمين الشريفين على تحصيل الإجازات من العلماء والشيوخ ، مثل: أم ريم بنت علي بن ثاقب القرشية السهمية المكية (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م)(١)، التي أجاز لها في سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م، الدشتي ، والقاضي سليمان بن حمزة ، وجماعة من أولاد القاضي جمال الدين بن ظهيرة(٢) . وأم كلثوم بنت القاضي محمد بن عبد الله بن فهد (ت٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م)(٣)، التي أجاز لها ، الرضى الطبري ، وأبو العباس الحجار ، وأحمد بن كتغدي ، والقطب الحلبي ، والدمياطي ، وغيرهم(٤). وفاطمة بنت أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن القرشي العمري الحرازي المكي (ت ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م)(٥)، التي سمعت كثيراً من كتب الصحاح وغيرها في علم الحديث (٦)، وأجاز ها من مكة تقي الدين التوزري ، والعفيف الدلاصي ، كما أجازها علماء من دمشق. وحدثت بالحرمين الشريفين ، وسمع عنها الفضلاء، وعمّرت وصارت مسندة مكة في علم الحديث، وكذلك زينب ابنة أحمد بن ميمون بن قاسم التونسية الأصل المكية ، أم أحمد (ت بعد ٧٨٥هـ/١٣٨٣م)(٧) ، وتعرف ببنت المغربي وقد سمعت في مكة من الفخر التوزري ، وحدثت وسمع منها الفضلاء(٨) .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨/ص ٣٤٢.

(٢) ن·م·س·، ج ٨/ص ٣٤٢.

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٨/ص ٣٥١ - ص ٣٥٢.

(٤) ن·م·س·، ج ٨/ص ٣٥١ - ص ٣٥٢.

(٥) النجم بن فهد : تراجم لمشايخ شيختنا سارة بنت العز بن جماعة ، مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ميكروفيلم رقم ١١٣٨، عن دار الخطيب بالقدس، ورقة ٢٦ ب، ورقة ٢٧أ.

(٦) النجم بن فهد :تراجم لمشايخ شيختنا ساره، ورقة ٢٧أ

(٧) ن·م·س·، ورقة ١٣أ

(٨) النجم بن فهد : تراجم لمشايخ شيختنا ساره ، ورقة ١٣أ.

ومن النساء كذلك ، زينب بنت أحمد بن محمد بن موسى الشويكي المكي (ت٨٨٦هـ/ ١٤٨١م)[١] . التي أخذت الكثير من العلوم الإسلامية على يد علماء مكة المكرمة والقادمين إليها ، فقد حضرت في الخامسة من عمرها على البرهان بن صديق ، وسمعت منه « سنن ابن ماجه » ، وكتاب « أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم »[٢] وجزء من حديث أبي يعلى الخليل، ومجلسًا من « الملل» وجزء من « حديث الإفك» ، وحدثت بها مع جميع « سنن ابن ماجة» سمع منها عمر بن فهد وغيره ، كما حدثت ببعض الكتب ، وأجاز لها في سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م كثير من العلماء[٣] .

وحصلت العديد من نساء الحرمين الشريفين على إجازات بالمراسلة من علماء الأقطار الإسلامية ، وعادة ما تكون هذه الإجازات يطلبها آباؤهن لهن. وهناك من نساء الحرمين الشريفين من أجزن بالإستدعاءات – اي أن المستجيزين كتبوا إليهن استدعاءات يطلبون فيها إجازاتهن. ويتضح ذلك من خلال إجازات العلماء لهن في السنوات الأولى من عمرهن، ومثال ذلك : صفية ابنة ياقول بن عبد الله الحسيني (المولودة سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)[٤]، خالة النجم بن فهد ، فقد سمعت من الشيخ نور الدين بن سلامة ، وأجاز لها في سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م ، وما بعدها ، المرجاني ، وابن صديق ، وأبي بكر المراغي ، والعراقي ، وعبد الكريم بن محمد بن عبدالكريم الحلبي وجماعة كثيرون ، أخذ عنها ابن فهد ، وقرأ عليها وروى عنها بعض الأحاديث[٥] . وكذلك فاطمة بنت محمد بن حسن بن سعد بن محمد

(١) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢٠٤ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج١٢/ص ٣٩.

(٢) هو كتاب « أخلاق النبي » لمحمد بن عبد الله الوراق المتوفى سنة ٢٤٩هـ/ص ٨٦٣م. (المنجد، صلاح الدين : معجم ما ألف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م). ص ١٨٤.

(٣) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢٠٤ أ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ٣٩.

(٤) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢١٠ أ، ورقة ٢١٠ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ٧١ – ص ٧٢.

(٥) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢١٠ أ ، ورقة ٢١٠ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ٧١ – ٧٢.

ابن يوسف بن حسن أم هاني. ناصر الدين القرشي الزبيري الفاقوسي (المولودة سنة ٧٨٨هـ/١٤٨٦م)[١] ، التي أسمعها أبوها في صغرها من التنوخي ، وقد أخذ عنها النجم بن فهد[٢] وكمالية ابنة العلامة نجم الدين محمد بن أبي بكر بن على بن يوسف الأنصاري المكي الشهير بالمرجاني (ت ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م)[٣] ، التي سمعت في صغرها على كثير من العلماء ، وأجازها ، البرهان الشامي ، وأحمد بن خليل العلائي، وغيرهم. وحدثت وسمع منها الفضلاء في مكة المكرمة ، وكانت إلى جانب التحديث تجيد القراءة والكتابة . وقد أخذ عنها النجم بن فهد الكثير من الأحاديث الشريفة[٤] ورقية ابنة الشيخ عبد القوي بن محمد بن عبد القوي المكي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)[٥] ، التي أجازها في سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م، البرهان بن صديق ، والحافظ الهيثمي ، والحافظ العراقي ، وقد أخذ عنها النجم بن فهد[٦] .

كما عرفت من نساء الحرمين الشريفين ، أم الحسن بنت أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد المعطي بن مكي بن طراد الأنصاري (ت ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م)[٧]، التي سمعت من زينب ابنة أحمد بن ميمون التونسي « البلدانيات » للسلفي ، وأجاز لها في سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م وما بعدها ، صلاح الدين العلائي، وسالم المؤذن ، والعز بن جماعة ، ومحمد بن عمر بن قاضي شهبة ، وكذلك أجاز لها إخوتها الشهاب الحنفي ، والجمال بن عبد المعطي ، غير أنها لم تحدث[٨] . وكذلك حُسْن ابنة الشيخ محمد الحافي بن حسن السعدي المكي

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٠٢.

(٢) ن.م.س. ، ج ١٢/ص ١٠٢.

(٣) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٢٨، الدر الكمين ، ورقة ٢١٧ ب، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٢١.

(٤) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣٢٨، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٢١.

٥) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢٠٢ ب.

(٦) ن.م.س. ، ورقة ٢٠٢ ب.

(٧) النجم بن فهد : معجم ابن فهد ، ورقة ٦٤ ب.

(٨) ن.م.س. ، ورقة ٦٤ ب.

(ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م)[١]، التي سمعت من التقي البغدادي في سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م ، وحدّثت بذلك ، وسمع منها النجم بن فهد[٢] . وكذلك صفية ابنة محمد بن محمد بن عمر البسكري المدنية نزيلة مكة، (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)[٣]، سمعت على جدها وعلى البرهان بن صديق « الأربعين المخرجة »[٤]، وزينب ابنة يوسف بن إبراهيم بن أحمد البنا المدنية (ت٨٤٩هـ/١٤٤٥م)[٥]، سمعت من أبيها سنة ٨٧٩هـ/١٣٨٧م، نسخة « ابن مسهر »[٦] وقد أنابها الشهاب أحمد بن علي الجزري بسنده ، وسمعت من البرهان بن صديق « الأربعين المخرجة » للحجار بحضوره عليه ، وأجاز بها ابن الذهبي ، وابن قوام ، وغيرهم ، وأخذ عنها النجم بن فهد وغيره من العلماء[٧] . وكمالية ابنة محمد بن أحمد بن قاسم العمري الحرازي (ت ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م)[٨]،والدة قاضي مكة وفقيهها أبو السعادات ابن ظهيرة ، فقد سمعت من عمّتها فاطمة بعض « المصابيح » للبغوي[٩] ،وأجيزت وأجازت لكثير من

---

(١) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٩٩ ب.

(٢) ن٠م٠س٠، ورقة ١٩٩ ب.

(٣) النجم بن فهد : معجم ابن فهد، ورقة ٩٦ ب.

(٤) ن٠م٠س٠، ورقة ٩٦ ب.

(٥) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢٠٦ ب، ورقة ٢٠٧ أ، السخاوي : التبر المسبوك، ص ١٢٩.

(٦) نسبة إلى أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى الغساني الدمشقي شيخها ومحدثها ، روى عن مالك ، وغيره ، وكان إمام أهل الشام ومرجعهم في الجرح والتعديل ، توفى سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م. (الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ١/ص ٣٨١، السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص١٦٦- ص ١٦٧).

(٧) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٢٠٦ ب ، ورقة ٢٠٧ أ، السخاوي : التبر المسبوك ، ص١٢٩.

(٨) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١٢٠، التبر المسبوك ، ص ١٣٠

(٩) هو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان البغوي الأصل البغدادي ، صنف «معجم الصحابة » ، و « الجعديات» ، توفى سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م. (الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٢/ص ٧٣٧، السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٣١٥).

العلماء[1]. وكذلك مؤنسة خاتون المدعوة فاطمة ابنة محمد بن علي بن محمد بن هبيرة بن الحسن بن يوسف (ت ٨٥١هـ/١٤٤٧م)[2]، ابنة المحدث المسند شمس الدين أبي عبد الله القرشي البكري المكي المعروف بابن سكر. فقد سمعت الكثير من والدها والنشاوري، وابن صديق، وأجاز لها البرهان القيراطي والحافظ الزين بن رجب، وأبو هريرة الذهبي، وآخرون[3].

وكما اليتابنةالعفيفعبداللهبنمحمدبنعليالعجميالمكي (ت٨٩٨هـ/١٤٩٢م)[4]، خالة العز بن فهد واخوته، أجاز لها الكثير من العلماء، وكانت مشهورة بمعرفتها في الكتابة. كما كانت معروفة ببرها وصدقاتها على الفقراء[5].

كما كانت هناك مراسلات علمية بين نساء الحجاز وغيرها من البلدان، مثل بديعة ابنة السيد نور الدين أحمد الايجي (المولودة سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م)[6]، التي كان بينها وبين السخاوي عدة مراسلات علمية[7].

وأسهمت المرأة في التأليف مثل: خاتون بنت محمد بن علي بن عبد الله الحطيني الأصبهاني (كانت حية سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) [8]، التي ألفت كتبًا عديدة منها: كتابها «الموسوم المرموز من الكنوز»، في خمس مجلدات، وقد ذكرها المحب الطبري في المشيخة التي خرّجها للمظفر صاحب اليمن، كما ذكرها ابن مسدي في معجمه [9]، كما ألفت أم

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٢/ص ١٢٠، التبر المسبوك، ص ١٣٠.
(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص ١٩٨.
(٣) ن.م.س.، ص ١٩٨.
(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٢/ ص ١٢٠.
(٥) ن.م.س.، ج ١٢/ص ١٢٠.
(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١٢/ص ١٣.
(٧) ن.م.س.، ج ١٢/ص ١٣.
(٨) الفاسي: العقد الثمين، ج ٨/ص ٢٠٢.
(٩) ن.م.س.، ج ٨/ص ٢٠٢.

الهدى عائشة ابنة الخطيب الطبرية كتابًا في التاريخ يختص بأسرة الطبري[١].

وبلغ من علمهن في الحديث أن خرّج لهن النجم بن فهد كتبًا جمع فيها مشايخهن في الحديث ، مثل : زينب ابنة عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح أم المساكين ابنة عفيف الدين أبي محمد اليافعي (ت ٨٤٦هـ/١٤٤٢م)[٢]، التي أجاز لها كثير من العلماء ، وحدثت وسمع منها الكثير من العلماء[٣].

وسارة ابنة عمر بن عبد العزيز بن جماعة الكناني (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)[٤] ، التي خرّج لها النجم بن فهد كذلك كتابًا[٥] جمع فيه شيوخا بالسماع والإجازة[٦].

وإضافة إلى معرفتهن بالعلم فقد شاركن في التطبيب ، مثل الشيخة فائدة (ت ٨٧٢هـ/١٤٦٧م)[٧]، التي كانت تعمل قابلة للنساء[٨] وأم الخير إبنة أحمد بن محمد المطري المكية الشهيرة بالمطرية وتسمى سعيدة (ت ٨٦١هـ/١٤٥٦م)[٩] ، التي عملت قابلة لأعيان نساء أهل مكة ، وهي التي أجيزت من كثير من علماء مكة وغيرهم[١٠].

---

(١) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، عني بنشره القدسي ، (بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ١٠٨ - ص ١٠٩.

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣١٥ - ص ٣١٦، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ٤٣، التبر المسبوك ، ص ٥١.

(٣) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣١٥ - ص ٣١٦.

(٤) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣١٨ - ص ٣١٩ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ ص ٥٢

(٥) هو« تراجم لمشايخ شيختنا سارة بنت العز بن جماعة» وقد سبق الإشارة إليه ومكان وجوده.

(٦) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٣١٩، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ٥٢.

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ص ١١٤.

(٨) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٢/ ص ١١٤.

(٩) النجم بن فهد : معجم ابن فهد ، ورقة ٦٥ ب.

(١٠) ن.م.س. ، ورقة ٦٥ ب.

ولعل دور المرأة العلمي يظهر لنا من خلال العلماء المحدثين الكبار في الحرمين الشريفين حيث أن كثيراً منهم أخذ عن نساء الحرمين الشريفين ، مما يدل على علو شأنهن ، خاصة أسرة ابن فهد.

ولعله من الأمور المهمة التي تستحق الذكر والإعجاب ما كانت تتميز به هؤلاء العالمات الجليلات من حفظ للأحاديث الشريفة ، وعناية بذكر سند الرواية والمرويات . فنجد مثال ذلك كل شيخة أوردها الحافظ النجم بن فهد في كتابه «الدر الكمين»، وأخذ عنها الحديث - تذكر له سند الرواية متصلاً من القرن التاسع الهجري، وسماعها لهذا الحديث حتى إتصال تلك الأحاديث الشريفة بالرسول صلى اله عليه وسلم من حيث معرفة رواتها ضبطًا وعدالة، ومن حيث كيفية السند إتصالاً وانقطاعًا ، إذنًا وسماعًا ، إجازة أو اخباراً[1].

(١) المشيقح : دور المرأة العلمي ، ص ١٠٩.

رابعاً ـ العلاقات العلمية بين الحجاز والأطراف الأخرى «الرحلات العلمية».

تعتبر الرحلة في طلب العلم من أهم مميزات جهود المسلمين في طلب العلم ، ومفخرة من مفاخرهم يعتزون بها ، فقد حث الإسلام على الرحلة في طلب العلم ، وروى عن رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه قال « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة » وقال عليه الصلاة والسلام : « لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة »[1] .

وإنطلاقاً من حرص المسلمين على اكتساب المعارف ، والتزود من العلوم ، لم يدّخر المسلمون في تاريخهم الطويل أي وسيلة من الوسائل التي تعينهم على بلوغ ذلك الهدف السامي ، مما كان له أثر كبير في نجاح المسلمين في بناء حضارتهم التي عاشت في كنفها الأمة الإسلامية ، والبشرية جمعاء ، وإحدى هذه الوسائل كانت الرحلات العلمية التي اعتبرها الكثير من علماء المسلمين ضرورة يجب أن يسلكها طالب العلم في حياته العلمية[2]وهكذا يتبين « أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم»[3] .

لذلك كان العلماء يحثون الطلبة على القيام بها ، وهذا مايمكن ملاحظته من خلال

(١) الغزالي ، ابي حامد محمد بن محمد : إحياء علوم الدين ، الطبعة الأولى .(القاهرة ، دار الريان للتراث ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ، ج ١ / ص ١٩ ، والحديث الأول أخرجه مسلم من حديث ابي هريرة ، والثاني أخرجه ابن عبد البر من حديث ابي ذر ، رواه البخاري في صحيحه في كتاب العلم، ج ١ / ص ٢٤ وانظر كذلك سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي (الرياض،١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ، ج ١ / ص ٤٧ وسنن ابي داود ،إعداد وتعليق عزت الدعاس ، وعادل السيد (حمص ، دار الحديث ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م) ، كتاب العلم ، ج ٤ / ص ٥٧ ، والمنذري : مختصر سنن ابي داود ، تحقيق محمد حامد الفقي ، (القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م) ، ج ٥ / ص ٢٤٣ .

(٢) البشرى ، سعد عبد الله صالح : الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس ، (٣١٦ هـ ـ ٤٢٢ هـ / ٩٢٨ م ـ ١٠٣٠ م) ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص٩١ ـ ص ٩٢ .

(٣) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : المقدمة ، الطبعة الخامسة ، (بيروت ، دار القلم ، ١٩٨٤م) ص ٥٤١ .

دراسة تراجم المئات من العلماء ، في هذا العصر ، فقد ارتحل هؤلاء الطلاب إلى كثير من مراكز العلم في العالم الإسلامي ، وكذلك المناطق النائية بها سعياً وراء العلم والمعرفة ، على الرغم من كثرة المشاق وشدة الأخطار التي تعترضهم ، وكان الطالب يقطع آلاف الأميال لمجرد قراءة كتاب واحد على مؤلفه ، أو على من سمعه من المؤلف ، وكان طلاب الحديث أنشط الطلاب على الرحيل في طلب العلم وأصبرهم على عنائه [١] .

هذا وقد قصد الحرمين الشريفين عدد كبير من الطلبة والعلماء من البلدان الإسلامية لسماع الحديث من علمائه ، بالإضافة إلى حضورهم مجالس العلم والأدب والتاريخ وغيرها من العلوم ، وسماع الفقه والأصول ، والتفسير ، والقراءات في حلقات العلم بالمسجد الحرام والمسجد النبوي ، وكانوا يمكثون زمناً طويلاً للدراسة فلا يغادرون حتى يحصلوا على الإجازات العلمية من رواة الحديث والفقه والأدب والتاريخ ، وهذا مالاحظناه عند حديثنا عن المجاورين والأسر العلمية .

كما كان هناك طائفة من طلاب الحديث تأتي إلى تلك البقاع لعلمها أن فلاناً الحافظ سيحج تلك السنة أو يجاور ، فتأتي لأجله وهدفها من ذلك الأخذ عنه والإستجازة منه ، وكان المشتغلون بالحديث يغتنمون الفرصة في مواسم الحج لقضاء فريضتهم أو أداء المناسك أو المجاورة والإستفادة من لقاء المشايخ للمذاكرة والمناظرة وبحثاً عن الإسناد العالي وتطلعاً إلى إجازات العلماء [٢].

وكثرت رحلات العلماء إلى الحرمين الشريفين كما كثر ارتياد طلاب العلم فيهما ، ومما شجعهم على ذلك وجود الأربطة العديدة بمكة والمدينة ، حيث ساعدت على ازدياد طلاب العلم والعلماء لما تقدمه لهم من مساعدات مادية ، وتوفير السكن لهم ، وخير شاهد على ذلك كتب الرحالة المسلمين الذين قاموا بزيارة مكة والمدينة ، فكثيراً من هؤلاء الرحالة ذكروا أثناء زياراتهم ـ العلماء الذين قابلوهم ـ أو الذين سمعوا منهم وأجازوهم .

---

(١) عسيري ، مريزن سعيد مريزن : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، الطبعة الأولى ، (مكة ، مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) ، ص ٢٤٤ ص ٢٤٥ .

(٢) عبد المنعم : ابن حجر العسقلاني ودراسة مصنفاته . ج ١ / ص ١٢٧ .

فالرحالة ابن جبير قام بثلاث رحلات إلى الشرق ، وكانت رحلاته في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢ م وسنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩ م وسنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ، وكانت أهم رحلاته ، الرحلة الأولى التي دوَّن فيها مشاهداته في مذكرات عرفت باسم « تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار »[١] .

وأشار في مذكراته هذه إلى الحياة العلمية في الحرم المكي الشريف ، حيث عبَّر بذلك بقوله « والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم »[٢] .

كما قام الرحالة المغربي العبدري في القرن السابع الهجري برحلة إلى الحجاز ، وخرج في مقتبل عمره سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م ، واهتم في رحلته بالناحية العلمية للمدن التي زارها[٣] ، غير أنه اعتذر عند وصفه للحياة العلمية في الحجاز ، لإنشغالة بمناسك الحج[٤] .

ومن الرحالة المسلمين كذلك القاسم بن يوسف التجيبي السبتي ، الذي قام برحلته سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م ، التي أطلق عليها اسم « مستفاد الرحلة والإغتراب » ، والتي ذكر فيها كثيراً من تراجم الفقهاء والعلماء الذين قابلهم أثناء رحلته[٥] ، كما حدَّث بنفسه في الحرم المكي الشريف ، وكان له العديد من المشايخ ، منهم محب الدين الطبري الذي سمع منه عدة مرويات من « صحيح البخاري » و « الوسيط » ، و « التفسير » للواقدي[٦] . وكذلك الرحالة الشهير ابن بطوطة ، التي عرفت رحلته باسم « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، وأشار فيها إلى أسماء بعض المجاورين ، والفقهاء والحجاج ، الذين أقاموا بمكة[٧] ، وكذلك الرحالة أبو البقاء خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم البلوي ، الذي

(١) الرحلة ، ص ٥ ـ ص ٦ ، المقدمة ، الأنصاري : مع ابن جبير في رحلته ، ص ٤٥ ـ ص ٤٦ .

(٢) الرحلة، ص ٦٨ .

(٣) الرحلة المغربية ، ص م ، المقدمة .

(٤) ن . م . س . ص ٢٠٠ .

(٥) مستفاد الرحلة والإغتراب ، ص ا ـ ص ب . المقدمة

(٦) ن . م . س . ص ٣٨٠ ـ ص ٣٨٢ .

(٧) تحفة النظار ، ص ١٥٣ ـ ص ١٥٤ .

دخل الحجاز سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م [١] .وكان كثير من طلاب العلم بالحرمين الشريفين يعتمدون بشكل كبير على العلماء الوافدين وخصوصاً الذين يأتون في موسم الحج ، فيأخذون عنهم العلم ، وقد ذكر السخاوي تراجم كثيرة لهؤلاء العلماء والطلاب ، ومنهم ابن حجر وغيرهم من مشاهير العلماء الذين أتوا إلى هذه البقاع للأخذ عن العلماء والإستجازة منهم ، كعبد الملك بن علي القزويني الشيرازي الذي التقى به سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م ، وأخذ منه ، وأفاد السخاوي في اعطائه ترجمة لوالده [٢].

ومحمد بن إبراهيم بن مكرم الشيرازي الذي قرأ عليه بعض « صحيح البخاري » سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م كما كتب له إجازة [٣] ، وعلي بن إبراهيم الآيجي [٤] ، الذي قدم مكة حاجاً سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م فأخذ عنه الكثير من علوم الحديث ، وكتب له السخاوي إجازة اغتبط بها كثيراً [٥]؛ وعلي بن عباد البستريني المغربي الذي سمع من السخاوي ، وكتب له إجازة بما سمع عندما قدم إلى مكة حاجاً سنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٧ م [٦] ، وأحمد بن إبراهيم الحسيني الهندي الذي لقي السخاوي أيضاً في مجاورته بالحرم المكي فقرأ عليه « صحيح البخاري » وكتب له إجازة بذلك [٧].

كما قدم مكة عبد الرحمن بن عثمان بن أمير الشرواني الأصل المحمود ابادي ثم الرومي الحنفي ، وتكبد مشاق السفر في البحر من أجل الأخذ عن علماء الحجاز في علم الحديث ، وذلك لأن أهل بلده لا عهد لهم بشئ من الحديث ، فتردد إلى السخاوي ، وسمع منه في علم

---

(١) تاج المفرق ، ج ١ / ص ٥٣.

(٢) الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ٨٦ .

(٣) ن . م . س . ج ٦ / ص ٢٨٠ .

(٤) نسبة إلى آيج ، وهي بلدة كثيرة البساتين والخيرات في أقصى بلاد فارس (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ / ص ٢٨٧) وكان له إشتغال بالفقه والنحو والصرف ، وله تصانيف في العقليات وحواشي على كثير من الكتب (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ١٥٨) .

(٥) ن . م . س . ج ٥ / ص ١٥٨ .

(٦) الضوء اللامع ، ج ٥ / ص٢٧٣ .

(٧) الداري : الطبقات السنية في تراجم الحنفية ، ص ٢٦٧ .

الحديث وأسرع في عودته إلى بلده مع أنه كان حريصاً على ملازمة العلماء[(١)].

كما قدم إلى الحرمين الشريفين أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجزامي ، ويعرف بالقباب (ت بعد ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م)[(٢)] ، قاضي (جبل طارق) ، وحج واجتمع به ابن فرحون في المدينة المنورة ، واستفاد منه الطلبة أثناء زيارته ، حيث شرح لهم « قواعد الإسلام» للقاضي عياض[(٣)] .

وعلى الرغم من وجود جميع مقومات التعليم في الحرمين الشريفين ، فإن علماء الحجاز لم يكتفوا ولم يقنعوا بذلك فارتحلوا إلى مراكز العلم في العالم الإسلامي ، وكانت مصر والشام وبيت المقدس ، واليمن هي البلدان الرئيسية التي رحلوا إليها في ذلك العصر ، وقلَّ أن يرحل طالب علم إلى غير هذه البلدان لطلب العلم ، ومن هؤلاء : ـ

علي بن أحمد بن علي بن محمد تاج الدين القسطلاني (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) ، وكان محباً للحديث وأهله ، وارتحل إلى القاهرة حيث قام بالتدريس في المدرسة الكاملية[(٤)] بالقاهرة إلى أن توفي[(٥)] .

وكذلك محمد بن علي بن أحمد القسطلاني ، قطب الدين المولود بمصر سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ، وحمل إلى مكة سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م ، فنشأ بها وأجاز له الكثير من شيوخ مكة والقادمين إليها .

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٩٢ .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ١ / ص ١٨٧ .

(٣) ن . م . س . ج ١ / ص ١٨٧ .

(٤) المدرسة الكاملية بمصر : أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ، وهي ثاني دار عملت للحديث ، فإن أول من بنى دار حديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين زنكي بدمشق ، ثم بنى الكامل هذه الدار ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوي ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية ، وقد درّس بها جهابذة المحدثين. (المقريزي : المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، (القاهرة ، مطبعة بولاق ، بدون ،) ، ج ٢ / ص ٣٧٥ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ / ص ٢٦٢) .

(٥) الفاسي: العقد الثمين ، ج ٦ / ص ١٣٦ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ / ص ٤٥٥ .

ثم رحل بعد ذلك إلى دمشق وبغداد سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م ، وسمع بالكوفة ، ومنبج [١] ، وحران [٢] ، والمعرة [٣] ، ودنيسر [٤] ، والقدس ، ومصر ، واليمن ، وفي سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م ، طُلب لمشيخة دار الحديث بالمدرسة الكاملية ، وذلك بعد وفاة أخيه التاج علي ، فتولى التدريس بها حتى مات ، وشهد جنازته الكثير من العلماء [٥].

والحقيقة أن مكة في ذلك العصر لم تشهد علماء كبار على مستوى القطب القسطلاني ، كما أن استدعاؤه إلى مصر لمشيخة دار الحديث بالمدرسة الكاملية يعدُّ فخراً لعلماء مكة ، فقليل من المكيين تولوا هذه المناصب في مصر ، مما يدل على أهمية هذا الشيخ وذيوع اسمه .

كما ارتحل في طلب العلم عالم المدينة المنورة علي بن محمد بن ابي القاسم فرحون (ت ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م) .فأخذ ببيت المقدس عن القاضي شرف الدين الحبتي ، والعلائي [٦]

---

(١) مَنْبج : ـ بالفتح ثم السكون مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة ، وهي بين حلب والفرات (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ / ص ٢٠٦ ـ ص ٢٠٧) .

(٢)حرَّان : ـ بتشديد الراء ، وهي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور ، وهي قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان ، وهي على طريق الموصل والشام (ياقوت : معجم البلدان ، ج ج٢ /ص٢٣٥).

(٣) المَعَرَّة :ـ مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حماه وحلب (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ / ص ١٥٦) .

(٤) دُنَيْسر : بضم أوله : بلدة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ، ولها اسم آخر يقال لها قوج حصار ، وأرضها حرَّة ، وهواؤها صحيح ، (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ / ص٤٧٨).

(٥) الصفدي: الواف بالوفيات ، ج ٢ / ص ١٣٢، الكتبي: فوات الوفيات، ج ٣/ص٣١٠، اليافعي : مرآة الجنان ، ج ٢ / ص ٢٠٢ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٣٢١ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ / ص ٤١٩ .

(٦) هو الإمام العلامة صلاح الدين ابو سعيد خليل بن كيكلدي الشافعي ، عالم بيت المقدس ، ولد سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤ م وكان إماماً حافظاً متقناً فقيهاً أصولياً نحوياً ، ألف في الحديث وغيره مصنفات منها « علوم آيات الفرائض » ، « القواعد المشهورة » و درس بمدارس القدس ، وتوفي سنة ٧٦١هـ / ١٣٥٩م (ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٩٠ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ / ص ٣٣٧).

المنصورية[١] ، وكذلك إعادة درس القلعة ، وتولى مشيخة الخانقاه الكريمية بالقرافة[٢] .

وكــذلك نور الدين على بن أحــمــد بن إســمــاعــيل الفــوي المدني (ت ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠م)[٣] ، الذي عني بالحديث وجال في البلاد ، وسمع بالشام والعراق ومصر من ابن شاهد الجيش ، والميدومي ، وخلق[٤].وحدث بالإجازة عن الطبري ، والحجار ، ومهر في العربية والحديث[٥] ، والفقه واتفق له وهو ببلاد العجم أن شخصاً حدثه بحديث عن آخر عنه فقال له : « أنا الفوي اسمعه مني يعلو سندك »[٦] ، كما حدَّث ببغداد ،ثم رحل إلى القاهرة وتوفي بها[٧] .

كما ارتحل في طلب العلم : محمد بن عبد الله بن ظهيرة (ت ٨١٧هـ / ١٤١٤ م) فـقـد سـمع بمصر من مسندها زين الدين عبد الرحـمن بن علي بن هارون الثـعلبي ، جـزء ابن الطلاية ، ومسموعه من سنن النسائي رواية ابن السني ، ومن محمد بن علي الحراوي « فضل الخيل » للدمياطي[٨] ، وغيرهما كما سمع بدمشق « جامع الترمذي » و « سنن ابي داود »

---

(١) المدرسة المنصورية : أنشأها الملك المنصور قلاوون ورتب فيها دروس الفقه على المذاهب الأربعة ودرس التفسير ، ودرس حديث ، ودرس طب (السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ / ص ٢٦٤) .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ١٦٢ ، ابن حجر : انباء الغمر ، ج ١ / ص ١١٤ ، الدرر الكامنة ، ج ٢ / ص ٢٩١ ، ابن الجزري : غاية النهاية ، ج ١ / ص ٤٥١) والقرافة : المقبرة و هو اسم قبيلة يمنية جاورت المقابر بمصر فغلب اسمها على كل مقبرة (المعجم الوسيط ، ج ٢ / ص ٧٥٧) .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦ / ص ١٢٩ ـ ص ١٣١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ / ص ١٠ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٦ / ص ٢٧٥ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦ / ص ١٣٠ .

(٥)ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ / ص ١٠ .

(٦) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ / ص ٢٧٥ .

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦ / ص ١٣١ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ / ص ١٠

(٨) هو ابو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن التوني ، ولد سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م ، وتفقه وبرع في الحديث ، وعمل معجم لشيوخه يتضمن ألف وثلاثمائة شيخ ، صنف كتاب « الخيل » و « الصلاة الوسطى » ، مات سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م (الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٤ / ص ١٤٧٧ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ / ص ٣٥٧ ، طبقات الحفاظ ، ص ٥١٥) .

من عمر بن حسن بن أميلة ، كما سمع بها على صلاح الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم المعروف بابن ابي عمر « مسند الإمام أحمد » و « الشمائل » للترمذي و « المنتقى الكبير من الغيلانيات ، وعلى ابن قواليج « صحيح مسلم » وعلى غيرهم من المشايخ والحفاظ والمحدثين في مكة ومصر ودمشق وحلب وحمص وحماة وحلب [١] وغيرها من البلدان ، يجمع شيوخه بالسماع والإجازة ـ المعجم الذي خرّجه له الحافظ صلاح الدين خليل بن محمد الأقفهسي ، ولشدة اهتمامه بالحديث ، أذن له جهابذة المحدثين في ذلك العصر [٢] ، حيث ذكر السخاوي في ترجمته : أنه رأى بخط الحافظ زين الدين العراقي على نسخة من شرحه للألفية ، أن الجمال بن ظهيرة أخذ عنه مابين قراءة وسماع وقال : « وأذنت له أحسن الله اليه أن يقرئ ذلك ويفيده ، وماشاء من الكتب المصنفة في ذلك لوثوقي بحسن تصرفه وجودة فهمه ، نفع الله به وكثر من أمثاله » [٣] .

أما نجم الدين عبد اللطيف بن أحمد أخو التقي الفاسي (ت ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م) فقد رحل إلى القاهرة ودمشق ، واليمن ، وتونس ، وولي الإعادة بالمدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي بالقاهرة .

ومما انفرد به ، تحديثه بتونس [٤] ، حيث لم يؤثر عن أحد من أسرة الفاسي ، بل من بقية الأسر العلمية المكية أن حدث أحد منهم بتونس .

ومحمد بن موسى بن علي بن عبد الصمد المراكشي المكي (ت ٨٢٣ هـ /

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٥٤ ـ ص ٥٥ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٥٤ ـ ص ٥٥ ، ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٣ / ص ٤٥ ، ابن قاضي شهبه : طبقات الشافعية ، ج ٤ / ص ٦٧ ، التقي بن فهد : لحظ الإلحاظ ، ص ٢٥٣ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ٩٢ .

(٣) الضوء اللامع ج ٨ / ص ٩٢ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٤٨٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ٣٢٤ ، التحفة اللطيفة ج ٣ / ص ٦٤ ، الداودي : طبقات المفسرين ، ج ١ / ص ٣٤٦ .

١٤٢٠م)[١] ، أجاز له الكثير من علماء مكة والمدينة ، وارتحل في طلب الحديث سنة ٨١٤هـ / ١٤١١ م إلى الشام ، فسمع بدمشق ، وحلب ، وبعلبك ، وحماة ، وحمص ، وسمع بدمشق وقرأ على كثير من محدثيها ، منهم عائشة بنت المحتسب المقدسية الصالحية [٢] ، وسمع ببعلبك على ابن بردس [٣] وبحلب على محدثها البرهان سبط بن العجمي [٤] وغيره ، ثم قصد الديار المصرية ، وكانت مثوى المحدثين والعلماء ، فسمع وهو في طريقه إليها بالقدس، والخليل، ونابلس ،وغزة، على جماعة من أصحاب الميدومي ، وبالقاهرة على مسندها الشريف محمد بن ابي اليمن ابن الكويك [٥] وغيره .

وبالاسكندرية سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م من قاضيها : كمال الدين عبد الله بن محمد بن محمد بن سليمان الشقوري « السداسيات » و « المشيخة » للرازي ، ولقي في رحلته الحافظ بن حجر العسقلاني ، وذاكره فيما يتعلق بالحديث ، وانتفع به [٦] ، ثم عاد من

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٦٤ ، ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٣ / ص ٢٣٤ . التقي بن فهد : لحظ الإلحاظ ، ص ٢٧٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص ٥٦ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ١٦١ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٦٤ ـ ص ٣٦٦ ، ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٣ / ص١٢٤ .

(٣) هو محمد بن اسماعيل بن محمد بن بردس بن نصر البعلي الحنبلي ، ويعرف بابن بردس ، ولد سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م ، من آثاره : مصنف في « صدقة البر » و كتاب « المجالس في الوعظ » ، (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٤٢) .

(٤) هو ابراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي ثم الحلبي ، ولد سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م ، طلب الحديث ، وأخذ عن كثير من العلماء ، وله مؤلفات منها « التنقيح لفهم قارئ الصحيح » و « نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس » ، توفي سنة ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م (التقي بن فهد : لحظ الالحاظ ، ص ٣١٥)

(٥) هو ابو الطاهر محمد بن عز الدين ابي اليمن محمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن محمود المعروف بابن الكويك الربعي التكريتي ثم الاسكندري ، ولد سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م ، وسمع على العلماء من المشرق والمغرب ، ولازمه ابن حجر وأخذ عنه ، وازدحم الطلبة عليه وتوفي سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ١٥٢) .

(٦) ابن حجر: انباء الغمر ، ج ٣ / ص ٢٣٤، التقي بن فهد : لحظ الالحاظ ، ص ٢٧٣ ـ ص ٢٧٥

رحلته العلمية هذه وقد نال حظاً كبيراً وقسطاً طائلاً من المسموعات والمرويات في الحديث وعلومه ، وغيرهما ، وأصبح من كبار المحدثين بمكة ، ولما يبلغ الثلاثين من عمره ، ثم عاود رحلته مرة أخرى إلى اليمن سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م [١]، ومعه التقي ابن فهد ، فسمع بها على المجد الفيروزابادي[٢] ، ودخلها كذلك سنة ٨٢٠ هـ / ١٤٢٠ م ، وولي بها إسماع الحديث بالمدرسة التاجية [٣] بزبيد ، وحبّب إليه البقاء فيها ، فاستوطنها ونقل إليها كتبه وتعاليقه واجزاءه ، وأخذ يحدث فيها بمروياته ، فازدحم عليه الطلبة ، وظهر لفضلاء البلد معرفته وإمامته في الحديث ، ومعرفته بالملل وأسماء المتقدمين والمتأخرين ، فأحبوه ونوهوا بذكره ، وأوصلوا خبره إلى الملك الناصر أحمد ، فأحبه وقربه إليه ، فمدحه الجمال المراكشي بقصائد ، فأجازه بجوائز سنية ، وحصل له عنده الحظ الوافر والمزيد من التكريم [٤].

كما ارتحل في طلب العلم ، عز الدين عبد العزيز بن علي بن أحمد النويري (ت ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ م) ، وتردد إلى اليمن مرات كثيرة ، وتولى بها قضاء تعز عدة مرات ، ودرّس الفقه بالمدرسة المظفرية ، والمدرسة السيفية [٥] بتعز ، وكان محدثاً أصولياً نحوياً مجوداً

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٦٤ ـ ص ٣٦٦ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ / ص٥٦ .

(٢) التقي بن فهد : لحظ الالحاظ ، ص ٢٧٥ .

(٣) المدرسة التاجية : نسبة إلى خادم الملك المظفر صاحب اليمن : تاج الدين بدر المظفري ، الذي ابتنى بزبيد مدارس ، احداهن للفقه على المذهب الشافعي ، وأخرى للقراءات السبع ، وأخرى للحديث وتاج الدين هذا كان خادماً للحره بنت جوزة زوج المنصور عمر بن علي بن رسول (الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ١ / ص ٢٧٦ ، الجندي ، ، محمد بن يوسف : السلوك في طبقات العلماء والملوك ، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الطبعة الأولى، (الجمهورية اليمنية وزارة الإعلام والثقافة ، مشروع الكتاب ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م) ، ص ٩٩ ، الغساني : العسجد المسبوك والجوهر المحكوك، تحقيق شاكر محمود ، (بيروت ، دار التراث الإسلامي ، ١٩٧٥ م) ج ١ / ص ١٢٠ .ابن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد ، تحقيق ، شلحد ، ص ٩١) .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ٣٦٨ ، التقي بن فهد : لحظ الالحاظ ، ص ٢٧٥ .

(٥) المدرسة السيفية : نسبة إلى سيف الدين طغتكين بن أيوب الذي بنى عدة مدارس باليمن ، وأولها المدرسة السيفية بتعز نسبة إلى ابنه سيف الإسلام سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ م ، (ابن الديبع : الفضل المزيد ، تحقيق ، شلحد ، ص ٨٥ ، يحي بن الحسين : غاية الأماني ، ج ١ / ص٣٣٩) .

لجميع فنون العلم [(١)].

كما تردد إلى اليمن محمد بن ابي بكر بن علي بن يوسف ، المعروف بنجم الدين المرجاني (ت ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م) ، ورحل من اليمن إلى القاهرة سفيراً لصاحب اليمن من أجل تحصيل كتب استدعاها [(٢)].

كما ارتحل إلى بغداد ، علي بن أحمد بن سلامة بن عطوف بن يعلى المكي السلمي (ت ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤ م) [(٣)] وسمع بها من الكمال بن حبيب مسندي الشافعي ، والطيالسي ، وأسباب النزول و« سنن ابن ماجة » ، وكان عالماً بالحديث والفقه والأدب [(٤)]

وكذلك ارتحل في طلب العلم ، الجمال المرشدي (ت ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م) ، حيث حدّث باليمن والتقي هناك بابن حجر وسمع منه وأجازه[(٥)] .

أما محمد بن علي تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م) ، مؤرخ مكة فقد رحل في طلب الحديث إلى معظم مراكز العلم بالعالم الإسلامي ، فدخل القاهرة ، والاسكندرية ، ودمشق وصالحيتها وغوطتها ، وبيت المقدس ، وغزة ، والرملة ، ونابلس ، واليمن ، وتكرر دخوله إلى دمشق والقاهرة ، فسمع وقرأ على جمع من علماء القاهرة ، كالبلقيني ، وابن الملقن ، والهيثمي ، والسويداوي ، والبرهان الشامي ، ومريم بنت أحمد الأذرعي[(٦)] ، وغيرهم ، وقد ذكر مشايخه في كتابيه « العقد الثمين » و « ذيل التقييد »

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٤٥٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٢٢١ .

(٢) ابن حجر : المجمع المؤسس للمعجم المفهرس ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، القاهرة ، برقم ٧٥ مصطلح ، ميكرو فيلم رقم ٢٦٦٦٥٦ ، ورقة ٤٤٨ ـ ورقة ٤٤٩ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦ / ص ١٣٩ ، ابن حجر : المجمع المؤسس ، ورقة ٤٠٩ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٥ / ص ١٨٣ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦ / ص ١٣٩ ، ابن حجر ، المجمع المؤسس ، ورقة ٤٠٩ .

(٥) ابن حجر : المجمع المؤسس ، ورقة ٤٤٤ ـ ورقة ٤٤٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٨٣ ، التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٥٤٣ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ / ص ٣٣٤ ـ ص ٣٣٧ ، ذيل التقييد ، ج ١ / ص ١٠١ ـ ص ١١٩ ، ابن حجر : انباء الغمر، ج ٣ / ص ٤٢٩ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٨ ، التحفة ، ج ٣ / ص٤٨٨ .

وأطال في ذلك ، ونلاحظ أن عنايته بالحديث لم تكن مقتصرة على نفسه ، فقد رحل في طلبه مع أخيه وابن عمته الشريف ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الفاسي (ت ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م) ، الذي سمع معه بالقاهرة [١].

ولم تتوقف رحلته على مراكز العلم المعروفة في ذلك الوقت ، فقد دخل قرى دمشق ، وقرأ بكفر بَطْنا [٢] من غوطة دمشق على مسند الشام ابي هريرة عبد الرحمن بن الحافظ ابي عبد الله الذهبي [٣] كتاب « الخلعيات » [٤] وزار معظم مدن الشام ، وأخذ عن علمائها [٥].

وارتحل في طلب الحديث عبد الغني بن عبد الواحد المرشدي (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م) ، فدخل القاهرة ، والخليل ، ودمشق ، واليمن ، وقرأ في اليمن على ابن الجزري « معجم الطبراني » وأخذ في القاهرة عن ابن حجر العسقلاني [٦].

وحدّث بالقاهرة أيضاً ابي اليمن الأمين محمد بن أبي الخير النويري (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) ، حين تردده إليها [٧].

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٢ / ص ١١٣ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ٤٠ .

(٢) بَطْنا : بفتح أوله وسكون ثانيه ، من قرى غوطة دمشق (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ / ص٤٦٨)

(٣) هو ابو هريرة عبد الرحمن بن الحافظ ابي عبد الله الذهبي ، وكان من المحدثين المسندين بعد أبيه بجامع كفر بطنا عدة سنين ، وتوفي سنة ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م (ابن العماد : شذرات الذهب ج ٦ / ص ٣٦٠) .

(٤) الخلعيات : الأجزاء الخلعيات عشرون جزءاً للقاضي ابي الحسن الشافعي المعروف بالخلعي المتوفى سنة ٥٩٢ هـ / ١٠٩٨ م (الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج ١٩ / ص ٧٤ ، تذكرة الحفاظ ، ج٤ / ص ١٢٣٠ ، الكتاني : الرسالة المستطرفة ، ص ٦٨) .

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٨ ـ ص ١٩ .

(٦) ابن حجر : انباء الغمر ، ج ٣ / ص ٤٤٧ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٢٥١، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٢٠٣ .

(٧) النجم بن فهد: معجم الشيوخ، ص ٢٦٩، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ١٤٣، التبر المسبوك ص ٢٩٠ .

وكذلك محمد بن ابي بكر بن الحسين بن عمر العثماني المراغي المصري المدني (ت ٨٥٩ هـ / ١٤٥٤ م) [(١)]، وهو من بيت علم في المدينة المنورة ، نشأ بها وأخذ عن علمائها ، وعلماء مكة ، ثم رحل إلي القاهرة سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م ، فعرض محفوظاته على السراج البلقيني ، وابن الملقن ، والأبناسي وسمع بها « مسند الشافعي » رواية المزني ، وأخذ عن جماعة من علمائها ، كالعراقي ، والهيثمي ،و الزفتاوي ، وغيرهم [(٢)]، ولم يكتف من العلم بالقاهرة ، فدخل اليمن ، وقصد مدينة زبيد مرات كثيرة أولها سنة ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩م[(٣)] ، وسمع هناك من المجد الفيروزابادي وجماعة من علمائها ومحدثيها واستمر بها إلي سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م [(٤)] ، وولي بها تدريس السيفية بتعز ، ومدرسة مريم(السابقية) [(٥)] بزبيد ولقي كل التكريم من ملوك اليمن أثناء إقامته بها [(٦)].

ومحمد بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الله بن فهد تقي الدين (ت ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ م) ، الذي قدم مع والده من أصفون في سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م وعمره ثمان سنوات ، فنشأ بمكة وسمع على علمائها والقادمين إليها ، وحبب إليه الإرتحال في طلب العلم [(٧)]، فارتحل إلي اليمن سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م وسنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م، وأخذ بها عن جماعة من علمائها والواردين إليها كالفيروزابادي بزبيد ، ونفيس الدين العلوي بتعز

---

(١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٢٠ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٦٢ ـ ص ١٦٥ ، التحفة اللطيفة ، ج ٣ / ص ٥٣٥ ، السيوطي : نظم العقيان ، ص ١٣٩ .

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٢٠ .

(٣) ن . م . س . ص ٢٢٠ ـ ص ٢٢١ .

(٤)النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٢١ .

(٥) مدرسة مريم : نسبة إلى زوجة الملك المظفر صاحب اليمن ، مريم بنت الشيخ العفيف ، وتسمى أيضاً بالمدرسة السابقية ، (الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج ١ / ص ٣٤٨ ، ابن الديبع : الفضل المزيد : تحقيق شلحد ، ص ٩١) .

(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٦٤ .

(٧) النجم بن فهد : معجم الشيوخ . ص ٢٨١ .

، ومن الحافظ جمال الدين بن الخياط ، بجبلة [(١)] وأجاز له خلق من معظم مراكز العلم في العالم الإسلامي ، ولكثرة مشايخه ، اعتنى ابنه النجم بكل ذلك فجمع مشايخه في كتاب سماه « إرشاد المجتهدين لمشايخ ابن فهد تقي الدين » وجمع أيضاً فهرست مروياته ومسموعاته في كتاب سماه « الجواهر الفاخرة المجتمعة فيما قرأه التقي ابن فهد وسمعه » [(٢)]

وممن كان له وجاهة ومكانة كبيرة في القاهرة : محمد بن محمد بن أحمد بن محمد النويري (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م) ، حيث أقام فيها ، وعقد فيها مجالس الوعظ بجامع الأزهر ، ودرّس الفقه فأدهش العامة بكثرة محفوظاته ، وطلاقته وفصاحته ، وزار بيت المقدس ، ودخل الشام ، وما حلّ ببلد إلا وعظمه أهلها ، وقد عرض عليه منصب قضاء الشافعية بالقاهرة فأبى [(٣)] .

وأشهر علماء مكة الذين رحلوا في طلب العلم هو النجم عمر بن فهد (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠ م) ، ارتحل إلى القاهرة سنة ٨٣٦ هـ / ١٤٣٢ م ، فسمع بها على أحمد بن ابي بكر الواسطي ، والبدر حسين بن علي البوصيري [(٤)]، ولازم شيخ الحديث بها الحافظ بن حجر كثيراً حتى أخذ عنه جميع مروياته ومؤلفاته [(٥)] ، وسمع بغزة من

---

(١) جِبلة : بالكسر ثم السكون ، ذو جبلة ، مدينة باليمن تحت جبل صَبِرَ ، وتسمى ذات النهرين ، وهي من أحسن مدن اليمن وأنزهها وأطيبها (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ / ص ١٠٦) .

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٨٣- ص ٢٨٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٢٨٢ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج ٢ / ص ٢٥٩ .

(٣) الصيرفي ، على : انباء الهصر بأنباء العصر ، تحقيق حسن حبشي ، الطبعة الأولى (١٩٧٠ م / ١٣٩٠هـ) ص ١٠٢ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ٣١ .

(٤) حسين بن على بن سبع المالكي البوصيري ، ولد سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م ، وسمع على العز بن جماعة وآخرون ، وحدث وسمع منه كثير من الطلبة ، توفي سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م (السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ١٥٠، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٧ / ص ٢٢٧).

(٥)النجم بن فهد: معجم الشيوخ ، ص ١٩٣ .

الـــشمـــس مملوك الاياســـي ، وبالخليل من الشـــمس محـــمد بن أحـمـد التـدمـــري ،[1] وبالقـدس من الزين عبـدالرحمن بن عـمـر القبـابي[2] ، وبالرملة من ابن رســـلان[3] ، وبدمشـــق من عائشة بنت ابن الشـــرائحي ، ولازم الحافـــظ ابن ناصر الدين الدمشقي[4] ، وإنتفع به كثيراً[5] ، وحمل عنـــه أشياء ، ثم رافـقـه ودخل بعلبك بصحبته ، فسمع بها من عـلاء الدين ابن بردس وغـيـره ، ثم دخل صـحـبـتـه أيضاً حلب ، وطرابلس فـسـمع بالأولى من حـافظهـا البـرهان سبط ابن العـجـمي مـؤلف « الإغـتـبـاط بمن رمى بالإخـتـلاط » والثـانيـة من الشمس محمد بن عمر النيني الغامي ، ثم سمع أيضاً مرة أخرى بدمشق ، والقدس ، والخليل ، والقاهرة ، وتكرر دخوله إليها وإلى دمشق ، وطرابلس ، وحماة ، وبعلبك ، وغزة[6].

---

(١) ولد سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م تقريباً، وتلقى العلم على عـدد من العلمـاء ثم حدث وخطب بالخليل، توفي سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م، (السخاوي: الضوء اللامع، ج٧/ ص٨١ ـ ص٨٢).

(٢) ينسب إلى قباب حماة، ولد سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، في بيت المقدس، ونشأ وتعلم فيه، وأخذ عنه العديد من العلماء، وحصل على اجازات عديدة، وحدث كثيراً ومنح الإجازات في بيت المقدس، توفي سنة ٨٣٨هـ/١٤٣٤م، (ن. م . س ، ج٤/ ص١١٣ ـ ص١١٤).

(٣) هو أحـمـد بن حسين بن حسن بن علي الرملي، ويعـرف بابن رسـلان، ولد سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م، وبرع في الفقه، وصنف في القراءات، والتفسير والأصلين وغيرها من العلوم، منها: (شرح منهاج الأصـول إلى علم الأصول) للبيـضـاوي، وشرح (ملحـة الاعـراب) في النحـو. توفي سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م ، (السخاوي : الضوء اللامع، ج١/ ص٢٨٢ ـ ص٢٨٨، ابن العماد: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٤٨ ـ ص٢٥٠).

(٤) هو الحافظ شمس الدين محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن محمد الدمشقي ، ولد سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م ، وطلب الحديث وصـنف تـصانيف حسنة وصار محدث البلاد الدمشقية ، توفى سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م، (السيوطي : ذيل تذكرة الحفاظ ، ص ٣٧٨ ، طبقات الحفاظ، ص٥٠)

(٥) السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٥٥٠ .

(٦) النجم بن فهد: معجم الشيوخ ، ص ١٩٣، السخاوي: الضوء اللامع ، ج ٦/ص١٢٧ ـ ص١٢٨.

ولم تتوقف رحلة النجم بن فهد على طلب العلم في مصر على القاهرة فحسب ، بل رحل إلى قراها ومدنها الصغيرة آنذاك مثل : دمياط ، والمنصورة [١] ، وأشموم [٢] وسمنود ، والمحلة الكبرى [٣] ، ودمنهور [٤] ، وغيرهن من المدن الصغيرة والقرى بمصر [٥]. هذا بالإضافة إلى رحلاته إلى العديد من مناطق العالم العربي لاسيما بلاد الشام.

وفي سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٦٦ م ،عاد إلى القاهرة ، وسمع بها علي ابن حجر كتابه « لسان الميزان » وعلى غيره من بقية المسندين [٦].

ومع ملازمته لابن حجر لما كان بالقاهرة ، فإن ابن حجر أيضاً كان يستفيد منه ، وقد عرض عليه الإقامة عنده فما وافق ، وإستعار منه أسماء شيوخه ، وذلك من أجل الأخذ عنهم. [٧]

ومحمد بن أحمد بن محمد بن ظهيرة (ت ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م) ، أخذ عن والده

---

(١) المنصورة : بلد بمصر أنشأه الملك الكامل ابن الملك العادل بين أيوب بين دمياط والقاهرة ورابط بها في وجه الأفرنج لما ملكوا دمياط وذلك في سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ / ص ٢١٢).

(٢) أشْمُوْم : ـ بضم الميم ، وسكون الواو ، اسم لبلدتين بمصر أحدهما قرب دمياط والثانية قرب المنوفية (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ / ص ٢٠٠) .

(٣) المحلة الكبرى : ـ وهي مدينة مشهورة بالديار المصرية وهي عدة مواضع ، منها المحلة الكبرى وهي محلة شرقيون وهي ذات جنبين أحدهما سندفا والآخر شرقيون (ن . م . س ، ج ٥ / ص ٦٣)

(٤) دمنهور : بلدة بينها وبين الإسكندرية يوم واحد في طريق مصر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ / ص ٤٧٢)

(٥) النجم بن فهد: معجم الشيوخ ، ص ١٩٤ ، السخاوي : الضوء اللامع، ج ٦ /ص ١٢٨ ـ ص ١٢٩.

(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ / ص ١٢٨ .

(٧) ن . م . س . ص ١٢٨ .

وعن السخاوي وإستقر بمدرسة حسن الطلخاوي بمصر [١].

وعبد القادر بن عبد اللطيف الفاسي (ت ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م)، فقد كان يجمع مابين المساجد الثلاثة في مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ، وأنشأ في كل من الحرمين بيتاً للسكنى ، وكان يتعالى غالباً عن الإجتماع مع رفاقه القضاة حتى لايجلس في محل لايرضاه . [٢]

كما إقتدى بوالده في الرحلة في طلب العلم : عبد العزيز بن عمر بن فهد (ت ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) فرحل سنة ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ م إلى الشام ، ماراً بسرياقوس [٣] ، والقدس ، والخليل ، وغزه ونابلس فقرأ في هذه البلدان بنفسه ، وسمع بها وبدمشق أيضاً وصالحيتها ، ثم ببعلبك وحماة وغيرها ، فأخذ عمن لايحصى ، وجد واجتهد وتميز وفاق كثيراً من أقرانه ثم عاد إلى مكة وقد ملأ جعبته علماً [٤] ومـا أن حطّ رحاله في مكة ، وأخذ عن علمائها حتى عاوده الشوق إلى الرحلة في الطلب ، وجمع الكتب ، فرحل في سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م ، إلى القاهرة ، فقرأ على كثير من شيوخها في شتى الفنون ، فقرأ على شيخ الإسلام زكريا الأنصاري [٥] ، وشرف الدين السنباطي في « الإرشاد في فقه الشافعية » وقرأ

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧/ص ٨٩ .

(٢) ن . م . س . ج ٤/ ص٢٧٣

(٣) سرياقوس : بليدة في نواحي القاهرة بمصر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ / ص ٢١٨).

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٤ /ص ٢٢٤ ، الغزي : الكواكب السائرة ، ج١/ص ٢٣٨ .ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٨/ص١٠١.

(٥) هو زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري القاهري الأزهري ، ولد سنة ٨٢٦هـ / ١٤٢٢ م ، عالم مشارك في الفقه والفرائض والتفسير والحديث واللغة ، له تصانيف منها « شرح مختصر المزني في فروع الفقه الشافعي » و « الدرر السنية » في النحو ، و« شرح صحيح مسلم » ، توفى سنة ٩٢٦ هـ / ١٥١٩م، (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٨/ص١٣٤ ـ ص ١٣٦ ، العيدروسي : النور السافر ، ص ١١١ ـ ص ١١٥).

في تقسيم المنهاج على سراج الدين العبادي ، ولازم السخاوي بمصر ، وأخذ عنه كثيراً من الحديث وعلومه ، ومما أخذه عنه « الفية الحديث »[١] ولم تطل إقامته بالقاهرة ، حيث عاد إلى بلده ، ثم منها إلى دمشق سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م . فقرأ بها وسمع دراية على جملة من شيوخها ، كالزين والمحب البصروي ، وقد سبق أن أخذ عنه بمكة قبل ذلك ، ثم انتقل من دمشق إلى حلب ، ثم سافر إلى القاهرة وعاد منها إلى بلده[٢] ، ثم رحل إلى القاهرة سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م ، مع ركب الحاج ، فلازم السخاوي في السماع والقراءة وحضر مجالس املائه ، كما لازم إمام الكامليه في الفقه وحضر دروسه ، ثم عاد إلى بلده في السنة التي تليها [٣] ، وعندما جاور السخاوي سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م وبعدها لازمه ، وكيف لا وكان يرحل للسماع عليه [٤].

ويبدو أن العلاقات العلمية كانت جيدة في هذه الفترة بين الحجاز واليمن ، ويتضح ذلك من خلال تدريس علماء الحجاز بالمدارس الرسولية في اليمن ، فقد درس الإمام أبو الفضائل الحسن بن محمد الصغاني (ت ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م) [٥] بمدرسة ابن بطال باليمن [٦]. وله الكثير من المؤلفات التي استفاد منها طلابه في هذا البلد .[٧]

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ / ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٢) ن.م.س ، ج٤ / ص ٢٢٥ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٤ / ص ٢٢٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ١٠١ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٤ / ص ٢٢٥ ـ ص ٢٢٦ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ / ص ٣٧٦ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ / ص ٢٦، السيوطي: بغية الوعاة، ج١/ص٢٣.

(٦) مدرسة ابن بطال : أنشأها ابو عبدالله محمد بن احمد بن سليمان بن بطال الركبي ، كان فقهياً عالماً عارفا بالفقه والتفسير والحديث واللغة والأصول وله شعر حسن ، رحل إلي مكة واقام بها اربعة عشر عاماً وكان يأخذ العلم على كل من يفد على مكة من العلماء (الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ /ص ٢٧٦ ، السيوطي ، بغية الوعاة ، ج١ / ص ٢٣).

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ / ص ٣٧٦ ، السيوطي : بغية الوعاة ، ج١ / ص٢٣ .

كما قام بالتدريس في المدرسة الرشيدية [1] فخر الدين اسحاق بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم أبي يوسف الطبري الذي انتقل إلى زبيد وسكن بها : قال الفاسي « ورأيت بخط تلميذه أبي العباس أحمد بن علي المعروف بالسرودي أن القاضي اسحاق هذا دخل بغداد وكُتِبَ له في الديوان العباسي أنه قاضي قضاة المسلمين شرقاً ، وغرباً ، وبعداً وقرباً وأنه كان يحصل له في كل سنة من الديوان وسواه خمسة وعشرون ألف درهم ينفقها على أهل الحرم . ولما دخل اليمن عظّمه قضاتها ، وكان يلقب عندهم بخزيمة العصر ، ثم قال الفاسي : ولم أدر متى مات القاضي اسحاق ، إلا أنه كان حياً في الرابع عشر من ذي الحجة سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م لأني وجدت بخط عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن أبي بكر الطبري ثبتاً له ، سمع فيه الموطأ رواية يحيى ابن يحيى على القاضي فخر الدين اسحاق ، وذكر فيه أن إنتهاء السمع للكتاب المذكور في التاريخ المذكور بالمدرسة الرشيدية بمدينة تعز ، وصحح القاضي فخر الدين السماع ، ووجدت بخط شيخنا ابن سكر ، أنه توفى في حدود سنة ٦٧٠ هـ أو فيما بعدها في اليمن » [2]

أما المدرسة المجاهدية ، وهي من أشهر المدارس في اليمن ، فقد درس بها معيداً موفق الدين علي بن أحمد بن محمد بن سالم الزبيدي المعروف بابن سالم (ت ٨١٨ هـ /

(١) المدرسة الرشيدية : انشأها القاضي الرشيد ذون النون بن محمد بن ذي النون المصري الإخميمي ، وتولى الوزارة للمنصور عمر بن علي بن رسول وعمل مآثر كثيرة باليمن . وتوفى سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م .

(بامخرمة ، عبد الله الطيب ، ثغر عدن ، تحقيق ، اوسكار لوفغرين . (بريل ، ١٩٥٠ م)، ج٢ / ص ٧٧ .

الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن . الطبعة الثانية ، (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) ، ص ٣١ ـ ص٣٢ .

(٢) العقد الثمين ، ج٣ / ص ٢٩١ ـ ص ٢٩٣ .

١٤١٥ م)[١] ، كما ناب في نظر الأوقاف على المدارس الرسولية بمكة عن عمه سراج الدين عبد اللطيف بن سالم في أيام غيبته باليمن [٢].

ويذكر السخاوي أن الملك الناصر إستدعى حسين بن علي بن محمد بن داود البيضاوي المكي ، الفرضي الحاسب ، ليسأله عن أشياء بخصوص الحاسبين لديه [٣] . كما درس بمدارس اليمن ، محمد بن موسى المراكشي ، ومحمد بن أبي أبي بكر المراغي ، وعبد العزيز النويري . وغيرهم [٤].

ويبدو أن الكثير من التجار كانت لهم إهتمامات علمية لاسيما أولئك الذين كانوا يرحلون ، خاصة إلى بلاد الهند التي كانت معروفة بالتجارة في ذلك العصر ، وكان علماء الحجاز وتجاره يلقون كل عناية وتكريم في مدن الهند ، سواء من ملوكها أو شعوبها ، كيف ولاوهم قادمون من أقدس بقاع الأرض ، فقد ارتحل إليها ، أحمد المرشدي (ت ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م) الذي قرأ الحديث عند ملك الهند وأقام بها [٥] . كما دخل الهند للتجارة عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم المرشدي (ت ٨٨٢ هـ / ١٤٧٧ م) وهو ممن قرأ عليه وإستفاد منه السخاوي [٦] .وممن رحل إليها كذلك : محمد بن أبي بكر المراغي (ت ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م) ، العالم المشهور بالمدينة المنورة ، حيث مكث بها مدة ، ثم رجع مرة أخرى إلى الحجاز ، وسافر إلى الروم ومات بها [٧] . ودخل الهند في سنة ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م ،

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ / ص ١٣٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٥ / ص ١٨٢ ، السيوطي : بغية الوعاة ، ج٢ / ص ١٤٤ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ / ص ١٣٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٥ / ص ١٨٢ .

(٣) الضوء اللامع ، ج٣ / ص ١٥١ .

(٤) انظر لمزيد من المعلومات : الأكوع : المدارس الإسلامية في اليمن .

(٥) ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٢/ ص ١٠٥ .

(٦) ن . م . س . ج ٤ / ص ١١٩ .

(٧) السخاوي : التحفة الطيفة ، ج٣ / ص ٥٤٧ .

حسين بن عبد الله الكرماني المكي ويعرف بابن أصيل ، وكان يشتغل بالنحو والصرف ونحوهما ، ولازم السخاوي ، وسمع منه « البخاري » و « شرح الألفيه » و «التقريب» و « أربعي النووي » و « مسند الشافعي » و « عدة الحصن الحصين» وغيرها من الكتب . وأجازه[1]

أما بلاد التكرور ، فقد رحل إليها : أبو بكر بن قاسم بن عبد المعطي بن أحمد بن عبد المعطي الخزرجي المكي المعروف بالحجازي (ت ٨٠٦ هـ /١٤٠٣ م) [2] . وكان قد سمع من عثمان بن الصفي الطبري بمكة ، وذكر المقريزي وابن حجر أنهما إستفادا منه كثيراً ، حيث كان كثير الإستحضار للتواريخ [3] ، وكانت له مكانة لدى أهالي التكرور ، حتى أنهم كانوا يستسقون به ، فسقوا [4] . (أي أنهم كانوا يذهبون إليه ليدعو الله لهم أن ينزل عليهم الغيث) .

وممن كان له رحلة إلى سواكن [5] محمد بن محمد بن أبي بكر الذروي ، الشهير بالمرجاني (ت٨٧٦ هـ /١٤٧١م) ، حيث تولى القضاء بها عدة مرات [6] ، وأحمد بن

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٣ / ص ١٤٧ ـ ص ١٤٨ .

(٢) المقريزي : العقود الفريدة ، ج ١ / ص ١٧٤ ، الفاسي : العقد الثمين ، ج٨ / ص ١٩ ـ ص٢٠، ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ٢ / ص ٢٧٤ ، المجمع المؤسس ، ورقة ٣٨٤ ، السخاوي: الضوء اللامع ، ج١١ / ص ٦٦ .

(٣) المقريزي : العقود الفريدة ، ج ١ / ص ١٧٤ ، ابن حجر : المجمع المؤسس ، ورقة ٣٨٤ .

(٤) المقريزي : العقود الفريدة ، ج ١ / ص ١٧٤ ، ابن حجر : المجمع المؤسس ، ورقة ٣٨٤ .

(٥) سواكن : بلد مشهور على ساحل بحر الجار قرب عيذاب ترفأ إليه سفن الذين يقدمون من جده وأهله بجاة سود نصارى . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ / ص ٢٧٦) .

وهي الآن إحدى الموانيء المهمة في الصومال .

(٦) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢٦٢ ـ ص ٢٦٣ .

عبد العزيز بن أحمد بن سالم بن ياقوت المكي المؤذن (ت ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م)[١] ، الذي سمع كثيراً على علماء مكة ، وحدث بها ، ثم ارتحل إلى سواكن قبل العشرين وثمانمائة ، وخرج منها إلى بر السودان ، وتزوج هناك ، ورزق عدة أولاد ، وصار يحج بعض السنين ويجاور قليلاً ، و انقطع عن الوصول إلى مكة من بعد الأربعين بقليل ، ثم مات بها .[٢]

كما رحل إلى بلاد الشرق ، عبد اللطيف بن محمد بن أحمد الفاسي (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) ، وإجتمع هناك بالقان[٣] معين شاه رخ[٤] بن تيمور ، وكان يكرمه غاية الإكرام ، ويسعفه بالعطايا والإنعام لحسن إعتقاده فيه ومزيد محبته له ، وإقتفى ولده الوغ بك وغيره من قضاة وشيوخ ذلك البلد في إكرامه ورعايته ، ويقال : « أنه رجع من بعض سفراته بنحو عشرين ألف دينار ، فما إستوفى سنته حتى أنفقها ، لما عرف عنه من حبه للخير ».[٥]

---

(١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٦٠ ـ ص ٦١ ، معجم ابن فهد ، ورقة ٣٢ ب .

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٦١ .معجم ابن فهد ، ورقة ٣٢ ب .

(٣) القان : هكذا وردت في مصادر ترجمة الفاسي ، وأصلها خاقان : وهو لقب ملوك الترك الخرز والتغزغز (دائرة المعارف الإسلامية ، ج٨ / ص ١٩٢).

(٤) شاه رخ : ويطلق عليه أيضاً شاهرخ ميرزا : الإبن الرابع لتيمور ـ وأول ملوك التيمورية ولد في سمرقند سنة ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م ، وتولى الحكم سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م ، وكان مسلماً غيوراً على الإسلام كريماً محباً للعلماء مشاركاً لهم ، أنشأ مكتبة عظيمة ، وتوفي سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م . وخلف من الأبناء خمسة منهم ألوغ بك . (دائرة المعارف الإسلامية ، ج ١٣ / ص ١٢٥ ـ ١٢٨).

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ / ص ٥٤٦ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٤ / ص ٣٣٣ ـ ص ٣٣٤ .

وكذلك محمد بن محمد بن علي بن محمد القرشي العبدري الشيبي . (ت ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م) [١] . قاضي القضاة جمال الدين ، الذي دخل بلاد شيراز وبغداد ومراغه[٢] ، وأكرمه صاحب شيراز ، ودخل بلاد اليمن ، وأقام بها مدة ، وكان له بها الحظ الوافر عند ملكها الناصر ، ثم عاد إلى مكة وتولى بها سدانة الكعبة المشرفة . [٣]

وكانت الرحلة في طلب العلم تكسب صاحبها نضجاً علمياً ، نتيجة لإحتكاكه بعلماء الحرمين الشريفين أو القادمين إليها للحج والزيارة والمجاورة ، وينعكس بالتالي عليه في حال رجوعه لبلده من إنتاج فكري وتقلد مناصب حيوية ، كعبد الرحمن بن أحمد البغدادي (ت ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م) [٤] . الذي جاور مكة عدة مرات ، وكان ابن الجزري حريصاً على الحصول منه على إجازة لإبنه أبي الفتح محمد ، فأجازه أثناء لقائه به في القاهرة . [٥]

ومحمد بن شهاب الدين الطرابلسي (ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م) [٦] ، المجاور بمكة المكرمة الذي تولى منصب قاضي القضاة بالديار المصرية عدة مرات [٧] ، وأحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ، المجاور بمكة الذي تولى عدة مناصب بالقاهرة ، كالحسبة والإمامة بجامع الحاكم ، كما صنف مؤلفات قيمة في التاريخ . [٨]

---

(١) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٣٧ ب ، ورقة ٣٨ أ .

(٢) مراغه بالفتح . والغين المعجمة : بلد مشهورة عظيمة اعظم وأشهر بلاد اذربيجان (ياقوت : معجم البدان ، ج٥ / ص ٩٣) .

(٣) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٣٧ ب .

(٤) الجزري : غاية النهاية ، ج١ / ص ٣٦٤ .

(٥) ن . م . س ، ج١ / ص ٣٦٤ .

(٦) ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم : تاريخ ابن الفرات ، تحقيق قسطنطين زريق ، نجلاء عزالدين (بيروت الجامعة الأمريكية ، ١٩٤٢ م) ، ج٩ / ٢ : ص ٤٧٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ / ص ٣٦١ .

(٧) تاريخ ابن الفرات ، ج٩ / ٢ : ص ٤٧٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ / ص ٣٦١.

(٨) الشوكاني : البدر الطالع ، ج ١ / ص ٨٠ ـ ص ٨٩ .

خامساً : الوراقه والوراقون ودورهم في تنشيط الحركة العلمية .

كان من نتائج صناعة الورق في العالم الإسلامي ، وإنتشار إستعماله أن ظهر في المجتمع الإسلامي طائفة من المشتغلين بشئون الكتاب . من نسخ وتجليد وتجارة[١] ، وهؤلاء هم الوراقون الذين كانوا عاملاً حاسماً في نشر العلوم والمعارف وفي توفير الكتب والمكتبات في العالم الإسلامي .

والحجاز شأنها شأن المدن الإسلامية الأخرى ، فقد ظهرت بها أعداد لابأس بها من النساخين يمتازون بجودة الخط وحسنه ، وكان أكثر هؤلاء النساخين من الذين قدموا إلى الحرمين الشريفين للمجاورة .

ويبدو أن هذه المهنة كانت تدر مردوداً مالياً طيباً على صاحبها ، لذا فقد كان الكثير منهم يتكسبون منها ، ويجعلونها عملاً دائماً لهم .

والقائمة طويلة لحصر أسمائهم ، ومما تذكره مصادر البحث من العلماء النساخ والمتكسبين : منهم :

إبراهيم بن محمد بن حسين برهان الدين القاهري (ت ٨١٤ هـ / ١٤١١ م)[٢] ، ويعرف بالموصلي .

أقام بمكة ثلاثين سنة ، وكان له إلمام بالعلم وخط حسن يتكسب منه ، حيث كتب « مختصر الشيخ خليل » وشرحه لابن الحاجب الفرعي ، وكان يذكر أنه من تلامذته[٣] .

(١) كحالة : مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام ، (دمشق ، مطبعة الحجاز ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م) ، ص ٢١٥ ، البشرى : الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس ، ص ١٣٥.

(٢) ابن حجر : انباء الغمر ، ج٢ / ص ٤٩٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج١ / ص ١٣٧ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج١ / ص ١٣٧ .

وأحمد بن محمد الحنبلي ، وقد جاور بمكة ثلاثين سنة ، مع تقنعه بالنساخه [(١)] ، وعبد السلام بن عبد الوهاب الزرندي (ت ٨٣٥ هـ / ١٤٣١ م) الذي كان يكتب الخط الحسن ، وينظم الشعر ويتكسب منهما [(٢)]. وعبد السلام بن موسى بن أبي بكر الشيرازي العجمي المكي (ت ٨٤٦ هـ / ١٤٤٢ م) [(٣)] ، الذي نسخ بالأجرة ، وحدث ، وأخذ عنه النجم بن فهد [(٤)] .

وعثمان الشحري الناسخ ، نزيل مكة ، حيث جاور بها أكثر من عشرين سنة وكتب بها كتباً كثيرة بخطه للناس بالأجرة [(٥)] . والحسن بن الحسين بن قاسم القطان المؤذن بالمدينة المنورة ، الذي كان ينسخ بالأجرة [(٦)] . وأبا القاسم بن علي الزبيدي (ت ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م) [(٧)] ، وعبد الله بن محمد بن أحمد الصالحي الناسخ [(٨)] ، ومحمود بن محمد بن إسماعيل الحجازي. [(٩)] وعلي بن محمد بن أحمد السفاقسي [(١٠)]. وكل

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ / ص ٢٢٠ .

(٢) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ / ص ٩ ـ ص ١٠ .

(٣) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٤٢ ، الدر الكمين ، ورقة ١٢٣ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٤ / ص ٢٠٧ ـ ص ٢٠٨ .

(٤) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٤٢ ، الدر الكمين ، ورقة ١٢٣ أ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ / ص ٥٧ .

(٦) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج١ / ص ٥٠٥ .

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج١١/ ص ١٣٦ .

(٨) ن . م . س . ج ٥/ ص٤٧ .

(٩) السخاوي : الضوء اللامع ، ج١٠/ ص ١٤٥ ـ ص ١٤٦ .

(١٠) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٧٨ .

هؤلاء إشتهروا بالنسخ بالأجرة . وغيرهم الكثير التي تحفل به مصادر البحث.[1]

وكان بعض العلماء ينسخون لأنفسهم رغبة في إقتناء مانسخوه من الكتب ، كما كان بعضهم يكتب وينسخ لغيره من أصحابه العلماء خدمة لهم وإحتساباً للأجر والثواب عند الله . مثل : -

علي بن إبراهيم بن علي بن راشد الإبي اليمني (ت ٨٥٩ هـ / ١٤٥٤ م) ، الذي كتب بخطه الحسن الكثير من الكتب لنفسه ولغيره ، وكتب القرآن العظيم في ربعه شريفة [2] .

ومحمد بن عبد الله الشمس الصعيدي الشافعي نزيل الحرمين الشريفين ، الذي كان يجيد الخط وكتب عدة كتب منها « الشفا » كما كتب للناسي عدة كتب [3].

وعبد السلام بن محمد بن الكازروني (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) ، الذي كان من العلماء الفاضلين المدرسين بالحرمين الشريفين ، وكان يكتب الخط الحسن ، ومما كتب به « شرح منهاج النووي » للشيخ تقي الدين السبكي ، وكان يكتب الشفاعات والمحاضر التي يرسل بها إلى البلدان بسبب الحكام وغيرهم ، حيث تميز في كتابه هذه المحاضر في أسطر قليلة وافية بالمقصود .[4]

وكذلك أبو الطيب السحولي (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) ، الذي كان فقيهاً بالمدارس الرسولية بمكة ، وكان يجيد الخط في كتبه [5] ، فقد كتب « الشفا » للقاضي عياض ،

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ٦٩ ، ج٦ / ص ١١٧ ، ج١١ / ص ١٢٥ ، ج٦ / ص ١٦٥ .

(٢) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٦٣ - ص ١٦٦ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ / ص ١١٨ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٥ / ص ٤٢٨ - ص ٤٢٩ .

(٥) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ / ص ٦٩٤ .

سمع منه عبد السلام الشيرازي . [١]

كما كان عبد اللطيف بن أحمد الفاسي يكتب بخطه أشياء كثيرة لنفسه ولغيره من أصحابه خدمة لهم . [٢] وكذلك نضر الله الهندي الحنفي المقيم برباط الهنود وبرباط الخليفة بباب العمرة ، وكان من مشايخ العلم والحديث ، معروفاً بالعبادة والعلم ، وكان ينسخ ويكتب بخطه كثيراً . [٣]

ويحيى بن حسن بن عكاشة الربعي الغزي (كان حياً سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩١ م) [٤] الذي جود الخط وكتب « صحيح مسلم » في ثلاثين جزءاً ، و « المنان في تفسير القرآن » في أربعين مجلداً . [٥] وتصدر بعض هؤلاء النساخين للكتابة لدى العلماء مثل أبي عثمان بن أبي بكر السنديبسي المقريء المكتب نزيل طيبة الذي تصدر للكتابة عند السخاوي [٦] .

كما أن إجادة الخط عند بعض العلماء والمجاورين ، جعلها مهنة وحرفة لهم إذا ماإعترتهم مصاعب الحياة : مثل : ـ عبد الهادي بن محمد بن أحمد الأزهري المدني ثم المكي (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م)[٧] ، الذي سمع كثيراً من العلماء ، وأجاز للسخاوي ، ولفاقته إكتسب من النساخه . [٨] وأحمد بن أبي بكر بن أحمد بن موسى الأشعري اليماني نزيل

---

(١) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٢٣ أ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ / ص ٤٨٦ .

(٣) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٨٠ أ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج١٠ / ص ٢٢٤ ـ ص ٢٢٥ .

(٥) ن . م . س . ج١٠ / ص ٢٢٤ ـ ص ٢٢٥ .

(٦) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ / ص ٦٣٤ ـ ص ٦٣٥ .

(٧) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص١٥٦ ـ ص ١٥٧ ، السخاوي : التحفة اللطيفة، ج٣/ ص٩٧ ، الضوء اللامع ، ج٥ / ص ٩٢ .

(٨) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٥٧ .

مكة الذي تميز في اللغة العربية والنظم ، ولحاجته للمال كان يتكسب بالنساخة .[1]

وكذلك طاهر بن محمد بن محمد الهروي نزيل مكة ، الذي ترك الإشتغال بالعلم ، وأقبل على الكتابة للإسترزاق .[2]

أما محمد بن أحمد صدقة (ت ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م)[3] ويعرف بابن الشاهد ، فقد كان يعمل بالتجارة وكان حسن الخط ، فغرق في أموال الناس ولم يستطع تسديدها ، فاتجه للنسخ بالأجرة من أجل سداد هذه الديون .[4]

ويذكر الفاسي وغيره من المؤرخين أن محمد بن إسماعيل بن يوسف الحلبي ، الشيخ شمس الدين الناسخ (ت ٨١٤ هـ / ١٤١١ م)[5] « كان مجيداً للكتابة ، وكتب بخطه الكثير . وكان في بعض الأحيان يقرأ في موضع معين من القرآن ، ويُقرأ عليه في موضع آخر ، ويكتب في موضع آخر ، فيصيب فيما يقرأه ويكتبه ، وفي الرد على من يقرأ ، بحيث لايفوته شيء في الرد عليه »[6] .

ولاشك أن نسخ الكتب كان يستنفذ جهداً ووقتاً عظيماً ، حتى أن بعضهم كان لا يفي بوعده في تسليم الكتاب في الوقت الذي حدده ، وقد شكى من ذلك السخاوي في ترجمته لأحمد بن أبي بكر الأشعري ، حيث قال : «أنه ذو أخلاق عالية ، لكنه لم يكن وفياً في

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ / ص ٢٥٠ .

(٢) ن . م . س . ج٤ / ص ٦ .

(٣) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦/ ص ٣١٤ .

(٤) ن . م . س . ج٦ / ص ٣١٤ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ / ص ٤١٦ ـ ص ٤١٧ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٤٣ ـ ص ١٤٤ . ابن طولون : الغرف العلية ، ورقة ٢٠٤ ب .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ / ص٤١٧ .

تسليم الكتب المراد إستنساخها ، وإنه لولا ذلك لكان من الأغنياء من هذه الحرفة »[١] ، وذكر أنه كتب له « شرح الألفية » وكان يحضر عنده كثيراً للإستفادة من علمه .[٢]

هذا وقد أشار ابن بطوطة إلى دكاكين يجلس بها هؤلاء النساخ ، بجوار المسجد الحرام[٣] .

ولكنه لم يمدنا بشخصيات من هؤلاء النساخ ، بينما ذكرت بعض المصادر أن مكانهم كان عند باب السلام ومنهم : ـ حسن بن علي بن أبي بكر بدر الدين السبكي القاهري الشهير بالكوم الريشي (ت ٨٥١ هـ / ١٤٤٧ م)[٤]، وأبو بكر بن أبي الفضل القسطلاني (ت ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م)[٥] الذي كتب من تصانيف السخاوي عدة كتب وقرأ عليه بعضها .[٦]

وكان بعض هؤلاء النساخين يتخذون من أماكن عملهم مكاناً لنسخ مايرغبون تحصيله من الكتب أثناء فراغهم ، فليس من الضروري أن يكون له دكان خاص بالنساخه ، فقد كان أحمد بن محمد بن عماد الدمنهوري ثم المكي العطار (ت ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م)[٧] يعمل بتجارة العطر في بعض الحوانيت[٨] ، وكان ينسخ كتب العلم لرغبته في تحصيل

---

(١) الضوء اللامع ، ج ١ / ص ٢٥٠ .

(٢) ن ٠ م ٠ س ، ج١ / ٢٥٠ .

(٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ١٢٧ .

(٤) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٠٤ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٣ / ص ١٠٧ .

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، ج١١/ ص ٦٦ .

(٦) ن ٠ م ٠ س ، ج١١ / ص ٦٦ .

(٧) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ / ص ١٥٧ ، ص ١٥٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٨/ ص ١١٨ .

(٨) الحوانيت : مفردها حانوت وهو الدكان أو محل التجارة . (المعجم الوسيط ، ج١/ص ٢٠٨).

مـافـيـهـا مـن عـلـم ، مـثـل « سيـرة ابن هشـام » و « الرياض النضـرة » للمـحب الطبـري وغيرها.[1]

أما تجارة الكتب فقد كانت سوقها رائجة في الحرمين الشريفين ، وساعد على ذلك المجاورين والقادمين للزيارة والحج ، حيث كانوا يصطحبون معهم جلّ كتبهم . إما للإستفادة منها ، أو إهدائها لعلماء الحرمين الشريفين أو بيعها في سوق الكتب إذا ضاقت بهم سبل العيش .[2] بالإضافة إلى إرسال السلاطين مندوبين لهم ، ليشتروا لهم كتباً من مكة . فقد أرسل السلطان عامر إلى مكة يطلب أن يشتري له كتاب « فتح الباري » لابن حجر ، فاشترى له بمال جزيل وأرسل إليه .[3] كما وصل إلى مكة في سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م . الشيخ العالم محمد الخلجي قادماً من الهند ، وذلك لشراء بعض الكتب لسلطانه .[4] وكان يجلس بهذا السوق الدلالين « المنادين » والنساخين ، مثل أحمد بن محمد الحريري (ت ٨٦٠ هـ / ١٤٥٥ م)[5] ، وسعيد بن محمود الكوراني ويعرف بالكردي (٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م)[6] ، كما إحترف بعض المجاورين بيع الكتب وشرائها ، مثل أحمد بن محمد المقدسي الشهير بابن شريفه نزيل مكة (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م)[7] ، ومحمد بن عمر بن محمد التميمي التونسي ثم المكي (ت ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م)[8] الذي قطن مكة ، وكان يعمل بتجارة الكتب والتجليد مابين القاهرة ومكة .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ / ص ١٥٧ - ص ١٥٨ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٨/ ص١١٨.

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٢ / ص ٤٠٠ ، العز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ٩٧ ب .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٨ / ص ٢ .

(٤) العز بن فهد : بلوغ القرى ، ورقة ١٩ أ .

(٥) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٨٨ ب .

(٦) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ٢ / ص ١٥٧ ، الضوء اللامع ، ج٣ / ص ٢٥٦ .

(٧) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٨٦ ب ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٢ / ص ٢٥٤ .

(٨) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٨/ ص ٢٥٥

ومحمد بن أحمد الشمس الجيزي القاهري الأزهري الناسخ نزيل مكة ، الذي كان ملازماً للنساخه وكانت له خبرة بالكتب وأسعارها ، وكان يشتري منها مايربح فيه أو يكسد عليه.(١)

كما كان سوق الكتب مجمعاً للعلماء والأدباء ، وأحياناً كانت تدور بينهم مناقشات جاده عند شراء كتاب معين فيه إشكالات . فهذا الحافظ زين الدين العراقي وهو أشهر علماء هذا العصر يحضر إلى هذا السوق ويقول : « إجتمعت مع الضياء في بيع تركة كتب بمكة فعرض منها كتاب من تأليف الخطيب البغدادي ، فزدت في ثمنه ، فقال : الضياء « أتشتري هذا الكتاب وتزيل منه ، فإن الخطيب تكلم في أبي حنيفه » فقلت : ماتكلم فيه بل ذكر كلام الناس »(٢). ثم عقب ابن طولون على ذلك بقوله « وأي تعصب أقوى من كلام العراقي حيث يقول عن الخطيب ماتكلم فيه بل ذكر كلام الناس ، مع علم العراقي . أن الخطيب خالف ماشرطه في تاريخه من نكر الأسانيد المنقطعة الضعيفة ، حيث يصل إلى غرضه في الكلام في أبي حنيفه ، ولم يقع له ذلك في غير ترجمة أبي حنيفة » (٣) .

ويبين لنا هذا النص مدى حرص العلماء على الحضور إلى أسواق الكتب في المدن التي يقومون بزيارتها لأجل شراء الكتب ، وخاصة الكتب التي تجرح وتقدح في علماء مشهورين ، وإزالة مافيها من إساءة لعلماء الإسلام ، فقد تكون هذه النسخة المراد شراؤها هي النسخة الوحيدة في العالم الإسلامي آنذاك ، وقد تكون إحدى النسخ التي أضاف إليها بعض المتشدقين بالعلم ، أشياء ومعلومات تسيء إلى كاتبها أو مؤلفها من أجل هدف معين . لذلك حرص بعض العلماء على شرائها ولو بثمن مرتفع من أجل إزالة مافيها من معلومات مغلوطه .

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٧ / ص ١٠٢

(٢) ابن طولون : الغرف العلية ، ورقة ٢٧٧ أ .

(٣) ن . م . س . ورقة ٢٧٧ أ .

كما قام بعض باعة الكتب بمساعدة وتشجيع طلاب العلم على العمل العلمي ، فقد كان غانم بن محمد بن محمد بن يحيى بن سالم جلال الدين الخشبي المدني الحنفي ، يشتري الكتب الكثيرة وخصوصاً القديمة منها ، ويبيع لمن أراد من الطلبة برأس ماله ، ويشترط له أنه إذا أراد بيعها ، يدفع له رأس ماله ، فكان الطالب ينتفع بذلك الكتاب دهراً ثم يأتي إلى السوق فينادي عليه ، فإن تجاوز الثمن الذي إشتراه به - باعه - وإن قصر عنه أحضره إليه فاشتراه منه برأس ماله [(١)].

ومما يلحق بحرفة النساخة - التجليد وزخرفة الكتابة وتذهيبها ، وهو مايزيد الكتاب قيمة وجمالاً في الباطن والظاهر ، كما يرفع شأنه عند هواة إقتناء الكتب ، فكان النساخون يحرصون أن يكون الكتاب على جانب من جمال الشكل وجودة التجليد ليكون في مظهره الأنيق ملائماً لقيمته العلمية .

وعليه فقد ظهر فن التجليد في الحجاز ، وعُرف من هؤلاء المجلدين في هذا العصر ، عمر بن أحمد بن محمد أبو حفص التميمي الداري ، [(٢)] وسالم بن محمد بن سالم القرشي الحموي المكي (ت ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م) [(٣)] وطاهر بن محمد بن أبي بكر العجمي المكي (ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م)[(٤)]؛ ويحيى بن عمر بن فهد (ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ م)[(٥)] وعبد العزيز بن علي بن محمد بن علي بن فرحون الذي عرف بالمجلد[(٦)]. ومحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن أبي بكر الريمي الأصل المكي ، وقد كانت لديه خبرة بالتجليد [(٧)]، ومرشد بن محمد بن محمد الزين بن ناصر الدين بن التقي الحسني

(١) ابن طولون : الغرف العلية ، ورقة ١٨٥ أ .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٦ / ص ١١٧ .

(٣) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٤٦ أ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٣ / ص ٢٤٢ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٤ / ص ٥ .

(٥) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١٨٢ أ

(٦) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ / ص ٣٣ - ص ٣٤ .

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٦ / ص ٣١٨ .

الفاسي ، ويعرف بابن المصري ، الذي كان يجيد صنعة التجليد والتذهيب ونحوهما [1] ، وأحمد بن مسعود خليفة المكي ، وقد برع في التذهيب والكتابة ، وفاق في تدقيقها بحيث كتب سورة الإخلاص على أرز ، وذكر السخاوي أنه رأى له تقريضاً لمجموع البدري كان حسن الخط واللفظ والتذهيب [2].

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج١٠ / ص ١٥٤ .

(٢) ن . م .س. ، ج٢ / ص ٢٢٦ .

سادساً : الكتب والمكتبات :

من المعروف أن الكتب والمكتبات قد أدت دوراً مهماً في حياة المسلمين وشكلت صرحاً بارزاً من صروح الحضارة الإسلامية لدرجة أن هذه الحضارة أصبح يطلق عليها « حضارة الكتاب » ، وذلك منذ أن كان المسلمون يعتبرون كل كتاب إبتداء من القرآن الكريم يمثل عالماً كاملاً بنفسه فهو بالنسبة لهم يمثل مالم يمثله أي شيء لأي شعب من شعوب العالم القديم فهو المصدر الوحيد الذي لاينضب للحياة الروحية .[1]

وحين يتحدث المسلمون عن الكتب فإنهم يتحدثون عنها دائماً بالكثير من الحب وكأنهم يتحدثون عن أشياء عزيزة على نفوسهم أو يتحدثون عن أصدقاء مخلصين فهم يقولون عن الكتاب :

نعم الأنيس إذا خلوت كتاب   تلهو به إن خانك الأحباب

لامفشياً سراً إذا إستودعته   وتفاد منه حكمة وكتاب [2]

وتغنى كثير من الشعراء بأهمية الكتاب ودوره في تثقيف المجتمع ، حتى أنه يعتبر عندهم في بعض الأحيان مساوياً لقيمة السلاح ، فهذاالمهلبي ينصح أولاده بقوله : « يابني إذا وقفتم في الأسواق ، فلا تقفوا إلا على من يبيع السلاح أو يبيع الكتب » .[3]

---

(١) الجميل ، محمد بن فارس : المكتبات العربية في العصر العباسي ، وهي مقالة للدكتورة الإيطالية اولجابنتو ،ثم ترجمها الى الانجليزية فريتس كرنكوف ، ونقلها عن الانجليزية وعلق عليها محمد الجميل ، مجلة العصور ، المجلد الرابع . (ذو القعدة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م) ، ج٢ / ص ٢٥٧ - ص ٢٦١ .

(٢) بن عبد ربه ، احمد بن محمد : العقد الفريد ، (القاهرة ، بولاق ١٢٨٣ م) ، ج ١ / ص ١٩٩ .

(٣) ابن الطقطي، محمد بن على بن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٣ .

ولأهمية هذه الكتب في تثقيف المجتمع فقد درج الخلفاء والحكام والعلماء والأغنياء وأهل الخير أن يوقفوا الكثير من الأوقاف على المساجد والمدارس والأربطة وغيرها ، إبتغاء ثواب الله . فأصبح وقف الكتب وحبسها على المكتبات مصدراً رئيسياً من مصادر تزويد المكتبات بالكتب .

ويكون الوقف على أنواع : فمنهم من يوقف كتبه على المسلمين عامة دون تعيين [(١)] ، ومنهم من يخصص فيقول : « أوقفتها على المكان الفلاني أو البلدة الفلانية » ، ومنهم من يترك إستعمالها حراً [(٢)] ، على حين يضع آخرون شروطاً لإستعمالها وإعارتها [(٣)] ، كما فعل الفاسي الذي منع إعارة الكتب لأهل مكة ، غير أن العادة جرت أن يوقف المرء كتبه على المدرسة التي تخرج منها أو درّس أو علم فيها ، أو على الرباط الذي كان يسكنه ويدرس فيه ، أو ماشابه ذلك ، وكان وقف الكتب يسهل عمل الباحث في الحرمين الشريفين ، لأن الكتب كانت مبذولة للجميع ، حيث إستغنى بعض العلماء عن شراء الكتب ولاسيما إذا كانت ذات يدهم ضيقة ، فاستفادوا من هذه الكتب بالمطالعة في أماكنها .

أولاً : المكتبات الخاصة :

لم يظهر لنا من خلال الكثير من المصادر التي تناولت فترة هذا البحث وجود أي مكتبة خاصة لأحد العلماء أو المجاورين في الحجاز يتردد إليها طلبة العلم ، وإنما كانت هناك تراجم تشير إلى أن كثير من العلماء والمجاورين كان لديهم كتب خاصة بهم ، أو أنهم كانوا يحبون إقتنائها ومطالعتها ، وكانوا يساعدون طلبة العلم بإعارتها إليهم .

فقد ذكر السخاوي أن « محمد بن أحمد بن محمد الصاغاني المعروف بابن الضياء (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م) ، كان إماماً علامة في الفقه والأصلين والعربية ، ومشاركاً في فنون ، حسن الكتابة والتقييد عظيم الرغبة في المطالعة والإنتقاء بحيث بلغني عنه أبي الخير بن عبد القوي ، أنه قال : أعرفه أزيد من خمسين سنة وما دخلت عليه إلا وجدته يطالع أو يكتب » [(٤)]

---

(١) السخاوي : الضرر اللامع ، ج ٩ / ص ٢٨٢ .

(٢) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج١ / ص ٣٦٢ .

(٣) التقي بن فهد : لحظ الإلحاظ ، ص ٢٩٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ /ص ١٩ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٧ / ص ٨٥ .

كما أوقف إبراهيم بن محمد الموصلي (ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) كتباً كثيرة بخطه منها « شرح ابن الحاجب » وغيره [١].

وعلي بن محمد الجيزي المعروف بابن الجريش (ت ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م) الذي كان مغرماً بتحصيل الكتب بحيث إقتنى منها نفائس من كل نوع شراءً وإنتساخاً ، حتى قيل أنها تساوي أربعة آلاف دينار [٢] . كما إقتنى محمد بن أبي بكر المراغي المدني كثيراً من كتب الصوفية بسبب محبته لأبي عربي الصوفي . [٣]

وكان لعلماء الحرمين الشريفين والمجاورين به دور في تنشيط الحركة العلمية عن طريق إعارة الكتب ووقفها لنشر العلم والمعرفة بين الناس مثل : عبد السلام بن محمد بن محمد بن يحيى الخشبي المدني الذي سمع من الزين أبي بكر المراغي ، وكتب له نسخة من تصنيفه « تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة » إنتهى منها في جمادي الثانية سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م وقد أوقفها المؤلف وشُهد عليه بالوقفية . [٤]

كما كان لدى النجم المرجاني (ت ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م) ، كثير من نفائس الكتب ، وكان يسمح بإعارتها لطلاب العلم . [٥]

وقد إجتمع للتقي بن فهد من الكتب مالم يكن في وقته عند غيره من أهل بلده ، وكثر إنتفاع المقيمين والغرباء بها فكان ذلك أعظم قربة ، خصوصاً وقد كان سمحاً في إعارتها لمن يعرف ومن لايعرف وحبسها بعد موته . [٦]

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج١ / ص ١٣٧ .

(٢) ن . م .س ، ج٦/ ص ١٣ ـ ص ١٤ .

(٣) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٨ ب .

(٤) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ / ص ١٦ ـ ص ١٧ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج١ / ص ٤٢٩ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج٧ / ص ١٨٢ ـ ص ١٨٣ .

(٦) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٩/ ص ٢٨١ ـ ص ٢٨٢ .

ورشيد بن عبد الله شهاب الدين السعيدي ، أحد خدام المسجد النبوي ، وقد كان فقيهاً متديناً متعبداً يصحب العلماء ويأخذ منهم ، ويشتري كتب العلم ويوقفها عليهم ، وكان لديه خزانة جيدة تضم غرائب المصنفات .(١)

وذكر السخاوي أن أيوب المغربي أوقف كتباً بالمدينة لايعلم مكانها وذلك في سنة ٨٤٧ هـ /١٤٤٣م (٢) وذكر كذلك أن شخصاً إسمه بهادر يعمل معماراً ، أوقف كتباً بالمدينة منها الصحيحين .(٣)

وعلى الرغم من وجود بعض الجفاء والإختلاف العلمي بين العلماء إلا أنهم كانوا يتناسون ذلك عندما يتصل الأمر بالمصلحة العلمية . رغبة منهم في نشر العلم والمعرفة ، وربما كانت الإعارة مدخلاً لأحدهم لإزالة الجفوة بينه وبين عالم آخر ، فالسيوطي يورد لنا حادثة له مع عالم مكة البرهان بن ظهيرة ، جعلته ينفر منه زمناً ، وكان السيوطي يتوقع منه غير ذلك ، وكان سبب نفوره منه . أن البرهان بن ظهيرة لم يعط الوفاء حقه ، وظنّ السيوطي لما ذهب إلى مكة ولقيه هناك أن ينزله منزلته التي يستحقها كرجل علم ، وطالب معرفة ، ويبدو أن الشيخ برهان الدين لم يكترث به لحساسيته من بعض مدعي العلم الذين يفدون إلى مكة ، ويتقربون إليه متعلقين بسبب ماله الذي يغدقه على الوافدين عليه ، ولكن نفس السيوطي لم تسترح لهذه المعاملة ، فالسيوطي في نظر نفسه فوق المال ، وفوق التملق ، فلم يرض لنفسه أن يكون واحداً من هؤلاء الذين يعيشون في كنفه ، خاصة وأن والد السيوطي كان من مشايخ البرهان بن ظهيرة ، فحدثت جفوة وجدال علمي بينهما ، وحاول بعض أهل الخير الإصلاح بينهما ، فلم يجب السيوطي على ذلك ، ثم بعد سنين ، أرسل الشيخ برهان الدين بن ظهيرة كتاباً إلى صديقه الشيخ عبد القادر بن شعبان الفرضي ، يطلب منه أن يأخذ من السيوطي

---

(١) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ / ص ٦٤ ـ ص ٦٥ .

(٢) ن . م . س . ج ١ / ص ٣٦٢ .

(٣) التحفة اللطيفة ، ج١ / ص ٣٨٥ ـ ص ٣٨٦ .

عدة كتب [١] ليستنسخها له منها . فأجابه على ذلك ، وكانت هذه الكتب واسطة لعودة الصفاء بينهما [٢]. وكتب إليه كتاباً بالصفاء . [٣]

وكان بعض العلماء والواقفين لهذه الكتب ، يضعون شروطاً عند إعارتها أو يمتنعون عن إعارتها لضنهم بها أو خشيتهم ضياعها ، وسوء إستعمالها من قبل المستعير . فقد ذكر تقي الدين ابن فهد ، أن مؤلفات تقي الدين الفاسي ومصنفاته ، صارت جميعها كالعدم ، لأنه أوقفها ، وشرط أن لاتعار لمكي[٤] ، وأسند وصيته في ذلك وغيره إلى أخيه لأمه ، الخطيب أبي اليمن النويري ، وينتقد التقي بن فهد النويري لمماطلته طلاب العلم ، بقوله « فكان من شأنه إذا قصده آفاقي [٥] لإستعارة شيء منه يعتذر له بالمعاذير التي ليست لائقة بالجهال ، فكيف بمن ينسب نفسه إلى طلبه العلم والورع والصلاح ، فإذا ثقل عليه أحد في ذلك ، وكان ممن يخشاه أو يحترمه من ذوي الوجاهات من الغرباء أعاره بعض التصانيف ، وتعلل عليه في باقية بالزور من القول » [٦]كما ذكر النجم بن فهد والسخاوي « أن أبي اليمن النويري كان ضنيناً في إعارتها » . [٧]

---

(١) هذه الكتب هي : « الاتقان » و « الأشباه والنظائر » و « تكملة تفسير الجلالين » و « شرح الفية الحديث » « شرح ألفية ابن مالك » و الجزء الأول من « الدر المنثور في التفسير بالمأثور »
(السيوطي : نظم العقيان ، ص ٢١) .

(٢) ن . م . س . ص ٢٠ ـ ص ٢١ .

(٣) انظر نص هذه الرسالة . السيوطي : نظم العقيان ، ص ٢١ ـ ص ٢٣ .

(٤) لحظ الالحاظ ، ص ٢٩٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ / ص ١٩ .

(٥) آفاقي : الضارب في آفاق الأرض ، ومن لاينتسب إلى وطن . (المعجم الوسيط ، ج ١ / ص٢٢)

(٦) لحظ الالحاظ ، ص ٢٩٥ .

(٧) الدر الكمين ، ورقة ٣ أ ، ـ الضوء اللامع ، ج ٩ / ص ١٤٤ ، التبر المسبوك ، ص ٢٩٠ .

وكان محمد بن علي بن محمد بن علي بن ضرغام البكري ويعرف بابن سكر (ت ٨٠١ هـ / ١٣٩٨ م) لايسمح بإعارة كتاب ولابمطالعته .[١]

كما إمتنع ابن طولون عن إعارة شرحه لكتاب « الهداية » لعبد العزيز بن محمد بن ركن الدين الكجراتي الهندي المكي ، خوفاً من إنخرام النسخة .[٢]

وتعرضت كتب بعض العلماء للضياع ، إما لحاجة ورثة هذا العالم للمال فيقومون ببيعها بعد وفاته ، أو لعدم معرفتهم بقيمة هذه الكتب وإهمالهم لها . فقد كان لدى عمر بن محمد بن علي بن فتوح السراج أبو حفص الدمنهوري نزيل مكة (ت ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م) ، عدداً كبيراً من الكتب ، ولم يعمل فيها خيراً ، بل هلكت بعده ولم ينتفع بها [٣]

وكذلك محمد بن أحمد الضياء القرشي العمري أبو البقاء (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م) ، الذي حصل عدداً كبيراً من الكتب النفايس ، أذهبها ورثته بالبيع [٤]. كما تعرض أحمد بن عز الدين بن الحسن الحسني (ت ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م) للنهب ، حيث كان يحمل معه كتباً عظيمة أخذها من خزانة والده أثناء رحلته لطلب الحديث بالمدينة ، فنهبت بديار حرب .[٥]

و يذكر العز بن فهد أن شهاب الدين الأسطى (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) كتب وصية بخطه يوصي فيها بأنه لا يملك إلا ثلاثين ديناراً . وأنه أوقف كتبه بمكة والمدينة ، وأمر في وصيته هذه أن يباع من كتبه ماقيمته مائة دينار لتفريقها على الفقراء ، ولكن ورثته قاموا

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، ج٩ / ص ١٩ - ص ٢٠ .

(٢) الغرف العلية ، ورقة ١٤٠ ب - ورقة ١٤١ أ .

(٣) السخاوي : التحفة الطيفة ، ج٣ / ص ٣٥٨ .

(٤) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٦ أ .

(٥) الشوكاني : البدر الطالع ، ج٢ / ص ٣٨ - ص ٣٩ .

ببيع هذه الكتب جميعها وأخذوا ثمنها .[١]

وكذلك عبد الله بن حجاج أبو محمد المغربي الشهير بمكشوف الرأس (ت ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م)[٢] الذي كان من أكابر العلماء المطلعين على العلوم اليونانية ، وذكر السخاوي أنه : « جمع من الكتب الجليلة مالم يجمعه أحد من جنسه ، أتى بها من بلاده ، مشتملة على أصول وأمهات ودواوين من تفسير ، وفقه ، وحديث ، وتاريخ ، وطب ، ومنطق ، وحكمة وعلوم شتى ، لايعرفها أهل زماننا ولايفهمها إلا من عالج أصولها ، وأدرك شيوخها وقلّ من يفهمها من أهل المدينة ، وكان فيها من كل فن تصانيف عديدة ، فلما أدركه الأجل أوصى إلى جاره النور بن الصفي فقيه الإماميه بأولاده الصغار ، ولكن الكتب أصابتها الأرضة والنار وتبللت ، وذهب منها النقاوة والأخيار ، والذي بقي منها ، بيع كل عشرين كتاباً بدينار واحد ، وإمتلأت المدينة من بقاياها بفوائد غير مألوفة ،وحصلت في بيت كل طالب جملة من علوم معروفة »[٣]

ويتبين لنا من هذا النص ، أن آفة الكتب ، الأرضة والنار قد أودت بقسم كبير من محتويات هذه المكتبة ، بل وغيرها من المكتبات ، وأن كتب العلوم الشرعية هي المقصودة في قوله « النقاوة والأخيار » وأن مابقي منها لم تكن إلا كتب الطب ، والمنطق ، والحكمة ، وغيرها من العلوم غير المعروفة في المدينة المنورة ، والتي بيعت كتبها بأقل الأثمان وأبخسها ، وذلك لأن طلبة العلم كانوا يهتمون بكتب العلوم الشرعية التي كانت سوقها رائجة في ذلك العصر .

كما كان بعض نزلاء الحرمين الشريفين وزواره يشترون دوراً لهم بمكة والمدينة ويوقفوها على أشخاص معينين من أجل قراءة كتب يسمونها لهم ، فربما أنه كان لهؤلاء العلماء والواقفين توجهات معينة.

---

(١) بلوغ القرى ، ورقة ٩٧ ب ، ورقة ٩٨ أ .

(٢) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ / ص ٣١٠ ـ ص ٣١١ .

(٣) التحفة اللطيفة ، ج٢ / ص ٣١٠ ـ ص٣١١

فقد إشترى تغري برمش بن يوسف التركماني الحنفي (ت ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م) داراً بالمدينة تنسب لأبي مسلم ، وأوصى بوقفها على رجلين ، أحدهما يقرأ « شرح معاني الآثار»[١] للطحاوي ، وكتاب « العاقبة »[٢] لعبد الحق الأشبيلي، و « التذكرة »[٣] للقرطبي . و « رياض الصالحين »[٤] و « سلاح المؤمن »[٥] وغير ذلك من الكتب التي سماها [٦] إلا أنه رجع عن هذه الوصيه قبل وفاته .

ومصطفى ابن صاحب طرابلس الرومي المعروف بالذبيح (ت ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م)[٧] ، الذي أوقف بيتاً له بقعيقعان [٨] على قاريء يقرأ له في مصحف كل يوم

---

(١) معاني الآثار : لأبو جعفر احمد بن محمد الطحاوي ، ولد سنة ٢٢٨ هـ / ٨٤٢ م ، وهي في الآثار المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتوفى صاحبه سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م (حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج٢ / ص ١٧٢٨) .

(٢) العاقبة : لعبدالحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر ابن سبعين الأشبيلي المرسي ، من زهاد الفلاسفة ، ومن القائلين بوحدة الوجود ، حج واشتهر أمره وله كتب كثيرة ، توفى سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م (الكتبي : فوات الوفيات ، ج٢ / ص ٢٥٣ ـ ص ٢٥٤) .وسوف يأتي الحديث عنه .

(٣) تذكرة القرطبي : هوللشيخ المحقق شمس الدين محمد بن أحمد بن فرح الانصاري الاندلسي ، وهو كتاب يتحدث عن الأخبار والآثار عن الموتى والحشر والجنة والنار ، وتوفى صاحبه سنة ٦٧١ هـ / ١٢٧٠ م (حاجي خليفه : كشف الظنون ، ج ١ / ص ٣٩٠) .

(٤) رياض الصالحين : للإمام محي الدين ابن زكريا يحي بن شرف النووي ، وهو مختصر جمعه من الأحاديث الصحيحة مشتملاً على مايكون طريقاً لصاحبه الى الآخرة ، جامعاً الترغيب والترهيب والزهد ورياضات النفوس ، وتوفى صاحبه سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م (ن . م . س ، ج١ / ص ٩٣٦) .

(٥) سلاح المؤمن : لتقي الدين ابي الفتح محمد بن محمد ابن علي بن همام المصري الشافعي المتوفى سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م (حاجي خليفه : كشف الظنون ،ج٢ / ص ٩٩٤ ـ ص ٩٩٥)

(٦) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ / ص ٣٨٨ ـ ص ٣٩٢ .

(٧) النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج٤ / ص ٥٢٣ ـ ص ٥٢٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج١٠ / ص ١٦٠ .

(٨) قُعَيقعان : بالضم ثم الفتح ، بلفظ تصغير . اسم جبل بمكة (ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ / ص ٣٧٩ ، وذكر البلادي انه يسمى الآن جبل هندي ، معجم معالم الحجاز ، ج٧ / ص ١٤٦) .

، وجعل القـاريء فخر الدين بن ظهيرة ، وأوصى له في تركته بمائة دينار [1]

ثانيا : المكتبات العامة :

١ - خزائن الكتب في المساجد :

لعل هذا النوع من المكتبات العامة يعد أول المكتبات نشوءاً في الإسلام ، ولاندري بالضبط متى أنشئت مكتبات المساجد ، ولكن يبدو أن العادة جرت من أقدم عصور الإسلام أن يودع الناس في المساجد عدداً من نسخ القرآن الكريم ، وغيره من الكتب الدينية النافعة كوقف لفائدة المطالعين والمصلين ، ومن الواضح أن مكتبة المسجد ظهرت للوجود منذ إتخذ المسلمون المسجد مكاناً للدراسة ، وذلك لأنه لادراسة بدون كتب [2]

وقد كان المسجد الحرام والمسجد النبوي مركزاً علمياً من أكبر مراكز التعليم والتدريس ، وجذب إليه الطلاب من جميع أنحاء العالم ، لذا إهتم بهما الخلفاء والحكام والأمراء والعلماء وغيرهم ، فأوقف عليهما مجموعات ضخمة من الكتب في أغلب فروع العلم والمعرفة ، ليستفيد منها طلاب العلم .

فالمسجد الحرام كان يضم كثيراً من نسخ القرآن الكريم والكتب الإسلامية ، لأنه ملتقي المسلمين لأداء مناسكهم التعبدية من ناحية ، والتعلم من ناحية أخرى ، كما يحصل التبادل العلمي بين علماء المسلمين سواء بعقد حلقات الدرس في المسجد الحرام ، أو بتبادل الكتب العلمية ، أو إهداء إنتاجهم العلمي إلى هذه الأماكن المقدسة ، ولهذا تميزت هذه المدن الحجازية بالنشاط العلمي وبالعناية بالمأثور من أقوال النبي ﷺ، وأيضاً شيوع المذاهب الإسلامية القائلة بالرأي والآخذة بالقياس على ضوء ماورد في كتاب الله وسنة نبيه .

لهذا فقد نشأت خزائن الكتب على مر العصور الإسلامية في أنحاء متفرقة من الحرم ،

---

(١) النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج ٤ / ص ٥٢٣ ـ ص ٥٢٤ .

(٢) عواد ، كوركيس : خزائن الكتب القديمة في العراق حتى ١٠٠٠ هـ / ١٥١٩ م (بغداد ، ١٩٤٨م)، ص١٣٠. حماده : محمد طاهر: المكتبات في الإسلام، نشأتها وتطورها ومصائرها، الطبعة الثانية (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ص٨٢ ـ ص ٨٣

ولقد تعرضت خزائن الكتب في الحرم المكي الشريف لكوارث عدة منها التلف والضياع والحرق والسرقة ، وذلك لعدم وجود مكان مخصص لها يحميها من عبث العابثين ويحفظها من عوارض الزمان ، كالسيول وغيرها ، لوقوعها في وادي إبراهيم . حيث أوردت لنا بعض المصادر إشارات واضحة لهذه السيول ، التي كانت سبباً في تدمير وإضاعة الكثير من الكتب بخزائن الحرم المكي ، وراح ضحيتها أعداد كبيرة منها ، فقد جاء في الملحق الثالث من ملاحق كتاب « أخبار مكة » للأزرقي « أن سيلاً دخل الحرم المكي عام ٤١٧ هـ وصل إلى خزائن الكتب وأتلف منها الشيء الكثير »[١] وأكد ذلك البتنوني في « الرحلة الحجازية » بأن في الحرم المكي كتباً كثيرة مهمة وضعت في دواليب سرق بعضها والبعض أفسدته السيول التي أغرقت المسجد الحرام وشوارع المدينة المقدسة ، ومن أهمها سيل ٤١٧هـ / ١٠٢٦ م الذي صعد إلى هذه الخزائن وأتلف منها الشيء الكثير[٢]، وأشار إلى أن ذلك أكبر مصيبة على العلم والعلماء لما فقدوه من كتب التراث وأمهات الكتب ونوادرها .[٣]

كما تعرض المسجد الحرام لسيل سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ هـ ، أغرق الكثير من أهل مكة الذين كانوا وقتئذ بالمسجد الحرام ، وتعرضت كذلك جميع الكتب التي كانت موجودة في القبة لهذا السيل [٤]

وذكر العز بن فهد في حوادث سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦م ، أن مكة تعرضت لسيل دخل المسجد الحرام ودخل القبب وأتلف بعض المصاحف وبعض « صحيح البخاري » الذي كان في ثلاثين جزءاً .[٥]

---

(١) اخبار مكة ، ج٢ / ص ٣١٢ .

(٢) الرحلة الحجازية ، ص ٥٩ .

(٣) ن . م . س ، ص ٥٩

(٤) الأزرقي : اخبار مكة ، ج٢ / ص ٣١٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ / ص ١٩٠ الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ / ص ٢٦٧ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ / ص ٢١١ - ص٢١٢.

(٥) بلوغ القرى ، ورقة ٨٧ ب

إن إستمرار هذه الكوارث التي بليت بها خزائن الكتب بالحرم المكي الشريف والتي أفقدت منها الشيء الكثير . الأمر الذي جعل القائمين على الحرمين الشريفين في مكة يفكرون في جمع شتات مابقي من تلك الخزائن من كتب ، ولايعرف تأريخ معين جمع فيه شتات هذه الكتب ، وإنما هناك إشارات واضحة نستطيع الإستفادة منها لمعرفة بعض اللمحات عن خزائن الكتب في المسجد الحرام . وقد جاء في حوادث سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م .

« أن هذا السيل بلل جميع الكتب في قبة الكتب التي كانت تسمى بقبة الفراشين » [(١)] وقام أهل مكة والمجاورين بتجميع هذه الكتب وحملوها ودخلوا بها المدرسة المظفرية ، ونشروا الكتب والمصاحف بالسطح والمجلس والإيوان لكي تجف ، فلما جاء اليوم التالي قاموا بجمعها وردّها إلى القبة[(٢)]

ويفهم من هذه الإشارة أن الكتب قد جمعت في مكان بعينه كقبة الفراشين المذكورة للإستفادة منها أكثر بعد تجميعها في مكان واحد ، الأمر الذي يؤدي إلى تنظيمها ، وقد حصل التجميع من قبل هذا التاريخ كما مر في ذكر سيل سنة ٤١٧ هـ /١٠٢٦م .

وأيضاً روى النجم بن فهد : « أنه في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، ولي الجمال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن فتوح بن محمد بن محمد المكناسي المالكي إمامة مقام المالكية بالمسجد الحرام ، وأوقف المكناسي المذكور كتاب « المقرب » في ست مجلدات لإبن زمنين المالكي على المالكية والشافعية والحنفية الذين يكونون بمكة وجعله بخزانة المالكية بمكة»[(٣)] مما يعني أن أئمة المذاهب بالحرم المكي الشريف كان لكل مذهب خزانة كتب خاصة ، وهو دليل كذلك على ترتيب وتنظيم الكتب في مكان معين مما يساعد على سهولة الإطلاع . ويبدو من الإشارات السابقة أن هذه الكتب نقلت من الخزائن المنتشرة في أنحاء متفرقة من الحرم المكي الشريف إلى خزائن مخصصة مثل القبب التي كانت بالقرب من بئر

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج٢ / ص ٢٦٦ ـ ص ٢٦٧ .

(٢) النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ / ص ٢١٤ .

(٣) ن . م . س . ج٢ / ص ٤٨٧ .

زمزم كقبة الفراشين التي أعدت لمصالح المسجد الحرام ، لحفظ الشمع والشمعدانات وفرش المنبر ، والمصاحف التي أوقفت على المسجد الحرام [١] . وقد ذكر السيوطي « أن أول من عمل هذه القبة وبيت الشراب هو المهدي العباسي » [٢] وقد جددها الخليفة العباسي الناصر [٣] سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م . [٤]

وأكد ذلك ابن بطوطة في رحلته ، حيث ذكر « أن قبة الشراب تخزن فيها المصاحف الكريمة والكتب التي للحرم المكي الشريف ، وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه ، منسوخ سنة ثمانية عشرة من وفاة رسول الله ﷺ ، وأهل مكة ، إذا أصابهم قحط أو شدة ، أخرجوا هذا المصحف الشريف ، وفتحوا باب الكعبة ووضعوه على العتبة الشريفة ، ووضعوه في مقام إبراهيم عليه السلام ، وإجتمع الناس كاشفين رؤوسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الشريف»[٥] وهذه الإشارة توضع لنا تجميع الكتب والإهتمام بنوادرها في مثل هذه القبب

---

(١) الطبري : الأرج المسكي ، ورقة ٧٩ .

(٢) السيوطي : الوسائل الى معرفة الأوائل ، تحقيق ابراهيم العدوي ، وعلي محمد عمر ، (القاهرة مكتبة الخانجي ، بدون ت)، ص ٥٣ ، وذكر ابن بطوطة ان هذه القبة تنسب الى العباس رضي الله عنه (تحفة النظار ، ص ١٣٢) ، والمهدي الذي ذكره السيوطي هو ، محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي العباس ابو عبد الله المهدي من خلفاء الدولة العباسية ، توفى سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٥ / ص ٢٥٩ ، الكتبي : فوات الوفيات ، ج٣ / ص ٤٠٠ ـ ص ٤٠١) .

(٣) الناصر لدين الله احمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد ، أبو العباس يوصف بالدهاء ، على مافي اطواره من تقلب . توفى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م (الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق ، بشار معروف ، شعيب الأرنؤوط ، صالح عباس ، الطبعة الأولى ، (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) الطبقة الثالثة والستون « ٦٢١ هـ ـ ٦٣٠ هـ » ص ٧٥ ـ ص ٧٦) .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٥ .

(٥) تحفة النظار ، ص ١٣٢ ـ ص ١٣٣ ومعروف أن هذا من البدع المنكره .

حفاظاً على سلامتها [١]

أما المسجد النبوي فإنه لم يسلم كذلك من الكوارث ، فقد تعرض لحريق في رمضان سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، وكان من نتائج هذا الحريق ، أن إلتهم المنبر النبوي ،و الأبواب والخزائن والصناديق والمصاحف وكسوة الحجرة النبوية ، وكل النفائس التي كانت فيه ولم يسلم من الحريق سوى القبة التي أحدثها الناصر لدين الله سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م لحفظ ذخائر الحرم ، وبذلك نجا من الحريق المصحف العثماني وعدة صناديق كبار حديثة عهد صنعت بعد الثلثمائة من الهجرة [٢]

كما تعرض المسجد النبوي لحريق آخر في رمضان سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م ، بسبب صاعقة ضربت المنارة الجنوبية الشرقية ، فأطاحت جزءاً كبيراً منها ، قدره السمهودي بالثلث ، وتسبب عن ذلك إحتراق المسجد وإحتراق مافيه [٣]

وذكر السمهودي أن الحريق . إستولى على جميع سقف المسجد وحواصله وأبوابه ومافيه من خزائن الكتب والربعات والمصاحف ، حتى أن قبة المسجد التي حفظت ذخائر الحرم في الحريق الأول لم تسلم من هذا الحريق ، ولم يبق من هذه الكتب إلا الشيء اليسير [٤]، وقال السمهودي : « وكنت قد تركت كتبي بالخَلْوة التي كنت فيها أقيم بها في مؤخرة المسجد ، فكتب إليّ بإحراقها ، ومنها أصل هذا التأليف ـ يقصد كتاب وفاء الوفا ـ وغيره من

---

(١) ولاشك ان هذه الكتب وهذه المصاحف وغيرها هي نواة مكتبة الحرم المكي المعروفة في زمننا الحاضر وقد استعنت كثيراً في البحث عن خزائن الكتب بالمسجد الحرام ، بمقالة الدكتور ناصر البركاتي عن التطور التاريخي لمكتبة الحرم المكي ، مجلة العصور ، المجلد الثاني ، ذو القعدة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ج٢ / ص ٣٢١ ـ ص ٣٢٤ .

(٢) السمهودي : وفاء الوفا ، ج٢ / ص ٥٩٨ ـ ص ٦٠٠ ، رفعت : مرآة الحرمين ، ج١ / ص ٤٦٣ .

(٣) وفاء الوفا ، ج٢ / ص ٥٢٧ ـ ص ٦٣٣

(٤) ن . م. س . ج٢ / ص ٦٣٥ .

أمراء المدينة وعلمائها كانت لديهم خلوات في المسجد النبوي تضم بعض الكتب والمؤلفات ، وإذا كان السمهودي لديه ثلثمائة كتاب في خلوته ، فلا شك أن هذه الكتب كان يستفيد منها طلاب العلم وخاصة تلاميذه .

ونتيجة لهذه الحرائق فقد قام السلاطين والعلماء وغيرهم بإيقاف الكتب في المسجد النبوي الشريف ليؤدي دوره في تنشيط الحركة العلمية ، فقد أوقف إبراهيم السليمان (ت ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م) ، نزيل المدينة ، كتباً نفيسة بالمسجد النبوي[١]، كما كان لشاه شجاع بن محمد بن المظفر اليزدي (ت ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م) سلطان بلاد فارس كتباً موقوفة بالحرم النبوي[٢]، وأرسل السلطان قايتباي بعد الحريق الثاني مصاحف كثيرة وكتباً لخزانة المسجد النبوي الشريف عوضاً عما إحترق .[٣]

٢ ـ خزائن الكتب في الأربطة :

كثرت الأربطة في الحجاز خلال فترة البحث لاسيما في الحرمين الشريفين . والتي كان يقوم بإنشائها سلاطين وأمراء الأطراف ، وغيرهم من محبي الخير ، وقد إشتهر بعض الأربطة بنشاطه التعليمي ووجود العديد من الكتب المهمة فيه ، وقد كثرت هذه الكتب في بعض الأربطة إلى أن أصبحت بعضها تضم مكتبات ضخمة فيها جميع فنون العلم .

ففي سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م ، أمر الملك الأفضل علي بن الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب [٤] صاحب دمشق ، بإنشاء رباط بمكة على يد ربيع بن عبد الله المارداني ،

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ / ص ٧٩ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٥ / ص ٣ ـ ص ٤ ، الزهور المقتطفة ، ورقة ٦٩ ـ ورقة ٧٠ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج٢ / ص ٣١١ ـ ص ٣١٢ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ / ص٢٠٩ . الصباغ ، تحصيل المرام ، ورقة ١٩٤ ـ ورقة ١٩٥ .

(٣) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٣ / ص ٤١٠ ، السمهودي : وفاء الوفا ، ج٢ /ص ٦٤٣. العصامي : النجوم العوالي ، ج٥ / ص ٤٥ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٦ / ص ٢٧٥ ـ ص ٢٧٦ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج٢ / ص ٥٦٤ .

وكذلك فعل عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن عياش (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) ، الذي حصل جملة من كتب القراءات وغيرها . فأوقفها على نفسه ، وعلى من سيحدثه الله له من الولد ثم على سائر المسلمين . وجعل مقرها بعد موتهم برباط ربيع . فانتفع المسلمون بهذه الكتب . (١)

ومحمد بن علي بن هاشم بن علي بن مسعود الهاشمي المكي (ت ٨٥٩ هـ / ١٤٥٤ م) ، الذي كتب بخطه الحسن كثيراً من الكتب ، وجمع مجاميع مفيدة ، وأوقف محاسن كتبه ، ووضعت بعد موته برباط ربيع . (٢)

وأبو حميد الأنصاري الحضرمي (ت ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م) . نزيل مكة الذي كان محباً للخير ، فأسند في وصيته لأحد الشيوخ أن يأخذ من كتبه مايحب ، فأخذها وأوقفها برباط ربيع ليستفيد منها طلبة العلم . (٣)

أما رباط الخوزي ، فقد أوقف به محمود بن جمال الدين أبي طاهر الهروي الناسخ (ت ٧٩٦ هـ / ١٣٩٣ م) ، كتباً في الحديث والفقه ،(٤) وكذلك أحمد بن سليمان بن أحمد شهاب الدين المعروف بالتروجي (ت ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م) ، الذي أوقف به عدة كتب . (٥)

هذا وقد اهتم المجاورون بالحرم المكي الشريف بفهرسة مكتبات هذه الأربطة ، وتصنيفها وتنظيمها ، بحيث يسهل تناولها ويسهل إستعمال كتبها على الباحثين والدارسين فقد ذكر السخاوي ، أن صالح بن عبد الله بن محمد بن عبد الله السلجماسي المغربي نزيل مكة فهرس كتب رباط الموفق في سنة ٨٧٨ هـ / ١٤٧٣ م (٦) و يبدو أن هذه المكتبة كان بها كتباً كثيرة

---

(١) النجم بن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٢٤ ، الدر الكمين ، ورقة ١١٧ أ .

(٢) النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ٤٢ أ .

(٣) ن . م . س . ورقة ١٣٤ أ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ / ص ١٣٧ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣/ ص٤٣ ـ ص ٤٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ، ج١ / ص ٣٠٧ ـ ص ٣٠٨ ،، التحفة الطيفة ، ج١ / ص ١٨١ .

(٦) الضوء اللامع ، ج٣ / ص ٣١١ .

، وإلا لما إحتاج الأمر إلى فهرسة كتبها .

وكان المسؤول الأول عن حفظ وحماية هذه الكتب والمكتبات في الأربطة شيخ الرباط ويتضح لنا ذلك ، حين ترجم النجم بن فهد لأحمد بن محمد بن محمد المصري ثم المكي شهاب الدين المعروف بالمقدسي المسدي (ت ٨٦٥ هـ / ١٤٦٠ م) ، « بشيخ رباط ربيع وحافظ كتبه » [(١)]

والجدير بالذكر أن معظم هؤلاء الواقفين لهذه الكتب في الأربطة كانوا من سكانها [(٢)] فعرفاناً منهم لما تقدمه هذه الأربطة لهم من خدمات ولمعرفتهم بأن هذه الأربطة تأوي كثيراً من طلبة العلم الفقراء ، والذين لايملكون أموالاً لشراء الكتب ، فكانوا يحسون ويشعرون بمعاناتهم ، خاصة وأنهم كانوا يقيمون معهم ومعايشين لواقعهم ، لذلك أوقفوا كتبهم في هذه الأربطة خدمة لهم ولطلبة العلم الآخرين .

٣ - خزائن الكتب في المدارس .

إهتم السلاطين والأمراء ، وعلماء الحجاز وغيرهم بخزائن الكتب في المدارس ، لتساعد في تنشيط الحركة العلمية في الحجاز ، وعين لبعض هذه المدارس أمناء لمكتباتها . من أجل المحافظة على الكتب ، وتقديم العون لطلاب العلم في جلب مايطلبونه من الكتب .

فقد أوقف الأمير شرف الدين بن عبد الله الشرابي سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م ، كثيراً من المؤلفات في فنون مختلفة ، وجعلها في مدرسته المجاورة لباب السلام من الحرم المكي[(٣)] وذكر النهروالي أن هذه الكتب ذهبت شذرمذر ، وأنها تحولت إلى رباط أوقف فيه الفقهاء بعض الكتب . [(٤)]

---

(١) الدر الكمين ، ورقة ٨٦ ب

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٣ / ص ٤٤ ، النجم بن فهد : الدر الكمين ، ورقة ١١٦ أ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٣ / ص ٣٢٤ - ص ٣٢٥ ، شفاء الغرام ، ج١ / ص ٣٣١ ، النجم بن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ / ص ٦٠ .

(٤) الاعلام ، ص ١٧٧ .

كما أمر الخليفة المستنصر العباسي في سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م ، بإنشاء مكتبة في المدرسة المنصورية بمكة . وأرسل الأموال إليها من بغداد ، وبعدها أصبحت مقراً للملك المنصور وزوجته حينما يتوجهان لأداء فريضة الحج .(١)

كما إهتم المجاورون في المدينة المنورة بالمدرسة الشهابية ، وأوقفوا بها كتباً كثيرة ومنهم : يحيى بن زكريا ويقال ابن زكري السواري الحوراني (ت ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م) الذي أوقف خزانة كتب بالمدرسة المذكورة(٢) ، ومحمد بن فرحون بن محمد بن فرحون (ت ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م) الذي نسخ بخط يده كتاب « الروضة » للنووي ، وأوقفه بالمدرسة الشهابية . (٣)

وكذلك إبراهيم بن رجب بن حماد البرهان أبو إسحاق الرواشي الكلابي ، نزيل المدينة (ت ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م) ، الذي كانت له كتب جليلة في الفقه والأصول والحديث ، واللغة وغيرها ، وقف بعضها بالمدرسة الشهابية في المدينة . وأكثرها بمكة (٤) .

ويكاد يكون السلطان قايتباي ، هو الوحيد من سلاطين المماليك الذي إهتم بإيجاد خزائن الكتب في المنشآت العلمية بالحرمين الشريفين ، ففي مكة أنشأ مدرسته وأرسل إليها خزانة وقفها على طلبة العلم (٥) ، وكان من جملة هذه الكتب ربعة مكتوبة بالذهب الخالص ، من أولها إلى آخرها بقلم الشعر في صورة قلم الثلث (٦) . وعين لهذه المكتبة خادماً جعل له

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ / ص ٨٤ ، ابن الديبع : قرة العيون ، ج٢ / ص ١٢ .
يحيى بن حسين : غاية الأماني ، ج١ / ص ٤٣٣ ، الصباغ : تحصيل المرام ، ورقة ١٨٩ ب .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج٧ / ص ٤٣٥ .

(٣) السخاوي : التحفة الطيفة ، ج٣ / ص ٧٠٧ .

(٤) ن.م.س . ج ١ / ص ١١٣ ـ ص ١١٥ .

(٥) النهروالي : الاعلام ، ص ٣٢٥ ، السنجاري : منائح الكرم، ج٢ / ورقة ١٣ ـ ورقة ١٤ .
عبد التواب : قايتباي المحمودي ، ص ٢٠٥ ـ ص ٢٠٧ .

(٦) السنجاري : منائح الكرم، ج٢ / ورقة ١٣ ـ ورقة ١٤

معلوماً لذاته .[1]

ويذكر النهروالي أن أيدي المستعيرين إستولت على هذه الكتب ، وضيعوا أكثرها ولم يبق منها سوى ثلثمائة كتاب ، قام النهروالي بصيانتها ، وتجليد بعضها .[2]

ويشير السخاوي إلى بعض محتويات هذه المكتبة ، فيقول بعد ذكره لمن كتب في تاريخ البلدان « ووراء هذا تصانيف في البلدان والتعريف بها . وذكر مآثرها وفتوحها خاصة بدون تراجم أهلها غالباً ، وهي كثيرة جداً حفلها « معجم البلدان » لياقوت و « المسالك والممالك » للبكري ، ولعبد الله بن خرداذبه ، وهو غير تاريخه ، وكذا عمل الشهاب ابن فضل الله « مسالك الأبصار في الأقطار والأمصار » ، أزيد من عشرين مجلداً ، وهذه الكتب بمدرسة سلطاننا قايتباي بمكة وبالمؤيدية كذلك »[3] كما أنشأ السلطان قايتباي مدرسة بالمدينة المنورة ، وأوقف بها كتباً على طلبة العلم ، وأرسل إليها كذلك مصاحف كثيرة ، كما أرسل الأشرف البهائي بهاء الدين إبى البقاء إبى الجيعان ومعه أحمال من كتب العلوم الشرعية ليوقفها بهذه المدرسة .[4]

ونتيجة لإهتمام السلاطين بإقامة المنشآت العلمية في الحرمين الشريفين وتشجيع العلماء على التأليف ، فقد درج العلماء في الحجاز أن يؤلفوا الكتب باسم الحكام ، وأن يهدوها لهم ، وذلك رغبة منهم في حماية أنفسهم وفي رواج أعمالهم وإرتفاع أسمائهم وتأمين مورد للعيش أفضل من المورد الذي يؤمنه لهم التأليف وحده دون حماية أو رعاية والأمثلة على ذلك كثيرة . وقد سبق ذكرها أثناء حديثنا عن تشجيع السلاطين والأمراء للعلم كما أن وجود علماء كبار على مستوى السمهودي . جعلهم يوقفون كتبهم من أجلهم .

---

(١) النهروالي : الاعلام ، ص ٣٢٥ ، السنجاري : منائح الكرم، ج٢/ ورقة ١٣ .

(٢) الاعلام ، ص ٣٢٥ .

(٣) الاعلان بالتوبيخ ، ص ١٣٥ .

(٤) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج٢ / ص ٣٠٧ ، السمهودي : وفاء الوفا ، ج٢ / ص ٦٤٣ - ص ٦٤٥ . النهروالي : الاعلام ، ص ٢٢٩ ، الطبري : الأرج المسكي ، ورقة ١٣٢ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ، ج ٤ / ص ٤٤ .

وذلك أن السمهودي حينما « لقى السلطان بالقاهرة أوقف كتباً بالمدينة من أجله » (١)

كما أن العلماء يشجعون طلاب العلم على قراءة كتبهم ، ويراعون ذلك في مؤلفاتهم ويختصرونها حتى يستطيع طالب العلم حملها من مكان إلى اخر ، ومن هؤلاء تقي الدين الفاسي الذي اختصر كثيراً من مؤلفاته في مؤلف واحد مراعاة لطالب العلم .

---

(١) السمهودي : وفاء الوفا ، ج٢ / ص ٦٤٣ ، الشوكاني : البدر الطالع ، ج١ / ص ٤٧٠ ص ٤٧١ .